

مجموعة الكتب المترجمة

# تاريخ أفريقيا



جنوب الصحراء

تأليف  
رونالد روبنز  
ترجمة  
الدكتور راشد البراوي

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمد ديب

المستشفى الملكي المصري

# تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء

تأليف

دونالد ويدنر

ترجمة

الدكتور زايث البراوي

الناشر

مكتبة الهادي العربي

• شارع كامل صدق بالمعجالة

Copyright © 1962 by Donald L. Wiedner  
A History of Africa : South of The Sahara  
Published by The Random House, New York

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر الزلوة - النجيلة  
تليفون ٩٠٥٢٩٦

## فهرس

- ٧ — ١. تمهد  
١١ — ٢. خلفية الصورة

### الكتاب الأول

#### أفريقية القديمة

- ٣٧ — ٣. القبائل والإمبراطوريات  
٦٣ — ٤. إلى الرق  
٩٧ — ٥. ورطة المدالة  
١٢٥ — ٦. من بنت إلى الزنج  
١٤١ — ٧. إمبراطوريات ساحل أفريقية الشرقية  
١٥٧ — ٨. غزو جنوب أفريقية  
١٧١ — ٩. البوير والبانو والبريطانيون  
١٩٧ — ١٠. الهجرة الكبرى والجمهوريات

### الكتاب الثاني

#### أفريقية تصنع من جديد

- ٢١٩ — ١١. رسالة الحرية



مفتحة





- ١ -

## تمهيد

هل لإفريقية تاريخ؟ يمكن القول بأن التاريخ يصنع حيناً وحيناً قد يعيش الإنسان ، وقد وجد الإنسان في إفريقية ، زمناً طويلاً ، شأنه في أى مكان آخر . ولقد جرى القول بأن التاريخ لا وجود له إلا حيث تتوافر لدينا من السجلات المكتوبة التماسكة والمخلفات الأثرية ما يكفي لتكوين نمط زمنى يمكن تفسيره . وكانت مصر ووادى النيل وشمال إفريقية ، موضع الاعتقاد طويلاً بأنها الأماكن التى لها مثل هذا التاريخ ، ولكن جنوبى تلك الأقاليم نادراً ما أزعجت الأدوات التقليدية الغطاء عن مصادر تحقق مثل هذا التماسك . وكان المعتقد أن ليس لإفريقية تاريخ سوى ما كتبه المكتشفون والمستعمرون من أهل حوض البحر المتوسط وأوربا فى الأزمنة الحديثة تماماً ، وأن الشعب الإفريقى لم يكن له تاريخ إلا بعد أن اتصل بالأوروبيين .

هذه النظرة تغيرت تغييراً جوهرياً بفضل الأساليب الحديثة والتطورات الحديثة فى الاتجاه إلى هذا الموضوع . لم تعد الوثائق والآثار بالمصادر الوحيدة التى تستقى منها المعرفة التاريخية ، وأخذت الأساليب البديلة تزودنا بمادة صحيحة كثيرة فى السنوات الحديثة ، بل وفى حالات عدة أدت الأساليب الجديدة إلى اكتشاف وثائق أو مخلفات إفريقية لولاها لما ظهرت أبداً .

إن البحث الذى لا يستخدم بالضرورة الوثائق أو الآثار ، أخذ ينمو على

نطاق واسع نتيجة استخدام المعرفة العلمية والنفسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وجاء تطبيقها على إفريقية ، في صورة علمى الأجناس والاجتماع ، متأخراً نسبياً ، ولكن اكتُشف أن الإفريقيين قد احتفظوا بتقليد عريض في كل الأساطير العلمانية والدينية ، والكثير منها تركيبات خيالية أو تفسيرات لظواهر غير معروفة . والعادة أن أقرب الأساطير إلى التصديق ، تضع التأكيد على القوائم التي تتضمن أسماء الملوك والمبارك وربما الهجرات الكبرى ، وغالباً ما يتعرض تحديد تاريخ وقائع معينة للتفسير أو الحذف ، وغالباً ما يقع التبديل بطريقة تعسفية في ترتيب الأسماء والأحداث . ويذهب الشكاك إلى أن الأساطير لاتعدو في دقتها لعبة من الألاعيب التي قوامها الحظ . ولكن هناك أساليب عدة يمكن بها تصحيح العناصر المضطربة فيها ، وفصل الأساطير الصحيحة عن الخيال . فإذا كانت الرواية الشفوية تسجل بوضوح أحداثاً وصفها أيضا الكتاب الأوربيون أو العرب ، فمن المحتمل أن تصدق تفاصيل أخرى كثيرة في الرواية ، ويمكن إثبات التواريخ . وأحياناً يساعد علم الآثار على إثبات صحة أسطورة . وهناك على الأقل رواية شفوية تضمنت تفاصيل عن كسوف الشمس منذ ٢٥٠ عاماً ، وهذا يطابق تماماً الحسابات الفلكية الأوربية . وفي بعض الحالات يجرى تعريف حقوق ملكية الأرض ، قروناً ، وصحة هذه الذكريات ذات أهمية حيوية لكل جيل بحيث يكاد يستحيل أن تكون فيها أخطاء كبرى . وغالباً ما يستمع الى الرواية ويصحح روايته غيره . من رجال القبيلة ممن يعرفونها أيضاً . وقد تكون أساطير قبيلة ما مشابهة-

لأساطير جماعة أخرى ، ولكن هذا الضرب ، من الدليل ليس فاطما بسبب إمكانية الافتراض . لكن مثل هذه الأساطير تحتفظ عادة بمعان تتم عن نشأتها وانتقالها وأحيانا عبر مسافات كبيرة أو بطريق الوسطاء وهذه المعاني في حد ذاتها ظاهرة تاريخية لها أهميتها .

ونمة عدد من الروايات والأخبار لها قيمتها القصوى — وبمضها كتبه الرحالة أو العلماء العرب ، وقلة منها كتبها الأفريقيون الزوج باللغة العربية — وهذه تلقى الضوء على أحداث جرت في أجزاء من إفريقية الشرقية والغربية جنوبى الصحراء الكبرى ، قد يرجع تاريخها في بعض الحالات إلى أكثر من عشرة قرون قبل وصول الأوربيين في العصر الحديث .

لذلك فإن لإفريقية تاريخاً خاصاً بها . ويمكن أيضاً توسيع نطاق الخبر واختباره باستخدام روايات الرحالة والفاطميين والتجار من البلاد التي طورت فن الاحتفاظ بالسجلات، ومن المزيج الفريد من المصادر التاريخية الإفريقية تبرز عدة موضوعات متكررة . وعلى ضوء هذه الخلفية من التنظيم القبلى والثقافة القبلية ، يجب أن يبحث المؤرخ النمو الحلى ، من سياسى واقتصادى وجغرافى وثقافى ودينى . هذه المجتمعات ، وإن ظلت تواصل هذه العمليات ، تبدأ أيضاً في التفاعل مع المؤثرات التكنولوجية والتنظيمية الأوربية ، ثم يزداد الإفريقيون من أبناء القارة وأوربا ، بوصفهم جزءاً من العالم الحديث ، في الاتصال بعضهم ببعض وبالعالم الخارجى ، بينما يعمل الجانبان على أن تتلاصق تقاليدهم التاريخية المتغيرة مع البيئة والظروف السائدة . إن التجانس في إفريقية لا يزيد أو ينقص عنه في أوربا أو أمريكا . ولا ينبغي أن يكون من الضرورى فرض وحدة

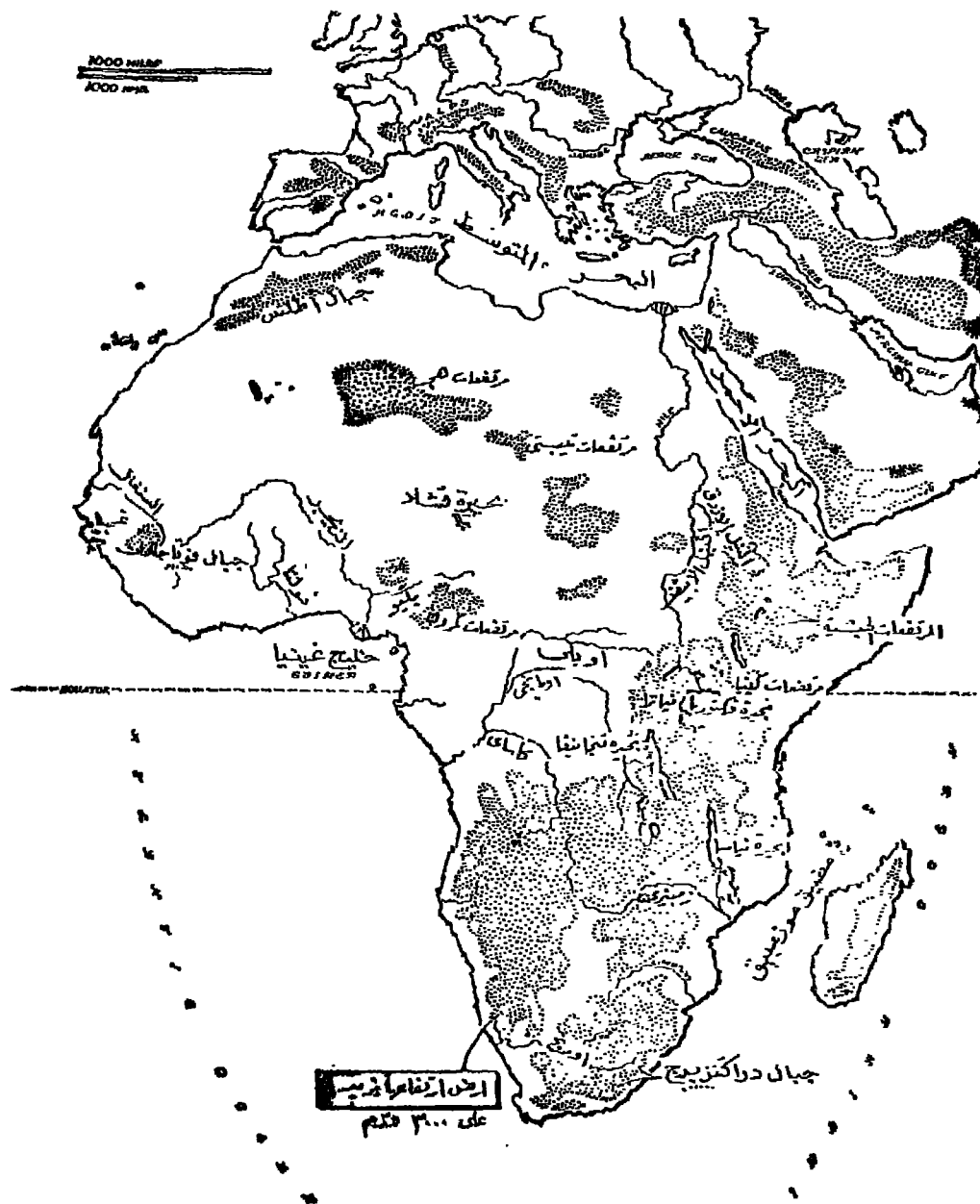
اصطناعية من أجل تبرير دراسة منطقة كبيرة نسبياً . إن في الإمكان عن طريق الاستعراض العام ، دراسة التنوع فضلاً عن التشابه .

لقد كان ساحل إفريقية المطل على البحر المتوسط والذي يتركز حول مصر ولكنه يمتد مع الإسلام غرباً إلى مضيق جبل طارق ، موضوعاً يعرفه القراء والمؤرخون الغربيون ، وكانت إفريقية جنوبي الصحراء غير معروفة بالفعل لأية حضارة في المصور القديمة أو الوسطى باستثناء الحضارة العربية . ولهذا نادراً ما توافر الاهتمام الكثير بالأقاليم الواقعة جنوب الصحراء ، وراء المجرى الرئيسى لنهر النيل وجنوب مرتفعات إثيوبيا . وبذلك فإن هذا الجزء من إفريقية ، وليس المنطقة الجغرافية بأسرها ، هو أنسب وحدة يوجه إليها النظر في الوقت الحاضر .

## خلفية الصورة

إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، تلك الصحراء الفسيحة الأرجاء التي تمتد في شمال أفريقيا لانتقى المظهر الغالب هو الجبل أو الدغل الذي يثير الخيال ، وإنما هو البطاح الشاسعة التي تتكون من أرض تكسوها الحشائش وتتخللها بصورة غير منتظمة الأشجار ، أو ينساب فيها عرضاً نهر بطيء الجريان . هذه الأرض المغطاة بالحشائش تشبه إقليم البراري البكر الذي يمتد بين تكساس وولاية داكوتا ، وإن تكن في المادة أكثر دفئاً وأشد جفافاً معظم السنة . ويشكل سقوط المطر في أفريقية مشكلة خاصة لأنه يتركز عادة في فصل واحد من السنة ، وغالباً ما لا يكفي لسد المطالب المفروضة على الأرض ، وليس من قارة غير أستراليا تقل فيها الجبال والمرتفعات كما في إفريقيا ، كما أن أمريكا الجنوبية وجنوب آسيا يضمن من الغابات الاستوائية المطيرة التي جرى العرف على إطلاق اسم « الأحرش » عليها أكثر مما نجده منها في أفريقيا .

وتبلغ مساحة أفريقية حوالي ١١,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع يكاد ٥,٠٠٠,٠٠٠ منها أن يقع في الصحراء الكبرى على امتداد البحر المتوسط ومن الباقي ، وقدره ٦,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع جنوبي الصحراء الكبرى ( أى ما يعادل ضعف مساحة الولايات المتحدة ) نجد حوالي ٢٠ في المائة عبارة عن غابات استوائية مطيرة حيث المطر أغزر والنبات أشد كثافة مما في جنوب شرقي الولايات المتحدة ، أما النسبة الباقية وهي ٨٠ في المائة في ذلك القسم من إفريقية الواقع جنوبي

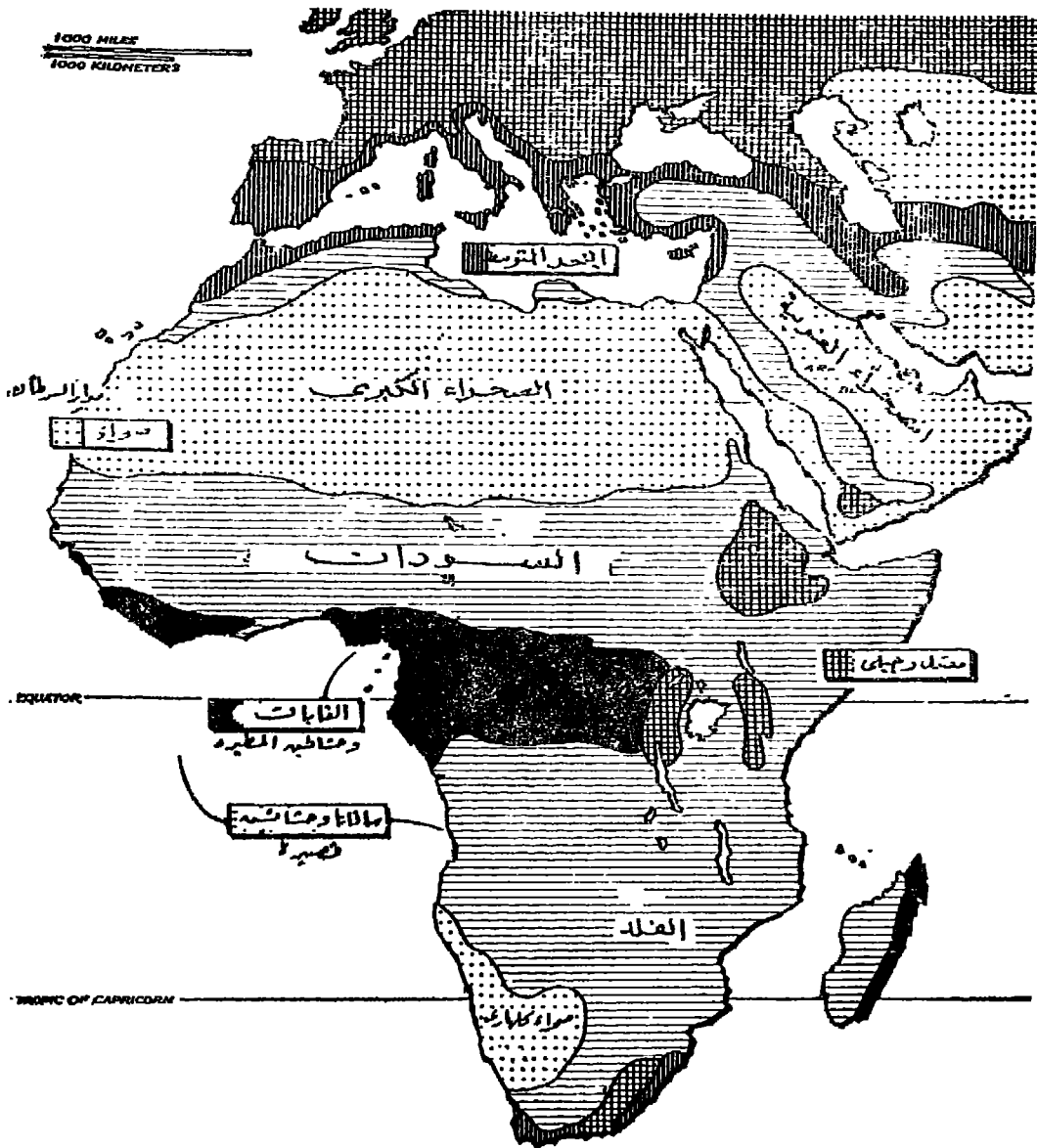


تضاريس افريقية

الصحراء الكبرى ، فيقل فيها المطر عنه في ميامي بولاية فلوريدا . إذا استثنينا الصحراء الكبرى نفسها فليس ثمة جزء في إفريقية يسجل درجات من الحرارة تبلغ في الارتفاع مثيلاتها في شرق الولايات المتحدة ، ولكن جبال جنوب إفريقية وحدها هي التي تصل فيها درجة البرودة في الشتاء إلى مثلها في واشنطن بمقاطعة كولومبيا . وإذا استثنينا الغابة المطيرة ، فإن مدى التفاوت في مناخ إفريقية يقارن على العموم بالمدى السائد في المنطقة الممتدة عبر تكساس من لويزيانا إلى نيومكسيكو .

ويتراوح مناخ شمال إفريقية على امتداد ساحل البحر المتوسط بين المناخ شبه الاستوائي والعتدل حسب درجة الارتفاع . وواضح ما يميزه عن مناخ الشاطئ الأوروبي من البحر المتوسط أنه أشد جفافاً بدرجة طفيفة، وأنه باستثناء مراکش والجزائر يتحول بسرعة إلى الأوضاع المناخية الصحراوية . والصحراء الكبرى أميل إلى أن تكون صخرية منها رملية ولهذا تضم عدة منابع مائية هامة يمكن الاعتماد عليها ، أو واحات تبرز من تلك المساحة ذات المعالم المتنوعة ، والبالغ مساحتها أربعة ملايين ميل مربع ، ولا تتخللها في أية نقطة منها تضاريس ذات شأن فيما عدا نهر النيل الصالح الملاحة إلى حد كبير ، والذي يشكل مورداً أصلياً للرى .

وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى يبدأ إقليم السافانا حيث يمكن الإبقاء على الزراعة الجافة . وتزداد حشائش السافانا غزارة وارتفاعاً إلى أن تنتقل فجأة إلى الحد الذي تبدأ عنده الغابات المطيرة في الغرب والوسط . وفيما بين الغابات المطيرة والمرتفعات الأثيوبية يكون النيل مستنقعات كثيرة ، ينمو بها ورق



# مناخ افريقيته



البردى وتعرف باسم « السدود ». وإذا ابتعدنا في اتجاه أعلى النيل ألقيناه عيس الحافة الشرقية للغابة المطيرة، ويأتى بنوع من السافانا يمتد حتى إفريقية الاستوائية والبحيرات الإفريقية العظمى، وفي اتجاه الغرب وعلى امتداد نهر الكونغو وساحل المحيط الأطلسى نجد الغابات المطيرة، وفي الشرق مرتفعات كينيا ذات المناخ المعتدل، والبطاح المحيطة بها. وفي الجنوب الشرقى شجيرات مدارية جافة؛ وثمة شريط من الأرض الخلاء يواصل امتداده مخترقاً وسط القارة حتى جنوب إفريقية حيث يأخذ في الاتساع مكوناً للرج « الفلد veld » الذى هو بدوره أرض مغطاة بالحشائش شبيهة تماماً بالسافانا الشمالية. ويضم جنوب إفريقية أيضاً سلسلة من المرتفعات الساحلية تلتقى وراءها بجوار المحيط مناخاً يعرف باسم « رأس البحر المتوسط » لأنه شبيه بمناخ الريفييرا، وهناك صحارى مجدية ومحدودة المساحة شرق كينيا فى « قرن » الصومال وشمالي إقليم رأس الرجاء الصالح.

وبالرغم من أن معظم إفريقية جنوب الصحراء الكبرى يتميز هكذا بمناخ يغلب عليه التجانس إلى حد ما، فإن هناك مساحة محدودة من الغابات المطيرة تقسم بالتفاوت الذى يثير النظر من حيث المطر والنبات. وفى ثلاثة أرباع هذه المساحة التى يقال لها « الأحرش » يتراوح متوسط المطر السنوى بين ٧٠٥ و ٧٨٠ بوصة فى المتوسط مقابل ٦٧ و ٦٦ فى موبيل بولاية ألاباما، أما فى الربع الباقى من منطقة الغابات المطيرة أى حوالى ٥ فى المائة من المساحة الواقعة جنوب الصحراء — فإن المتوسط يتراوح بين ٧٨ و ٧٠ بوصة وما يقرب من ٤٠٠ بوصة. مثل هذا المطر الغزير يسقط فى ثلاث مناطق وهى (١) أجزاء من غينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج (٢) وحوض الكونغو الأوسط (٣) ودلتا النيجر وساحل

الكرون ، أما الحزام الذى يبلغ متوسط المطر فيه ٢٠٠ - ٤٠٠ بوصة ، فلا يوجد إلا على منحدرات جبل كرون .

والنبات كثيف فى الغابات المطيرة، وتختلف اختلافاً بالغاً طبيعة ورق الشجر والأشجار الكبرى من حيث النمط والدوام ، ولكن هذه الخواص تمشى منطقياً تماماً مع كمية المطر، فلو كثر المطر لكان معظم حوض الكونغو والإقليم الذى يليه إلى الجنوب مباشرة غابة مطيرة ولكننا بدلا من هذا نجد غابة جافة تنمو بها الأشجار الكثيفة فى أوراقها، فتحول المنطقة إلى مسافات تغطيها الحشائش . وعلى طول الساحل الجنوبي الشرقى ( موزمبيق و ناتال ) مساحات متفرقة ينمو بها نبات غابات الأمطار ، وهذه الظاهرة ترجع إلى المطر الذى يسقط بانتظام على مدار السنة أكثر مما ترجع إلى سقوط كمية بالغة من المطر .

وإذا استثنينا الساحل الجنوبي الشرقى فإن شهور المطر فى أفريقية واضحة يمكن التنبؤ بها . وهناك نمط متصل من التغير فى هذه الفصول من الشمال إلى الجنوب ، ولا توجد أية مسالك واضحة للمواصف بين المنطقتين المعتدلتين عند البحر المتوسط ورأس الرجاء الصالح فيما عدا موزمبيق أيضاً التى تقع على حافة حزام من المواصف المدارية .

وتعزى الحدود السياسية إلى عوامل تاريخية معقدة ، بوغاباً ما كانت تصفية أكثر مما تعزى إلى العوامل الجغرافية ؛ ولكن العوامل الجغرافية هى التى حددت حوت فعلا طرق المواصلات والتجارة إلى أن جعلت القوة الأوربية السياسية والتكنولوجية فى الإمكان تحدى الطبيعة .

وهناك ثلاثة أنهار كبرى وهى النيل والنيجر والكونغو تكاد أن تكون أهميتها للملاحة مثلما كانت عليه ، ولكن فائدتها للنقل محدودة بسبب العوائق المختلفة فى الشلالات والجنادل والحواجز الرملية والتقلبات الفصلية فى كميات مياهها ، أما الأنهار الأصغر شأنًا مثل شيريه وفولتا والسنغال وغينيا فنادرًا ما استخدمت حتى الأزمنة الحديثة .

وينتشر السكان فى جميع إفريقيا الغربية والشرقية والوسطى والجنوبية ، كما نلقى بعضهم متفرقين عبر الصحراء الكبرى ، ولكننا نجد أشد تركيزًا للسكان على طول ساحل إفريقيا الغربية بين نهري السنغال والكامرون ، ويزداد كثافة بنوع خاص فى دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من غانة وحول البحيرات العظمى وعلى طول سكة حديد كينيا - أوغندا ، ولكن السكان أشد تركيزًا فى رواندا - أوروندى وفى الأجزاء الشرقية والجنوبية من روديسيا الجنوبية وجمهورية جنوب أفريقيا . هذه المناطق الأشد ازدحامًا بالسكان يمكن ملاحظتها بوجه عام بتغيرات الكثافة السكانية فى داخل فرنسا أو بولندا أو فرجينيا ، ولكن فى المنطقة الأعظم مساحة والممتدة جنوب الصحراء الكبرى يتفرق السكان شأنهم فى شمال السويد أو فى السهول الأمريكية .

وعظم انتشار توزيع السكان الإفريقيين تطور حديث النشأة تمامًا إذ من المرجح أن أعظم تركيز سكاني منذ خمسمائة عام خلت كان حول مناطق النيجر والبحيرات العظمى الاستوائية . ويبدو أن سواحل إفريقيا وأجزاءها الجنوبية كانت قليلة السكان . ومن المحتمل أن الأجزاء الجنوبية والوسطى من الصحراء

الكبرى كانت في الأزمنة القديمة أشد أجزاء القارة ازدحاماً بالسكان ، والذين كانوا يقولون في الجهات التي يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم السافانا والغابات ، ولذلك شهدت الصحراء أقدم تاريخ في إفريقية ، وبعد ذلك ينتقل الاهتمام إلى سافانا النيجر ، وشواطئ بحيرة فكتوريا .

وبدل عدد من الكشوف الحديثة على أن الجنس البشري ربما نشأ في إفريقية . ويبدو أن أقدم النماذج كانت أشد شبيهاً من ناحية المظهر والسلوك بالبوشمن والأقزام الحديثين والسكان الأصليين في أستراليا . ولا يستطيع العلماء الاتفاق على ما إذا كان القوقازيون والزوج الحديثون من سلالة تلك النماذج الأصلية ، أو أنهم تطوروا على نهج مماثل<sup>(١)</sup> ولكن يبدو من المحتمل أن نماذج البوشمن كانت منتشرة من جنوب إفريقية عبر إفريقية الشرقية إلى أثيوبيا ، بينما تسرب الأقزام من كينيا الغربية عن طريق الكونغو والغابات المطيرة الساحلية بإفريقية الغربية ، وامتص العنصران الأخيران الأجناس شبه الأسترالية ولكن البقية هاجرت عن طريق آسيا إلى أستراليا والإقيانوسية<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر مؤلفات :

L.S.B. Leaky ; Adam's Ancestors ( 4th ed. ) London 1953

تقرير مؤتمر المعهد الملكي للأنتروبولوجيا

Early Human Remains in East Africa ( Cambridge, 1923 ) ; Proceeding of the 1st Pan-African Congress on Pre-History, Oxford, 1952.

(٢) تناقش سونيا كول Sonia Cole تقديرات هذه النظريات والنظريات التالية في

كتابها ( The Prehistory of East Africa, ( Harmoudsworth, 1954 )

وهنرييت اليمين Harriette Alimen في ( لندن ١٩٥٧ ) The Prehistory of Africa.

وبدأت الأنواع القوقازية تظهر أيضاً في غرب كينيا وهم يعرفون بأسماء مختلفة منهم الكبسيون والكوشيون الأوائل أو الحاميون الأوائل ، ولكن ليس ثمة اتفاق على ما إذا كانت هذه سلالة تطورت من الأسلاف البوشمن أو أنها سلالة أخرى مستقلة . والمعتقد أن هؤلاء القوم هاجروا نحو الشمال الشرقي إلى بلاد العرب وآسيا الغربية ، كما هاجروا نحو الشمال الغربي أيضاً إلى مصر وشمال إفريقيا .

وقد أوحى العلماء الحديثون (وأشهرهم جوزيف ، جرينبرج) <sup>(١)</sup> أن لفظ كوشى ينطبق على هذا الجنس القوقازى الأصيل وأن لغتهم الأساسية تدعى الأفرو — آسيوية ( الحامية سابقاً ) وبذلك يكون البوشمن اسماً للجنس آخر تعرف لفته باسم خويسان . ولا يعرف على وجه التحديد شيء عن لغة الأقزام ، لأن هذا الجنس اتخذ تماماً لغات الأجناس التي غزته فيما بعد .

وكان أصل الزنوج أعظم لغز ، فقبل إنهم فرع من الكوشية أو إنهم نتاج امتزاج الكوشيين بالبوشمن أو الأقزام ، أما النظريات التي كانت تربطهم بزنوج الهند أو إندونيسيا والذين هاجروا بطريقة خفية دون أن يخلفوا وراءهم أى دليل لنظريات فلم تعد موضع القبول الآن .

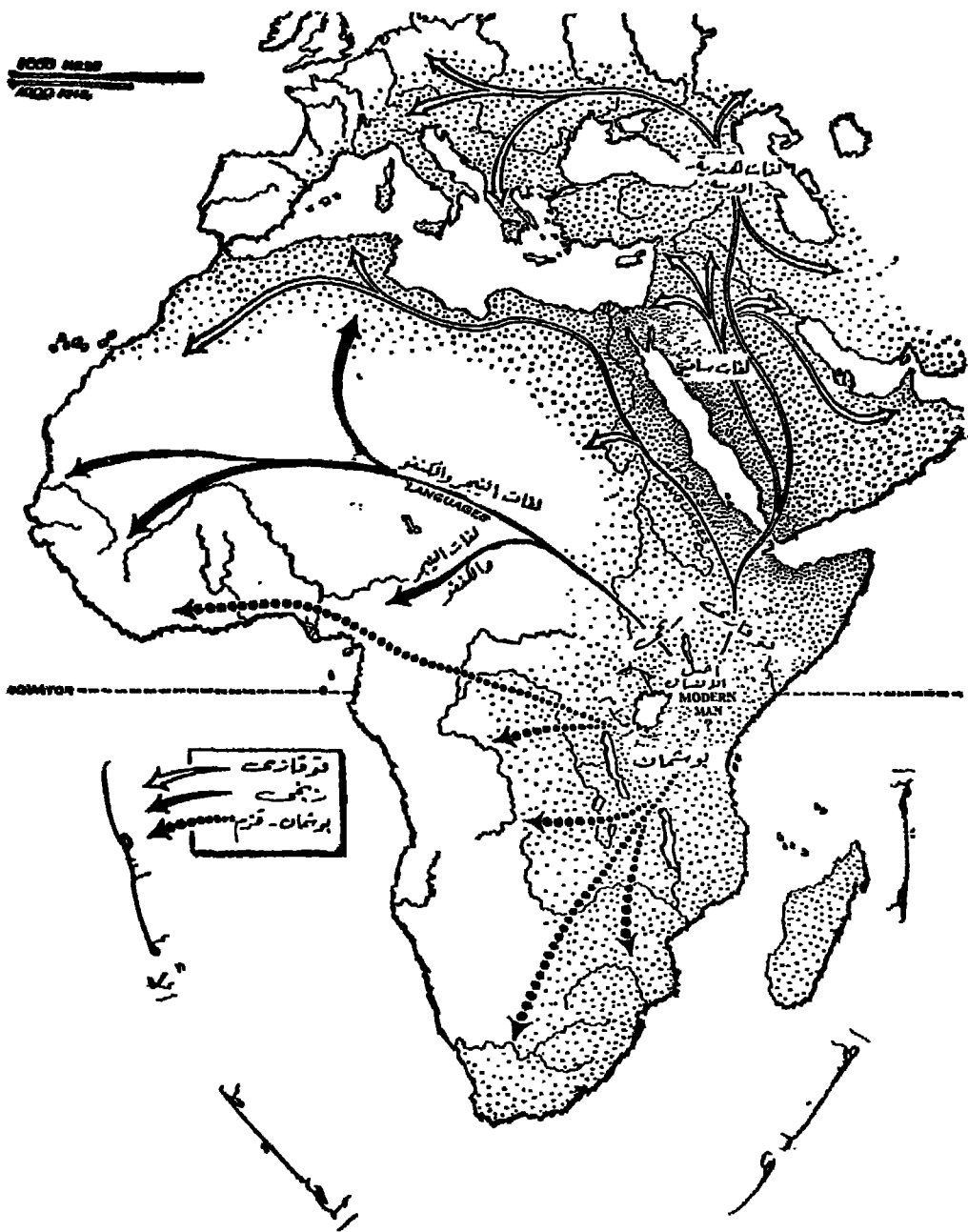
وتحديد الزمن الذى حدثت فيه هذه التطورات فى عصر ما قبل التاريخ

---

Joseph H. Greenberg : Studies in African Classifications (١)

(نيوهافن ١٩٥٥ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

أما الخلاصة الأقدم عهداً والتي ندها C. G. Seligman فى كتابه Races of Africa فأصبحت بالية .



الإجناس في افريقيه قبل عام ٣٠٠ ق م (افتراضية)

هو بالضرورة تحديد تقريبي ونسبي إلى أن تجرى أى أبحاث جديدة حول الموضوع ، ولكن يظهر أن الكوشيين والبوشمن والأقزام كانوا متميزين تماماً عن بعضهم بعضاً قبل عام ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد (٢) والكوشيين الذين كانوا يكتسبون خواص قوقازية دخلوا مصر حوالى ٥٠٠٠ ق.م ، ولكن (٣) الزوج لا يمكن تمييزهم قبل سنة ٦٠٠٠ ق.م ( بل وسنة ٤٠٠٠ ق.م كما أوحى البعض ) . وعندما ظهروا بالقلع كانوا فى الصحراء الكبرى بعيدين عن منطقة الغابات المطيرة ولكن دون أن يتاخروا البحر المتوسط وينتشروا من النيل إلى المحيط الأطلسى تقريباً ، وأفضل حدس لا تدعمه إلا أدلة ضئيلة يذهب إلى أنه يبدو أن الزوج كانوا فرقاً من الكوشيين المقيمين فى أعلى النيل على قرب شديد من كينيا ، وأنهم انتشروا بسرعة فى اتجاه الغرب . ويقدر ما يستطيع أن يطالعنا به العلماء فإن احتلال الصحراء الكبرى الأولى ، تم على أيدي أشباه الزوج الذين سرعان ما غلبوا على المنطقة كلها ، وكان معظمهم يتكلم لغات النيجر والسكونغو المعروفة سابقاً ( بالنيجر بقية ) .

وبذلك يبدو أن الجماعات الأربع العنصرية واللغوية الأساسية فى إفريقية نشأت داخل منطقة قطرها ٢٥٠ ميلاً من بحيرة فكتوريا وإن لم يكن معروفاً أنهم ينتمون إلى أصل واحد ، والواضح تماماً أن التوزيع الجغرافى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م كان على النحو الآتى تقريباً : البوشمن فى جنوب وشرق إفريقيا ، الأقزام فى الغابات المطيرة ، ومعظم الغابات الجافة جماعات من القوقازيين على طول الشاطئ الإفريقى والأسىوى للبحر الأحمر وعبر الإقليم الساحلى الشمالى لإفريقيا حتى المحيط الأطلسى (مراكش) . وانتشرت جماعات قوقازية من بلاد العرب عبرة أرض الجزيرة إلى أوروبا وآسيا الوسطى ، والزوج فى الصحراء الكبرى

والسافانا شمال الغابات المطيرة . ويبدو أن التسميات اللغوية كانت شبهة بالخطوط العنصرية فقد تفرعت من القوقازيين والأفرو-آسيويين خمس مجموعات لغوية فرعية، وهى السامية فى بلاد العرب وما بين النهرين، والبربرية على طول الساحل الشمالى الغربى من إفريقية، والمصرية القديمة والشاوية فى الصحراء الكبرى، والكوشية المبكرة فى أثيوبيا . وبدأت تظهر تسميات النيجر — كونغو، وأكبرها شأنًا ماندى أو ماندنجو (غرب الصحراء الكبرى) النجربقية الشرقية أو أداما الشرقية (شرق الصحراء) والباتتوية، وتعرف أيضاً باسم النجربقية الوسطى، أو شبه الباتتوية (جنوب شرقى نيجريا ومرتفعات الكمرن). ويبدو أن الزنوج فى وادى النيل ابتدعوا أسرة لغوية متميزة تماماً يقال لها السودانية، وربما كانت هذه مرتكزة على امتزاج لغات الشعوب النيويليقية أو أنها لغة انشقت فى تاريخ مبكر من أسرة اللغة النجربقية .

من الصعب أن نكون أكثر دقة نظراً لأن الذين كانوا يتكلمون بالسودانية كانوا يتزحزون بصورة متكررة. بفعل غزوات المصريين القدماء والأثيوبيين الكوشيين والزنوج ممن يتكلمون النجربقية الشرقية قبل عام ١٠٠٠ ق. م. وزاد الاضطراب بعد ذلك بسبب الغزوات التى شنها المصريون الساميون وأهل النجربقية الشرقية وغيرها من مختلف جماعات تجار الرقيق. وثمة مجموعات لغوية أخرى ليست واسعة الانتشار أو حلت تحليلاً جيداً نلقاها فى القسم الشرقى من الصحراء الكبرى ووادى النيل، ولكن بقية إفريقية اليوم يقطنه قوم يتكلمون اللغات الأفروآسيوية أو النيجر — الكونغو أو الخوسية.

ويبدو أن أربع جماعات بشرية فى العالم منمزلة بعضها عن بعض ابتدعت:



فما بين عامى ٨٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق.م أساليب زراعية ثابتة . هناك اختلاف زمنى بالغ بين هذه المواطن الباكرة ، ولكن ليس من دليل على قيام اتصال بين أى اثنين منها وما كان فى مقدور أية جماعات أخرى أن تنقل هذه المعرفة . فضلا عن هذا فالمحاصيل التى كانت تزرعها كل من هذه الجماعات وأساليبها وتنظيمها الاجتماعى تستبعد وجود اتصال بينهما أو نقل من واحدة إلى أخرى. وربما كانت التطورات التمييزية الأربع كالاتى (١) الفرع السامى من القوقازيين الذين يتكلمون اللغة الأفرو-أسوية فى وادى الأردن أو دجلة (٢) الطراز المغولى فى شرق آسيا (٣) الهنود الأمريكيون بين المكسيك وبيرو (٤) وزنوج ماندى المقيمون فى السافانا الإفريقية على طول المجارى العليا لنهر النيجر بين الغابات المطيرة والصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن مصر القديمة تعلمت زراعة المحاصيل من الأردن والعراق بينما انتشرت الأساليب الزنجية بالتدريج نحو الشرق من النيجر الأوسط إلى وادى النيل الأعلى . ثم منحت ثقافات الهلال الخصيب والزنوج — وهو أول اتصال بين الثقافات الكبرى فى تاريخ الإنسان — ولكن ترتب على ذلك أن كان من الصعب فصل الإنجازات التى حققتها ثقافة ما عن غيرها .

ولقد درج الظن بأن الإيجاز الزنجى كان نتيجة انتقال أفكار أهل بلاد الجزيرة إلى زنوج السافانا عن طريق مصر والنيل ، ولكن التاريخ الكريونى والأدلة الأركيولوجية توحى بوجود بدايات منفصلة ( ٥٠٠٠ ق.م فى الفردون وقبل ٤٠٠٠ ق.م فى إفريقية ) ولكن لم يحدث اتصال بين الاثنين فى مصر إلا فى تاريخ متأخر عن هذا بكثير .

إن تحديد الزمن الذي حدثت فيه هذه التطورات ومن ثم تحديد موقع هذه الثقافات وأهميتها النسبية والعلاقة السببية بينها — هذه كلها أمور لا تزال محتمل الشك . وأقصى حجة في تأييد النظرية السابقة تستند إلى الأسس الأنتروبولوجية واللغوية التي اكتشفها جوركايتز موردوك، ولكن كريستوفر ريجلي أجاب بحجة مقابلة تفيد تأكيد أهمية الزراعة الفلسطينية ، وتجعل مكان الزراعة والزنج الأوائل على طول وادي النيل .

واستند رولان بورشير إلى وجهة النظر النباتية، فاعتبر أن الإفريقيين اخترعوا الزراعة بطريقة مستقلة عن غيرهم ، ولكنه يجعل ظهورها في تاريخ متأخر هو ١٥٠٠ ق . م . وبعد أن استعرض و . فينج هذه التفسيرات من وجهة النظر التاريخية أيد التواريخ التي حددها بورتير ، وينسب الفضل إلى الزنج القيمين على السواحل أو في حوض النيجر الأوسط بدلا من الماندى<sup>(١)</sup> .

ومن المتفق عليه أن الزنج أوجدوا في تاريخ مبكر أنواعا عدة من الحبوب ( بما فيها الشكل الأساسي من السرغون و عدة أنواع من الدخن

(١) George Peter Murdock : Africa, Its Peoples and their Culture

( نيويورك ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ — ٤٥ ، ٦٤ — ٧٠ )

Christopher Wrigley : Speculation on the Economic Prehistory of Africa

( مجلة التاريخ الأفريقي ج ١ رقم ٢ ص ١٨٩ — ٢٠٢ )

Roland Porteres : Vieilles Agricultures de l'Afrique intertropicale ( L' Agromic Tropicale, vol V' 1950, P. P. 499—507 )

J. D. Fage : Anthropology, Botany and History of Africa

( مجلة التاريخ الأفريقي مجلة ١ رقم ٢ ، ١٩٦١ ، ص ٣٠٢ — ٣١٤ ) .

والأرز) والبامية وأشكالا معينة من الياقوت ، والفول السوداني ، والشمام والقرع  
العسلى ، والكولا والتمر هندی والسهم . وظن رجلى أن الكثير من هذه  
استعيرت أو جىء بها وتأقلت فى تاريخ مبكر ، ولكن كلا المصدرين يتفقان  
على أن أهم الإنجازات كانت زراعة نبات القطن من النبات البرى  
*Gossypium herbaceum* واستخدام أليافه فى صناعة النسيج ، فضلا عن استخدام  
النباتات المنتجة للزيت ( مثل أشجار النخيل ) ، والمفروض أن معظم المحاصيل  
انتقلت إلى المصريين القدماء فيما بين عامى ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق م ومن ثم إلى  
أوروبا والهند والشرق . وكانت المحاصيل الكبرى التى نقلت من أرض  
الجزيرة ومصر بطريق النيل هى الشعير والقمح والبسلة والعدس ، ونباتات  
الفيجى والبصل والفجل والسكرنب والعنب والبطيخ والتين والثود والزيتون  
والكتان وبعد ذلك وفدت من شرق آسيا نباتات الخيار والموز وقصب  
السكر والزنجبيل وأشكال جديدة من الأرز . وفى أثيوبيا أنتجت محاصيل  
مثل البن والجرجير بعد أن تعلمت الأساليب الزراعية من الزنوج والمصريين .  
وفى النهاية أدخل تجار الرقيق الأوربيون كثرى التمساح والطباق والذرة  
( الأمريكية ) واليما والقطنى والقرع والطاطم .

واحتفظ الزنوج ربما طيلة ألفى أو ثلاثة آلاف سنة باقتصاد زراعى مستقر  
بين الغابة والصحراء ، وتشير أدلة كثيرة إلى أن المنطقة المعروفة الآن باسم  
الصحراء الكبرى كانت أوفر خصبا بكثير فى هذه الفترة ، وأنها كانت قادرة  
على توفير أسباب العيش لأعداد كبيرة من السكان كانت تقيم على قطعان  
الماشية التى ترعى هناك . ولقد زالت الشكوك حول خصوبة الصحراء سابقا

بفضل العمل الذي قامت به بعثة لهوت<sup>(١)</sup> في سنة ١٩٥٦/٥٧ والتي أبرزت الدليل على أن الزراعة بغير الري كانت ممكنة خلال معظم الإقليم إلى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م ، وأن مرعى الماشية كان واسع الانتشار حتى حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م ، وإذ إنه كان في الإمكان تربية الخيول على نطاق واسع حتى العصر الرومانى . وحوالى سنة ٤٦ ق . م . لم يعد في الإمكان أن تعيش الخيول والثيران في الصحراء ، وحل الرومان المشكلة بأن جلبوا الجمال من آسيا الوسطى ، غير أن سفن الصحراء هذه لم تكن كثيرة أو ذات أهمية حتى القرن الرابع بعد المسيح<sup>(٢)</sup> .

من الصعب أن نتصور أن مساحة أكبر من الولايات المتحدة هي اليوم صحراء جرداء ، كانت يمثل هذا الخصب في تاريخ يذكركه الإنسان ، ومع ذلك فالدليل الذي قدمه لهوت وتقرير التجار الرومان والكشوف الأركيولوجية والتحليل الجيولوجي كلها تؤيد هذا التطور المثير للنظر .

ومن الصعب التأكد من الأسباب ، ويبدو أن التعرية والافتقار إلى المحافظة على التربة من جانب البربر المقيمين على الساحل والزنوج المقيمين في الداخل كانا من بين تلك الأسباب . وهناك اليوم على طول حافة الصحراء

---

1) Henri Lhote : Peintures prehistoriques da Sahara

( كتابالوج المرعى باريس ١٩٥٨ )

La deconverte des Freeques Du Tassil

( باريس ١٩٥٨ )

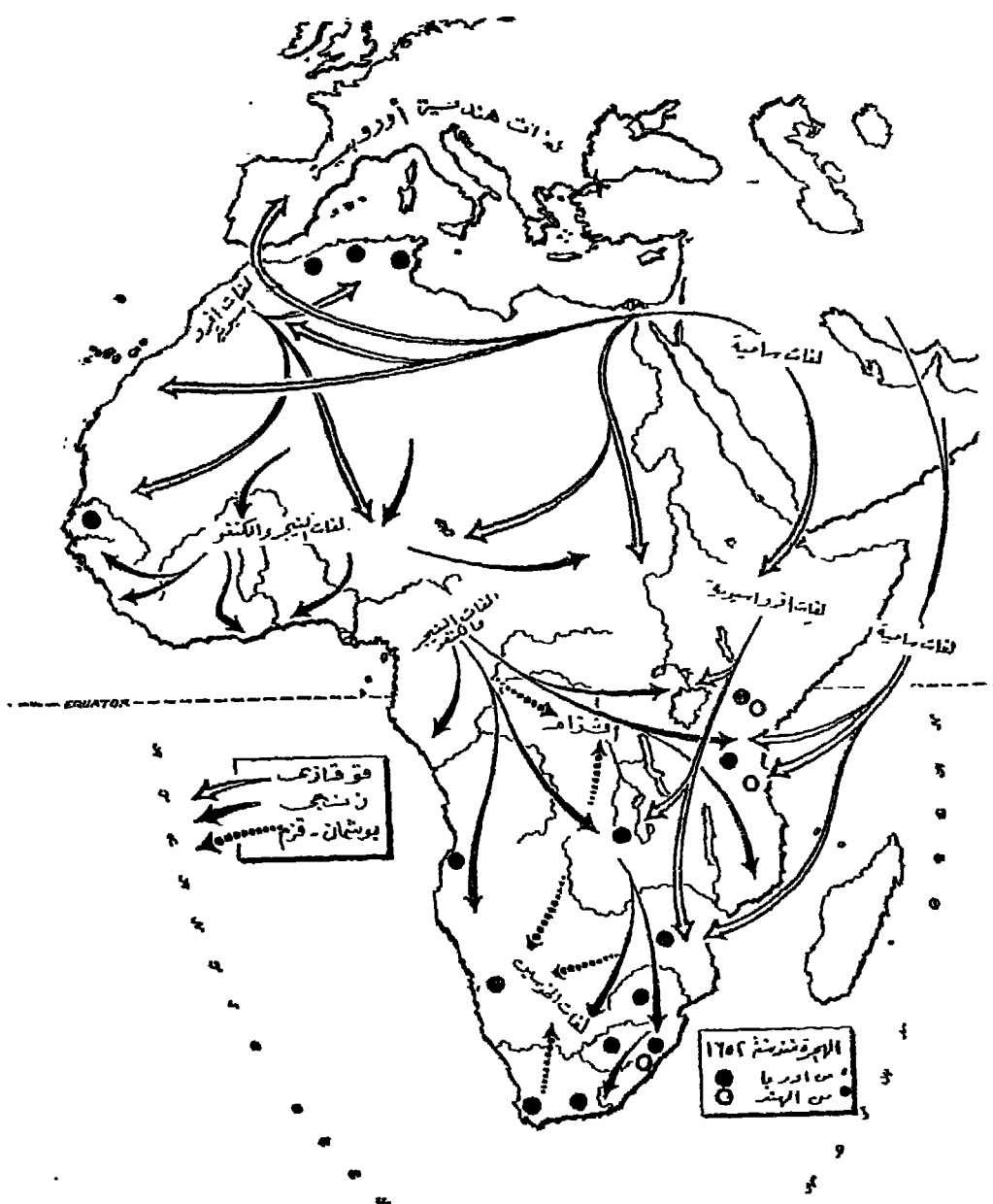
2) E. W. Bovill : The Golden Trade of the Moors, London 1958, pp. 42, 48

الكبرى حيث تتوغل الظروف الصحراوية بمعدل خمسة أميال في السنة .  
وبالرغم من أن هذا أمر غير عادي فإنه يبين كيف أن بقعتين صغيرتين من  
صحراء فيا قبل التاريخ تحولتا إلى أرض جرداء تؤدي إلى الانقسام والتفرق في  
حوالى ٣٠٠٠ سنة .

ونظراً لأن الصحراء الكبرى كانت آخذة في الانتشار فيقال إنها كانت  
صحراء « حية » أرغمت سكانها على التهجر — فانتقل البربر إلى شقة ضيقة  
كثيفة السكان نوعاً على امتداد البحر المتوسط ، وانتقل الزنوج إلى السافانا .

وفي الألف الأول قبل الميلاد بدأ ينشأ ضغط سكاني جنوبي الصحراء .  
ولحسن الحظ ظهرت بين الزنوج في هذا الوقت تكنولوجيا حديثة لاستخدام  
الحديد وبعض محاصيل جديدة للزراعة الكثيفة ، مما جعل في الإمكان ابتداع  
وسائل بديلة للعيش .

ويحتمل أن يكون الحثيون حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م . أول من اشتغلوا  
بسبك الحديد . ولم يستخدم هذا المعدن في مصر إلا بعد ألف سنة تقريباً وعرفته  
قرطاجنة حوالى سنة ٥٠٠ ق. م . وانتشر تشعيل الحديد في اتجاه منابع النيل من  
مصر في القرن الخامس قبل الميلاد حيث أصبح إنتاج الحديد صناعة كبرى في  
مرو الواقعة على مسافة قصيرة شمال الخرطوم . وكان في الوسع أن تكون مرو  
المصدر المنطقي لمعرفة الزنوج بالحديد ، ولكن المنتجين في وادى النيل كانوا  
حريصين جداً على الاحتفاظ بسرهم ، ولذلك فمن المحتمل تماماً أن تكون  
قرطاجنة هي التي علمت أهل غرب إفريقية صناعة التعدين إذ كانت الخيول  
مما تزال تحمل التجار بانتظام عبر الصحراء الآخذة في النمو . والواضح أن



أجناس أفريقية منذ سنة ٣٠٠ ق.م (الهجرات)

الزئوج كانوا يستخدمون الحديد حوالى سنة ٣٠٠ ق.م كى يتسنى لهم أن يزيدوا من كفاءتهم فى استغلال السافانا الآخذة فى التناقص . كذلك جعلت الآلات والأسلحة المصنوعة من الحديد فى الإمكان غزو الغابات المطرية الاستوائية وتطهيرها حيث يمكن توفير الإقامة للسكان الآخذين فى الازدياد .

وكان دور الزراعة فى غزو الغابات المطرية موضوعاً لنقاش بين العلماء الحديثين . فيعتقد مردوك أن الغابة الاستوائية لم تصبح صالحة للسكنى إلا بعد إدخال البطاطا والموز من إندونيسيا ، ولذلك يفترض وجود مستعمرات إندونيسية على الساحل الأفريقي الشرقى قبل سنة ١٠٠ ق . م ومنه انتقلت المحاصيل الجديدة بواسطة عملية حركية على طول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى إلى حوض النيجر<sup>(١)</sup> . وأجاب معظم زملائه بطريقة مقنعة بأن إقامة الإندونيسيين يمتثل أن تكون قد حدثت بين عامى ٦٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد، ثم فى مدغشقر بعد ذلك وليس فى أفريقية الشرقية ؛ وأن فى الإمكان أن ترد بسهولة أية محاصيل حديثة على طول طرق التجارة المعروفة عن طريق الهند والبحر المتوسط ، وأن أغذية حديثة كهذه لم تكن جوهرية حتماً لغزو الغابة المطيرة .

ويبدو أن المعرفة الجديدة بتصنيع الحديد وإن لم تكن المحاصيل الجديدة، توغلت حتى وصلت إلى البانتو<sup>(٢)</sup> الذين كانوا بوصفهم الزئوج المقيمين فى

Hardock. Op. Cit. 207-211.

(١)

(٢) هؤلاء هم الذين يتحدثون لغة البانتو وأغليبتهم من أشباه الزئوج ، ويطلق عليهم فى العادة اسم المجموعة اللغوية التى يشتمون إليها .

أبعد الأنحاء نحو الجنوب، أشد قرباً من الغابة المطيرة في مرتفعات الكرون. إن إدخال المهارة الجديدة أو كلتا مهارتين أسهم في حدوث انفجار سكاني في صفوف الباتو على نحو غير عادي. لقد استطاع الزوجان المقيمون في الشمال والغرب أن يحسنوا استخدام الأراضي التي كانوا يشغلونها في ذلك الحين، ولكن الباتو توغلو في الغابة المطيرة التي ربما لم يكن يستغلها من قبل سوى جماعات متفرقة من الصيادين الأقزام. إن الانفجارات السكانية الملقطة للنظر شيء غير عادي، ولكن يبدو أن الصين القديمة وأوروبا الحديثة والباتو حوالي زمن المسيح يشتركون في هذه الظاهرة. من الصعب دائماً تحديد الأسباب تماماً ولكن يمكن اعتبار حالة الباتو تفسيراً سليماً مثلها مثل الحالات الأخرى.

وثمة توسع مماثل وإن كان أقل إثارة للنظر بكثير، يبدو أنه انبعث من بلاد العرب عن طريق أثيوبيا إلى حدود مرو في القرون السابقة مباشرة على مولد المسيح. فقد عبر بنوسبا الذين يتكلمون السامية البحر من اليمن إلى المرتفعات الأثيوبية، واضطر الكوشيون من ذوى اللغة الأفرو-آسيوية الذين كانوا قد استقروا من قبل هناك إلى التفرق جماعات صغيرة في جميع أرجاء إفريقية الشرقية وربما عاد بعضهم إلى الاستيطان في أماكن وصلت إلى موزمبيق. ويبدو أن السبائين والكوشيين كانوا على معرفة بالحديد أو أنهم عرفوه أثناء هذه الفترة والأرجح عن طريق مرو السائرة في طريق التدهور، وأنهم استخدموا الأدوات الحديدية لقطع أحجارهم الأثرية للتميزة.

ولقد كان توسع الباتو أكثر من توسع الكوشيين هو الذي أحدث أعظم تغيير في الجغرافيا البشرية بإفريقية الوسطى والشرقية والجنوبية. فمثلاً



في القرون الباكورة من العصر المسيحي كان البانتو قد توغلو باعيداً في حوض الكونغو، وجاءوا معهم بأساليب الرى والزراعة وتصنيع الحديد، وأزالوا أو أخضعوا جماعات الصيادين الأقزام القليلة للتناثرة. ويظهر أن الضغط من المراكز الأصلية في مرتفعات الكمرون استمر بعض الوقت مرغماً الجماعات الأمامية على أن تشق طريقها بالتدريج صوب الشرق والجنوب، ويبدو أن البانتو الأفضل سلاحاً وغذاءً ابتدعوا أنظمة عسكرية وسياسية قوية بصورة متزايدة كلما انتشروا وأخضعوا الأقزام واجتاحوهم. وعندما اكتشفت الطلائع الرائدة إقليم البحيرات العظمى القسيح الخصب بين ٦٠٠ و ٩٠٠ ق. م. كانوا عبارة عن وحدات أ كفاً في تنظيمها وأقدر على البقاء من تلك المجموعات الضعيفة ذات الاستقلال الذاتى التي خلفوها وراءهم في الكمرون والغابات المطيرة. وبمجرد أن تخلصت طلائع الجماعات التى تتكلم البانتوية من الغابة انتشرت بسرعة نحو الجنوب لتحتل السافانا التى اكتشفتها حديثاً.

مثال ذلك أن مجموعة باتونجا (سوئو الحديثة) توغلت على ما يظهر ببدء القرن العاشر حتى وصلت إلى روديسيا الجنوبية حيث حققت درجة من الوحدة أقوى منها عند غيرها من جماعات المهاجرين البانتو. وتحركت سلسلة أخرى من البانتو ببطء أكثر صوب مصب نهر الكونغو وأنجولا الجنوبية، ولكن لا يمكن أن ينسب إليهم الفضل كله. فقبل أن تصل الطلائع الخارجة من الكمرون إلى السافانا الجنوبية كانت بعض الشعوب الخوسية هناك قد عرفت الحديد والماشية، ويحتمل أنها عرفت ذلك عن طريق تلك الجماعات الصغيرة من الكوشيين التى جاءت معها بتلك المعرفة حتى نهر زمبىزى فى

زمن المسيح . ولقد اكتشف ديزموند كلارك حديثاً<sup>(١)</sup> أن البانتو وصلوا في هذه المنطقة بعد أن بدأ الشعب الخوسى فى استخدام الحديد بفترة تتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ عام . ولكن لم يكن هناك إنتاج فعال قبل أن يأتى البانتو بمهارات متقدمة وتنظيم متقدم . كذلك قابلت طبيعة البانتونجا المتطورة الكوشيين القوقازيين الذين سبق أن علموا صناع الحديد من الخوسيين . إن الثقافة الناتجة من ذلك سوف يجرى بحشها فى محتوى تاريخ شرق إفريقيا بعد القرن العاشر . وعلى أى حال فقد كان الاحتلال البانتوى عنصراً هاماً فى أن تلك الوحدات من البانتو التى كانت تعيش على طول سلسلة البحيرات العظمى التى تشكل فاصلاً فى منطقة الغابات المطيرة ، أقامت فى مجتمعات حسنة التنظيم وتقبلت المؤثرات الكوشية بالتدريج . وواصل غيرها التوغل من مناطق البحيرات نحو الساحل الشرقى واحتلوا أجزاء من تنجانيقا وكينيا بين عامى ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ق . م . وفى شرق البحيرات العظمى قابلت البوشمن ، ولكن الأخيرين إما أنهم أيدوا أو أرغوا على أن يصبحوا مستعمرات منعزلة تابعة لهم شأنهم فى ذلك شأن الأقزام فى منطقة الغابات المطيرة .

أما المجموعة الثالثة أو الجنوبية الغربية من البانتو فواجهت الغابة الجافة ، ثم البوشمن وهى تندفع جنوباً على طول ساحل المحيط الأطلسى ، وبحلول القرن الخامس عشر كانت قبائل البانتو القريبة من مصب الكونغو قد أصبحت قوية بلوع خاص ، واتصلت اتصالاً واسع النطاق بالبرتغال ، بينما الذين كانوا منهم يتحركون فى داخل أراضى البوشمن ثبت من زحفهم الجفاف المتزايد . ومن

---

J. Desmond Clark ; The Prehistory of Southern Africa, Harmondsworth, 1959, p. 283 ff.

ذلك الاتصال الأخير نشأت ظاهرتان غريبتان حيرتا العلماء، وكلتا المشكلتين تمس قوماً مختلفين تماماً في مظهرهم عن البوشمن وإن كانوا مثلهم يتكلمون اللغات النحوسية. وأكبر الاحتمال أن إحدى هذه الجماعات، وتتكون من فلاحين زنوج مستقرين، كانت من سلالة المحاريين الباتو الذين تربى أطفالهم بفضل الجوارى والإماء من البوشمن، والمسألة الثانية تتعلق بالهوتنتوت، والذين كانوا من قبل يصنفون خطأ بوصفهم خليطاً من الكوشيين الأثيوبيين والبوشمن من أهل كينيا<sup>(١)</sup>. والمعتقد الآن أن الهوتنتوت هم قوم من البوشمن تعلموا تربية الماشية من الباتو وبذلك عملوا على تحسين غذائهم وأصبحوا أكبر حجماً من البوشمن الذين يشبهونهم فيما عدا ذلك<sup>(٢)</sup>.

ولقد درج الأوربيون على الاعتقاد بأن جميع المجتمعات الإفريقية يسودها نفس التنظيم، ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت الكثير من الاختلافات بين المصروح القبلي. قد يصح أن جميع القبائل في عصر ما قبل التاريخ كانت ترجع مركز الفرد ومنزلته إلى الأم وليس إلى الأب، وأن التغيير من تقاليد الانساب إلى الأم إلى التعقيد المعاصر يعزى أحياناً إلى المؤثرات العسكرية والزراعية خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة. ومثال ذلك أن التسلسل عن طريق الأب أى الذكور، يميز جميع القوقازيين، فضلاً عن أولئك الزنوج الذين يشبهون الباتو الجنوبيين الشرقيين. فى أنهم كانوا طلائع التوسع شبه

(1) C. Mein of : Der Sprachen der Hamiten

Hamburg, 1912 ; Isaac Schapera, The Khoisan

(2) Peoples of South Africa, London 1930. See also ;

Greenberg, op. cit , pp. 80-87

العسكري ، وأولئك الذين اتسم اقتصادهم بالاستقرار والنشاط الزراعي والتجاري . مثل تلك القبائل الكبيرة المقيمة في مناطق السافانا بإفريقية الغربية . أما تقاليد الانتساب إلى الأم فلا تزال سائدة بين الأقوام الباقية في الصحراء الكبرى وبين زنوج الغابات المطيرة في إفريقية الغربية، والباتو الذين يقيمون في منطقة الغابات الجافة بإفريقية الوسطى وراء طلائع المحاربين . وسواء صح من الناحية النظرية هذا التطور الذي طرأ عليهم أو لم يصح ، فإن الاختلافات في التنظيم الاجتماعي في إفريقية كما هي في أوروبا ، ربما كانت غير منتظمة وذات طابع إقليمي أكثر منها متصلة وشاملة .

لقد كثرت التكهنات والنظريات المتعارضة في إعادة تركيب الجغرافية البشرية الإفريقية في عصور ما قبل التاريخ، وبالرغم من هذا فإن بحث النظريات الكبرى من قبيل ما ناقشناه في هذا الفصل ، يزيد من فهمنا للتاريخ في المصور التالية .

الكتاب الأول

أفريقيّة القديمة



## القبائل والإمبراطوريات

كان الاتصال المبكر بين الزوجين المشتغلين بالزراعة في غرب أفريقية والقوقازيين المشتغلين بصناعة الحديد في مصر وشمال أفريقية ، يمثل بداية فترة طويلة من التبادل الثقافي والتجاري . وأبدت كل من قرطاجنة والجمهورية الرومانية اهتماماً بالتجارة الزنجية ، فكان العاج والذهب وبعض العبيد مما يؤتى به إلى الشمال ، بينما ينقل الملح وربما النبيذ والقمح جنوباً من الأراضي المتاخمة للبحر المتوسط . وكانت المواصلات عبر الصحراء صعبة دائماً وبخاصة عندما نبذ استخدام الخيول ، ولكن إدخال الجمل تدريجياً في أوائل العصر المسيحي أحيى التجارة وجعل في الإمكان حدوث هجرات لها أهميتها من جانب البربر ، من الشمال إلى الجانب الجنوبي من الصحراء الكبرى .

ويندر وجود الملح في منطقة السودان بين الصحراء ومنطقة الغابات ، وكان تراجع الصحراء التدريجي قد أبعده الزوج السودانيون كثيراً عن موطن هذه المادة المشتهة التي تستخدم في تجفيف الطعام والحفاظة عليه . لم يكن في الإمكان الحصول على الملح جنوب الصحراء إلا بعملية شاقة من تقطير الحشائش ، أو بحمله عبر الغابات المطيرة الخائنة من الشواطئ الاستوائية للمحيط الأطلسي الجنوبي . وبذلك كان ملح الصحراء ذا أهمية أساسية ، وأصبحت تنمية أحواضه

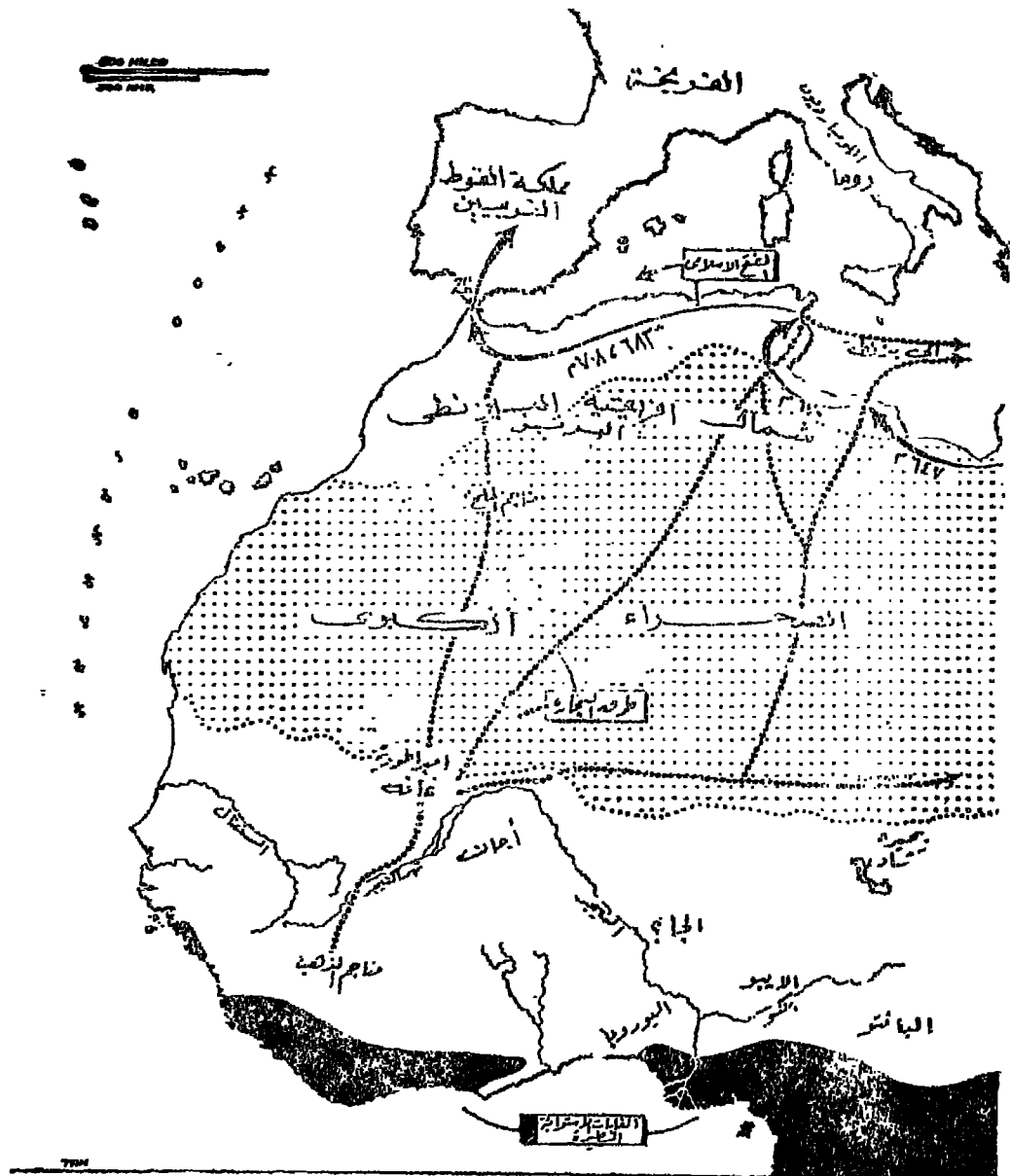
مستولية يضطلع بها البربر في الجزء الأوسط الشمالى من الصحراء ، حيث يبادلون بالملح الذهب والعييد الزوج الذين يستخدمون في معامل الملح .

وأدت التجارة التي تعتمد على إبل البربر ، إلى اشتغال الزوج الزراع في السودان بالتجارة، وإلى إعادة تشكيل أنظمتهم السياسية . وكانت نقطة الاتصال بين الزوج والبربر على امتداد نهر النيجر عادة ، عند الحافة الجنوبية للصحراء والتي كان البربر يحملون الملح عبرها . وكان نهر النيجر ، وهو شريان السودان من الشرق إلى الغرب ، يهيئ سبيل الوصول إلى كل من مناجم الذهب (ويرجح أنها كانت قريبة من منبع النهر في غينيا الفرنسية الحديثة) (١) ومستهلكي الملح على امتداد النهر من غينيا إلى نيجريا . ومن الذين ربما اشتركوا في هذه التجارة النامية أفراد من الجاليات اليهودية المشتغلة بالتجارة في قرطاجنة الرومانية وبرقة — لعل بعضهم طرد عبر الصحراء بعد ثورة في القرن الثامن الميلادي — أقاموا على امتداد نهري النيجر والسنگال .

ويذكر الرحالة العرب في القرن العاشر استناداً إلى رواية سودانية ، أن الغنائمين « البيض » نظموا وادى النيجر وحكموه فيما بين القرنين الخامس والثامن ، ثم نشبت بعد ذلك ثورة زنجية على أيدي السونفكة (ماندى أو ما ندينجو) وأقامت أسرة ملكية من أبنائهم . وسواء أكان لتلك الأسرة الملكة البيضاء وجود أم لم يكن ، فالواضح تماماً أن شكلاً من التنظيم

(١) كانت غينيا جزءاً من أفريقية الاستوائية الفرنسية ثم استقلت على أثر الاستفتاء الذى أجراه الجنرال ديغول على دستور الجمهورية الخامسة ، في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ (المترجم)





افريقيه الغربيه قبل الاسلام، القرن السابع

الحكومي والمركزية التجارية أصبح لازماً حينما بدأ فلاحو الماندى يتجرون مع قوافل الإبل ، فيبادلون بالملح الذهب ، بين القرنين الثانى والخامس .

ولأحد يعرف اللغة التي كانت تستعمل في هذه الدولة السودانية — التي جرى التقليد على إطلاق اسم غانة عليها — ولكن علماء الآثار كشفوا عن مدن كانت تعتمد على تجارة واسعة النطاق ، كما يشهد الرحالة بوجود ملكية قوية ، ونظام ضرائبي وإدارى مستقر الدعائم ، ومحلات لإقامة التجار البربر والراعايا الزنوج . وبسطت غانة سيطرتها السياسية على مناجم الملح الواقعة في الصحراء ، ولكن مناجم الذهب الواقعة عند حدودها الجنوبية ظلت في أيدي القبائل . وتحكم الفلاحون السودانيون في مقارن الطرق ، واستغل البربر أحواض الملح وتولوا قوافل التجارة . وكان يجرى الحصول على الذهب بطريقة غريبة يقال لها « التجارة الصامتة » ، فيترك الذين يستخرجونه من أهل القبائل الذهب على شاطئ النهر ، ويكتم تجار غانة الملح بجوار المعادن ، ثم يعود رجال القبائل فيأخذون الملح إن أرضتهم الصفقة ، أو يتركون كلتا السلعتين ويبدأون العملية من جديد إذا كانوا يريدون الحصول على مقابل أكبر .

وفي مكان بعيد في اتجاه الشرق ، كان القوقازيون الذين يتكلمون لغة سامية ، قد أخذوا منذ زمن طويل يتسربون إلى إفريقية . فن بلاد سبأ في جنوب شبه الجزيرة العربية كان التجار والمهاجرون يعبرون البحر مراراً إلى المرتفعات الحبشية في الألف الأولى قبل الميلاد . وأخيراً انتقلت حكومة سبأ أيضاً وأصبحت بحلول القرن الرابع الميلادى ، مملكة أكسوم أو أثيوبيا . وكان اليهود الذين تشتتوا من ديارهم ويتكلمون أيضا اللغة السامية ، قد انتشروا

بالمثل في داخل إفريقيا ولكنهم كانوا أقوى في مصر ، ومالوا إلى اقتباس الحضارات اليونانية . وجاءت المسيحية في أعقاب اليهود المشردين - وكما حدث في أما كن أخرى من الإمبراطورية الرومانية - أصبحت الدين الغالب في شمال إفريقيا والقسم الأدنى من وادي النيل ، وذلك بحلول القرن الرابع . وثبتت المسيحية اللاتينية أقدامها حول قرطاجنة القديمة ، بينما سادت الأشكال الأرثوذكسية اليقونية<sup>(١)</sup> (القيبطية) في مصر وانتشرت في اتجاه أعلى النيل لتصبح لها السيادة في مرو ( التي أعاد المسيحيون تسميتها بالنوبة ) وأكسوم . كان الذين جاءوا بالدين الجديد من الفلسطينيين والشرقيين ، ولكن الذين اعتنقوه في إفريقيا كانوا من أبنائها ولم يكونوا من الغزاة . ولقيت المعتقدات المسيحية في هذا الوقت القبول من بعض البربر ، على الأقل في الصحراء الكبرى ممن كانوا يشتغلون بقيادة الإبل والتجارة ، ولكن ربما قبلها غيرهم أيضاً من اللاجئين الذين اختاروا الصحراء كي يواصلوا التمسك بدينهم القديم . وعلى ذلك سادت المسيحية في الشرق ولكنها أفتقت في النفاذ في الصحراء في الغرب . ويعتقد الكثيرون<sup>(٢)</sup> أن البربر غير المسيحيين أدخلوا أفكار قرطاجنة الدينية في غانة الزنجية .

(١) يؤمن المذهب اليقوني بأن المسيح طبيعة واحدة . ( المترجم )

(٢)

Eva L. R. Meyerowitz . The Akan of Ghana.

( لندن ١٩٥٨ )

Basil Davidson . Old Africa Rediscovered.

( لندن ١٩٦٠ ، ص ٦٨ - ٧٠ )

Maurice Delafosse : Haut - Senegal - Niger.

( ٣ أجزاء ، باريس ١٩١٢ )

وإذ نصل إلى أوائل القرن السابع نجد المسيحية قد أثرت في كل ذلك القسم من أفريقية الواقع شمالى منطقة الغابات ، فيما عدا غانة ووادى النيجر ومنابع النيل . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت أثيوبيا هي الدولة التي تحولت إلى المسيحية بصفة دائمة . وارتفع الإسلام الذى بشره النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ، إلى مركز السيادة بالتدريج ، وهو المركز الذى لا يزال يشغله شمالى إقليم الغابات . وفقدت المسيحية معظم مراكزها الباكرة ولم تعد إلى الظهور فى إفريقية إلا بعد أن بدأ الأوربيون ينتشرون فيها بعد ذلك بألف عام .

وفى صيف عام ٦٢٢ قاد محمد صلى الله عليه وسلم أتباعه من مسقط رأسه المادى ، مكة ، إلى المدينة التى أكرمت وفادته ، فكان ذلك بداية النصر والتوسع ومع هذه الهجرة يتخذ المسلمون ومعظم الأفريقيين فى السافانا والصحراء الكبرى تقويمهم . وفى أواخر السنة العاشرة الهجرية أى فى يونية من عام ٦٣٢ مات النبي مخلفاً وراءه كتاباً مقدساً هو القرآن الذى يتضمن تلك الأوامر الدينية والاجتماعية والسياسية التى جعلت فى الإمكان لأول مرة تنظيم أتباعه من أبناء البادية على أساس دين عالمى شامل بدلا من التنظيم القائم على المجموعات المقيدة ، المنقسمة التى ترتبط فيما بينها بصلة الرحم . أصبحت القبائل المنقسمة على بعضها شعباً واحداً فى ظل الشريعة الجديدة ولسكن فرض الوحدة فى داخل الصحراء العربية استغرق شهوراً كثيرة . وبتجرد ان تم تنظيم البدو على هذا النحو أصبحوا تواقين إلى نشر دينهم فى الهلال الحصبى الفنى .

وفي يوم الأحد الموافق عيد الفصح عام ٦٣٤ ، أى بعد موت محمد عليه السلام بأقل من عامين ، أنزل الغزاة البدو الهزيمة بالمسيحيين البيزنطيين وضربوا الحصار على دمشق . وفي ظرف ثلاث سنوات سقط معظم الهلال الخصب من فلسطين إلى فارس ، واجتازت جيوش الخليفة عمر برزخ السويس حيث عبرت النيل على مقربة من القاهرة<sup>(١)</sup> في ربيع عام ٦٤٠ . وبعد أربع سنوات كانت أفريقية من مصر إلى قرطاجنة تؤدى الجزية ، ولكن ظل المسيحيون يسيطرون على النوبة في النيل الأوسط وبلاد البربر الواقعة غربى قرطاجنة .

وتجمعت الهجمات المضادة من جانب البيزنطيين ، ودعّم المكاسب التي تحققت ، والنزاع حول الخلافة بعد وفاة عمر ، فحالت طيلة جيل دون توسع جديد ، ولكن فيما بين عامى ٦٧٠ ، ٦٨٣ حطم العرب قرطاجنة النائرة وأخرجوا البيزنطيين من الجزائر الحالية وبلغوا ساحل المحيط الأطلسى . وبسبب الثورات التي قام بها البربر أرغم العرب على الارتداد إلى مصر ، إلا أن جيوش النبي عادت بعد ربع قرن فاحتلت المنطقة بصفة دائمة . وفي عام ٧١١ عبر الفاتحون من البربر الذين تحولوا إلى الإسلام ، جبل طارق بقيادة القائد طارق<sup>(٢)</sup> واحتلوا إسبانيا وغروا فرنسا حيث أوقفوا بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة . ودعم المغاربة Moors — كما أطلق على المزيغ من البربر والعرب — موقعهم جنوبى جبال البرانس . كانت إسبانيا الإسلامية في أول الأمر مخفراً أمامياً للخلافة العربية ذات الإدارة المركزية في دمشق ، ولكنها أصبحت بحلول عام ٧٥٧ مستقلة بالفعل في ظل أسرة حاكمة مختلفة .

(١) لم يظهر اسم القاهرة إلا بعد إنشائها على أيدي الفاطميين .

(٢) هو طارق بن زياد وليس (طارف) كما ذكر المؤلف .

( المترجم )

( المترجم )

وتميّزت السنوات الثلاثمائة والمحسون بالمشاحنات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبالمنازعات بين المسلمين والبربر والإسبان للحصول على المراكز الممتازة، ولكن الأقسامات في صفوف العصابات المسيحية في البرانس والحكام الإفريقيين الذين يمثلون الخلافة الشرقية، كانت شديدة بالمثل. فتوقف التوسع وزاد الاستقلال المحلي في جميع أرجاء العالم الإسلامي بما فيه إفريقية، وفي كل مكان غربي السويس بسطت طبقة صغيرة من المحاربين العرب حكمها على شعوب متنافرة لم تعتنق الإسلام، وذلك بالاستناد إلى جماعة منهم دخلت في الدين وإن لم يكن في الإمكان الاعتماد عليها. وحطم الصراع الري والزراعة. وعريت الغابات من أشجارها من أجل بناء السفن لأغراض الحرب والقرصنة، وابتلعت الصحراء الأرض الخصبية التي أسىء استغلالها في ذلك الوقت. وكانت اليد العليا للبربر فترة من الوقت، إلا أنه في القرن السادس عشر أرسل الخليفة المركزي في بغداد — وكان فاطمياً — ٢٠٠,٠٠٠ من بني هلال وهم من بدو بلاد العرب، فانقضوا على شمال إفريقية. وأخرج بنو هلال، وهم أول موجة من المستوطنين الذين يتكلمون السامية—البربر من الأراضي الساحلية، وبسطوا سيادتهم على المجتمع في شمال إفريقية، وحولوا الإسلام من دين يعتنقه الحكام إلى دين تعتنقه الجماهير.

هذه الأحداث أسفرت بالنسبة إلى إفريقية عن نتيجتين، فأصبحت المنطقة التي تشغلها ليبيا وتونس الحاليتان أقل خصوبة، ولهذا اتخذ التجار الذين يعبرون الصحراء الكبرى طرقاً جديدة تلائم المغرب الأقصى (مراكش الآن) وهو أكبر مساحة وكان حظه من الدمار أقل. أما النتيجة الأخرى فهي أن بعض

البربر من أبوا تسلط العرب والمذهب الإسلام، السنى، هاجروا عبر الصحراء للإقامة على مقربة من ساحل المحيط الأطلسى، غربى إمبراطورية غانا. وأطلق هؤلاء البربر اسمهم القبلى — صنهاجة أو السنغال — على النهر الذى أقاموا على ضفافه. كانوا مسلمين بالاسم، ولكنهم لم يبدوا حماسهم الدينية أو الامتثال لقواعد الدين.

ومن حين لآخر كان أحد هؤلاء الحكام من بنى صنهاجة يؤدى فريضة الحج إلى مكة، وهذا ما فعله شيخهم الأكبر يحيى<sup>(١)</sup> فى أوائل القرن الحادى عشر. وهناك وقع تحت تأثير فقيه التقي به فى الطريق، وعاد بمرشد سنى شديد الحماسة يعرف بابن ياسين<sup>(٢)</sup>. ولكن أتباع يحيى، ولم يكونوا فى مثل حماسة زعيمهم، طردوا ابن ياسين وتلاميذه فانتقل معهم إلى جزيرة فى نهر السنغال. هؤلاء النساك (المرابطين) اجتذبوا الأنظار ثم الأنصار وعادوا ليحكموا المجتمع الصنهاجى. وفى عام ١٠٤٢ بدأوا الجهاد من أجل تطهير الإسلام، وأخضع المرابطون من أتباع ابن ياسين البربر الذين لم يكونوا شديدى التمسك بأهداب الإسلام، وهاجموا غانا الزنجية الوثنية فى عام ١٠٥٤، ثم ضموا الخلافة العربية فى مرا كس بعد ذلك بثلاث سنوات.

وفى إسبانيا كان تنظيم العصابات المسيحية قد تحسن. وتعرض استمرار بقاء الأمراء المسلمين المتنازعين للتهديد، ولهذا طلب إلى يوسف، خليفة ابن ياسين بين المرابطين — أن يستخدم جيشه للحفاظ على النظام، فأعيدت

(١) المترجم

(١) يحيى بن إراهيم .

(٢) المترجم

(٢) عبد الله بن ياسين السجلماسى ومات فى سنة ١٠٥٩ .

الوحدة إلى إسبانيا الإسلامية وهزم المسيحيون في عام ١٠٨٦، وأصبح يوسف السلطة الوحيدة بين إسبانيا الشمالية ومنطقة الغابات الإفريقية. كان من المستحيل إدارة مثل هذه الإمبراطورية المتباينة، وسرعان ما أدرك الجميع أن المرابطين الذين كانوا يهاجمون غانة (التي سقطت في سنة ١٠٧٦) أصبحوا مستقلين تماماً عن الجيش الرئيسي الذى يتولى يوسف قيادته في الشمال.

كانت سلطة المرابطين قصيرة الأمد تقريباً كما كان شأن الإصلاحات المتحمسة التي قام بها ابن ياسين، ولكن تغير الكثير. فقد اضطر المسيحيون في إسبانيا إلى الاتحاد لأول مرة دفاعاً عن النفس، وما لبثوا بعد ذلك أن اتخذوا موقف الهجوم، ولم يرجع مجد غانة التجارى والسياسى إلى سابق عهده تماماً. وحلت الحروب القبلية محل الحكومة المركزية الحقيقية جنوب الصحراء، وصارت للاستقلال المحلى الغلبة على الصالح القومى. لقد ظلت غانة على قيد البقاء حتى القرن الثالث عشر، ولكن لم يبق منها إلا ظل عظمتها السابقة.

أصبح الإسلام الدين الإسمى لغانة ومعظم الدول الزنجية الأخرى في جميع أنحاء السودان الغربى، ولكن الكثيرين آثروا الهجرة على تقبل أى جزء من الدين الجديد، ومن بينهم الفلانى<sup>(١)</sup> البقارة الذين انتقلوا شرقاً إلى إقليم نيجيريا الشمالية الحديثة، وربما بعض الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة من قبائل الأجان<sup>(٢)</sup> للقيمة عند حافة الغابة.

(١) الفلانى أو الغلبة، أو القولة.

(٢) يطلق عليهم الكتاب العرب اسم «أجان»، وليس «أكان» Akan كما فى النص الإنجليزى. (لترجم)

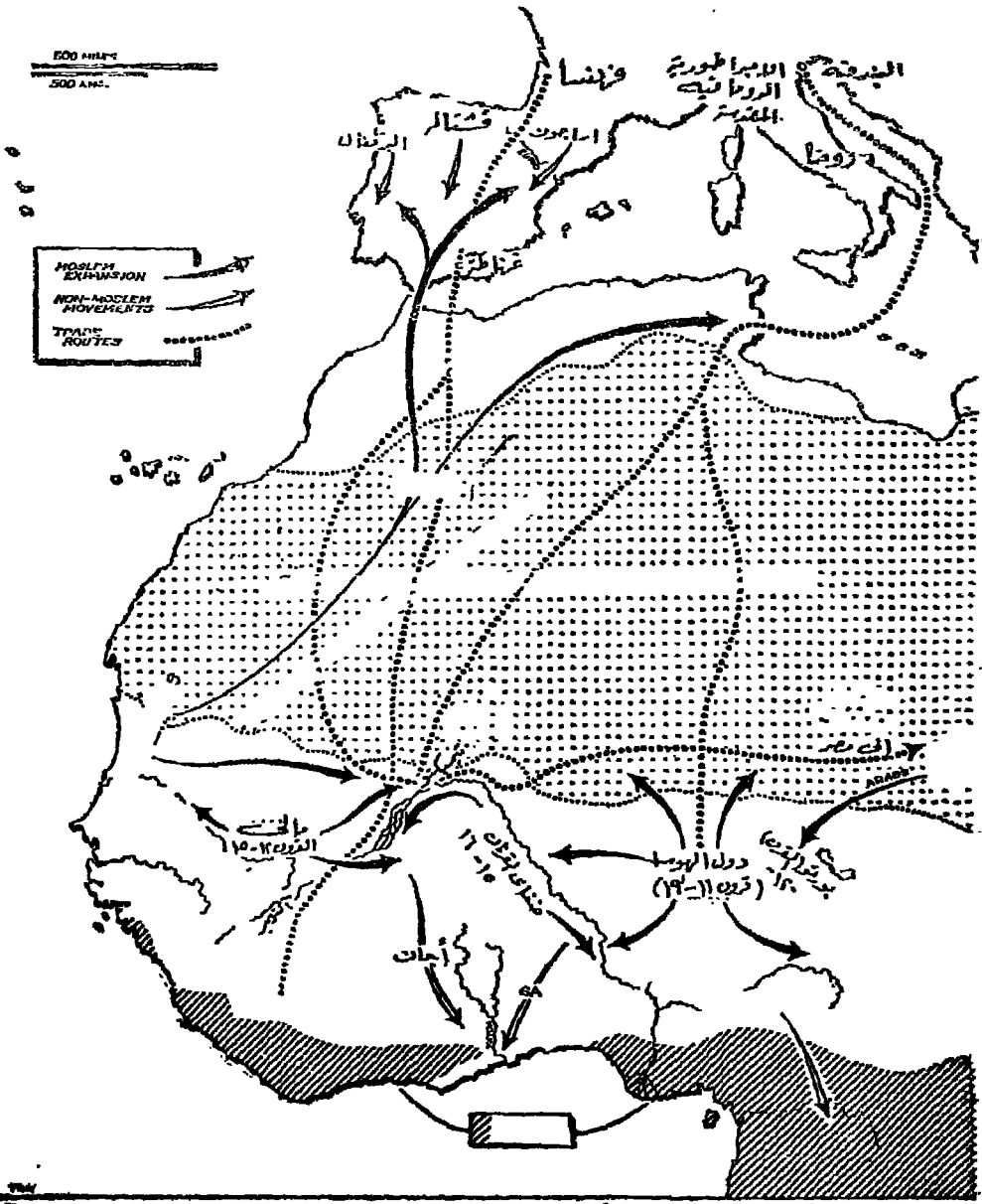


وفي أوائل القرن الثالث عشر فرض عدد من الغزاة القبليين سيطرة قصيرة الأمد على جزء من غانا أو كلها ، ولكن المسلمين الأشد استمساكاً بدينهم ، وهم زنوج مالي ، شددوا قبضتهم على المنطقة بعد عام ١٢٣٥ ، فعاد الأمن السيامي والرخاء التجارى الذى كان لا يزال يعتمد على المبادلة بين الذهب والملح عبر الصحراء . ظلت مالي وقتاً تبسط سلطانها من المحيط الأطلسي إلى الحافة الغربية لنيجيريا الحالية . وكان وجود هذه الإمبراطورية معروفاً لدى الأوروبيين في القرن الرابع عشر ، وربما كان تفوق مالي يمثل أشد فترات التاريخ الإفريقي نشاطاً وتقدماً قبل مجيء الأوروبيين . ولقد شاهد التجار البنادقة منسا موسى<sup>(١)</sup> حاكم مالي الذى سافر إلى مكة سنة ١٣٢٤ ، وخلق أسطورة عن الثراء الباذخ الذى ظل قائماً بعض الوقت في مصر وإيطاليا . وذكر الرحالة العرب في العصور الوسطى أن تمبكتو التى كانت في عام ١١٠٠ قد حلت محل خيام مدينة غانة وأكواخها المصنوعة من الحشائش ، بوصفها مستودع البضائع الرئيسية في إفريقية ، قد صارت الآن مركز المباني المشيدة من الطوب والثقافة الإسلامية في عهد منسا موسى .

لم تكن غانة تسيطر على مناجم الذهب التى كان يعتمد عليها ثراؤها ، وكذلك لم يسيطر عليها المرابطون أو إمبراطورية منسا موسى . ففي الحالات الثلاث جميعها تمثلت الثروة في التجارة التى جعل منها المنظم عملاً مجزياً . غير أن هذا الموقف ذاته كان يجتذب أى فائح يستطيع أن يوفر تفضيلاً أفضل ، أو طريقاً مباشراً إلى المناجم . وأثارت المعرفة بثروة منسا موسى الرغبة في

( الترجمة )

(١) تولى الحكم في مالي من ١٣٠٥ لى ١٣٢٢ م .



أفريقيه الغربية في عصر الأندلس من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر

نفوس الزوج الآخرين وعرب مراکش ، وأخيراً في المسيحيين الأوربيين .  
للاستيلاء على احتكار مالى التجارى الفنى أو تخطيه .

ومن هؤلاء ، قام السنغاي الزوج — ومنهم كثيرون كانوا يعيشون تحت حكم مالى وينفرون منها — ودخلوا تمبكتو في عام ١٤٦٨ . وتمزقت أوصال مالى بالتدريج أمام المتطقلين . كان القليلون منهم هم الذين أسسوا . ولكن حدث انقلاب على أيدي المسلمين في عام ١٤٩٢ وضع على عرش سنغاي زنجياً مسلماً مصححاً هو اسكيا الكبير<sup>(١)</sup> . وإذا كان رجلاً مثقفاً ، قديراً ومنظماً ، حول معظم رعاياه إلى الإسلام ، وكسب تأييد فقهاء المسلمين وعلمائهم ، وشن الهجمات باسم إحياء الدين . ووقع في أيديه جزء كبير من مالى والهوسا ، لكن — وكما حدث مع المرابطين — خبت جذوة الإصلاح وهوت إلى منازعات على السلطة أشاعت الفرقة والانشام ، وبذلك عادت الهوسا ومالى وغيرها من الأقاليم إلى الظهور من جديد ، دولا ضعيفة مستبدة في القرن السادس عشر . ويبدو أن الرخاء الاقتصادى الذى نعم به السودان ، لم يعان من هذه المنازعات ، ولكن القوة السابقة للمنطقة زالت في نفس الوقت الذى بدأ فيه الأوربيون يرتادون ساحل إفريقيا الغربى .

كذلك بدأت شراهة الشعوب المقيمة شمالي الصحراء الكبرى ، تشتد أيضاً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وكان أول غزو عبر الصحراء منذ توسع المرابطين ، هو غزو مراکش في القرن السادس عشر ، ذلك أن المنصور

(لترجم)

(١) أسكيا محمد الكبير (١٤٩٣ — ١٥٢٨) .

وهو شريف شاب سبق أن أوقع هزيمة حاسمة بغزو برتغالي أعد إعداداً سيئاً ، حاول أن يلم شعث أتباعه المتنازعين عن طريق القيام بمحملة مثيرة للاستيلاء على مناجم الذهب جنوب الصحراء . ومن موقفه عند النهاية الشمالية لطريق التجارة الطويل ، يظهر أنه لم يعرف أن المناجم كانت وراء الحافة الجنوبية للحضارة السودانية . وجرى الحصول على مقادير كبيرة من القماش لعمل خيام الصحراء ، فضلاً عن الأسلحة لجيوشه ، من إنجلترا في عصر الملكة إليزابيث . وبدا أن هذه الدولة كانت سعيدة بتسليح عميل يكون لها وعلى مقربة من عدو الملكة الرابض في إسبانيا . وسيطر المنصور على مناجم الملح في سنغاي في الصحراء الشمالية ، وفي عام ١٥٩٠ بعث بجيش أحسن انتقاء رجاله ، عبر الصحراء وبقيادة جودر وكان أغماً إسبانيا . وبالرغم من أن ثلاثة أرباع الجيش هلك من العطش أثناء مسيره الذي استغرق خمسة أشهر ، تم الوصول إلى تمبكتو وسقطت سنغاي أثر سلسلة من الحملات الممثلة وإن امتازت بالبسالة . وعين جودر «باشا» أي والياً على السودان ، ولكن المراكشيين لم يتجاوزوا حوض النيجر ولم يبلغوا أبداً مصدر الذهب . وعلم الشريف المنصور — والذي أوشك على الإفلاس بسبب ما تكلفه الغزو — أن السودان بلد فقير ، وأسوأ من هذا أدرك أن التجارة توقفت بالفعل . كان ظاهراً أن الاتجار عن طريق الأوربيين الذين وصلوا إلى ساحل غينيا ، أيسر من المحافظة على طريق الصحراء وسط مثل هذا الاضطراب . وأحس المنصور بنجبية الأمل ، وواجه استمرار النفقات والثورات سواء في بلده أو في سنغاي التي غزاها ، وكان يرتاب في قائده الإسباني ، فعين شخصاً آخر محل جودر ، وأغلق مدارس تمبكتو

ومكتباتها ، وسمح بالتدريج للفرز أن يهوى إلى عملية من الأبتزاز  
الامتدادى .

لقد خلقت الثورات التي نشبت على حافة الإقليم المحتل ، عدداً من دول  
صغيرة ، تنزع إلى الانتقام وتفتقر إلى النظام ، ويسودها طابع شبه قبلى .  
وعدلت سرا كس عن المشروع كلية في عام ١٦١٨ ، ومن هنا تولى الباشوات  
(الولاة) الجشعون الأمر ، وأصبحوا حكاماً مستبدين مستغلين ، قضوا معظم  
القرن التالى فى منازعات فيما بينهم . كان هؤلاء الباشوات وهم يختارون أنفسهم  
بأنفسهم ، يتعاقبون على الحكم كيفما اتفق ، وتحطمت التجارة والزراعة تماماً ،  
أما المدن القائمة على طول النيجر الأوسط والتي سبق لها الازدهار فتحوّلت  
إلى أطلال وابتلعتها الصحراء ، وأصبحت أشباه عواصم للطغاة المحليين . وسرى  
الضعف تدريجياً إلى الأرستقراطية الغربية من سلالة الباشوات ، وتزاوجت  
فيها بينها ، وتراجعت عن مواقعها ، وأخيراً فى عام ١٧٨٠ قلبها الزوج الذين  
كانوا يؤدون لها الجزية .

وكان الفاتح الثالث المنتظر للسودان الغنى ، هو البرتغال القائمة بالشمال فى  
أوروبا . كانت البرتغال فى الأصل جزءاً من قشتالة ، إحدى الممالك المسيحية  
الصغيرة فى شمال إسبانيا . وفى أثناء القتال ضد الإسلام ، وفى الاسترداد  
المسيحى بعد انهيار المرابطين فى القرن الثانى عشر ، منحت البرتغال إقطاعية  
لللبلاء الإقطاعيين الفرنسيين الذين كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية  
الإسبانية . وتحدى هؤلاء الأتباع الفرنسيون فى البرتغال ملك قشتالة ، وأقاموا  
ملكية مستقلة بمساعدة الإنجليز ، وطردها جميع المغاربة من بلادهم قبل أن

تحرر قشتالة أرضها نفسها بمائتي عام . أما الخطوة المنطقية التالية ، وهي مد نطاق تلك الحرب الصليبية الإفريقية ، فامتصت جهود البرتغال بعض الوقت ، وبلغت الذروة في الهجوم على قوطة بمرآكش في سنة ١٤١٥ . لم تكن الحماسة الدينية لتفوق في الأهمية نيل السيطرة على تجارة الذهب السودانية ، ولكن قبضة المراكشيين على هذه التجارة كانت قوية ، وبعد أن صمدوا الحصار دام ثلاث سنوات ، أرغموا البرتغاليين على الانسحاب .

ومن القادة البرتغاليين الأمير هنرى — وهو ابن أصغر الملك — وكانت له دراية بالثة بالجغرافية والملاحة استقماها من المكتبات العربية في تلك الأجزاء من البرتغال وقشتالة ، والتي تم استردادها من المسلمين . هذا الأمير الخالم ، المجد والعالم ، والذي غالباً ما يطلق عليه اسم « الملاح » ، اقترح الوصول إلى مناجم الذهب بطريق البحر ، وبذلك يتجنب كلا من المغاربة العنيدون والصحراء المانعة . ويبدو أن هذه الفكرة — وليست الرغبة في الحصول على الرقيق ، وليست بالتأكيد فكرة الوصول إلى الهند — هي التي أوحى إلى هنرى بإنشاء معهد لعلوم الملاحة في زاجروس ، وإرسال الحملات على امتداد الساحل الغربي لإفريقية . كان هناك عنصر بالغ القدر من الصدفة في الملاحة وفي عدم التأكد من موقع مناجم الذهب — ولكن الصيادين البرتغاليين كانوا في ذلك الوقت يزاولون عملهم في المحيط الأطلسي على مسافة ١٥٠٠ ميل من البر ، كما سبق أن هياً الجغرافيون العرب شواهد قيمة عن الساحل حتى سيراليوني عند الحافة الشمالية لمنطقة غابات الأمطار . وأقلمت السفن الأولى في عام ١٤١٨ ، وجرى بسبائك الذهب والعبيد الزوج لأول مرة من البربر في

أرجون (خارج شاطئ موريتانيا الحديثة) في عام ١٤٤٤ ، وتم الوصول إلى منطقة الغابات قبل موت هنري الملاح في سنة ١٤٦٠ . وبدأت تجارة رقيق مجزية ، اجتذبت للمرة الأولى المصالح التجارية الأوروبية ، ولكن الاستكشاف اضطلع لحظة ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى الافتقار إلى توجيه هنري ، وربما يرجع أيضاً إلى أن الغابة بدت خالية من الجاذبية . ودبت الحياة من جديد في أعمال الاستكشاف في السبعينات من القرن الخامس عشر . ووجدوا في غابة الحديثة منطقة خالية من الغابات ، تمتد فيها حشائش السافانا حتى البحر ، وتم عبور خط الاستواء لأول مرة في التاريخ الأوروبي . ووجد الذهب والتبر بوفرة في تلك المنطقة التي تتخلل الغابات الاستوائية ، ولهذا أطلق على الساحل اسم إلينا — والمنجم أو « ساحل الذهب » . وهنا أقيمت محطة تجارية يقال لها إلينا ، وذلك في أثناء رحلة تمت بعد ذلك في عام ١٤٨٢ . ويظهر أن كريستوف كولومبس الذي اكتشف أمريكا فيما بعد ، زار الحصن الجديد بعد ذلك بعام أو عامين<sup>(١)</sup> . لقد سبق له العمل في خدمة البرتغال منذ سنة ١٤٧٧ ، كصانع للخرائط أولاً ثم كضابط يكتسب الخبرة في الملاحة بالمحيط ، ولم يسع إلى الحصول على مساندة لرحلته الشهيرة في اتجاه الغرب إلا في عام ١٤٨٦ .

وثبت أن الاتصال والنقل بطريق البحر أدعى إلى الاطمئنان وأشد يسراً

(١) تجرد الأداة وتقسيمها في

Samuel Eliot Morison: Admiral of the Ocean Sea

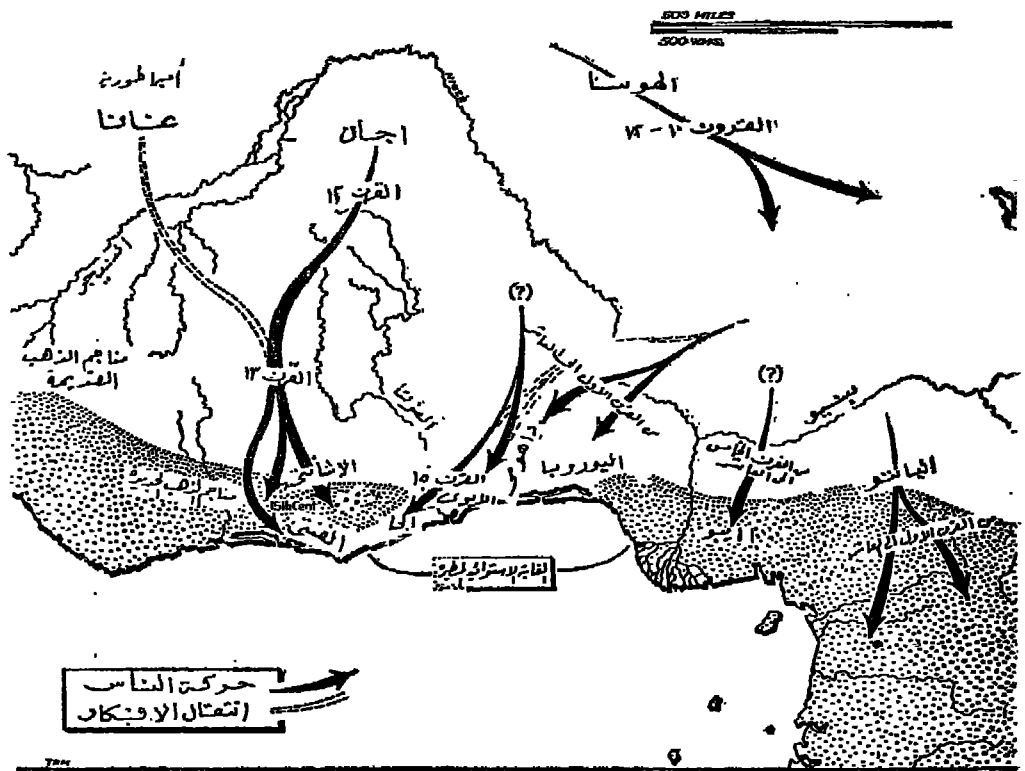
(جزءان ، بوسطن ١٩٤٢ ، ج ١ ، ص ٥٣ — ٥٤ ، ص ٥٩ حاشية رقم ٢٣ )

من السفر عبر الصحراء ، وذلك فإن الثورة العميقة التي حدثت في عتمة التجارة الإفريقية وتطورها — على ما اكتشف المراكشيون في عهد المنصور بعد ذلك بقرن من الزمان — لم تكن سوى مسألة وقت . والواقع أنه يحتمل أن البرتغاليين لم يحصلوا على الذهب من المصادر التي ظلت غائبة ومالي زمناً طويلاً تعتمدان عليها ، وإنما حصلوا عليه من مناجم جديدة في مناطق الغابات المطيرة التي تمتد مباشرة وراء السافانا الساحلية ويبدو . أن اكتشاف هذه المناجم ، إلى جانب وصول الأهالي الزنوج إلى الساحل ، لم يحدث إلا قبل مجيء البرتغاليين بسنوات قلائل .

إن الاضطراب الديني والسياسي في السودان ، والذي استمر منذ أيام المرابطين في القرن الحادي عشر إلى الاحتلال المراكشي ، شجع بعض الزنوج من غير المسلمين على التحرك إلى المناطق الواقعة خارج سلطان الإمبراطوريتين القويتين . ويحتمل أن الفوضى ذاتها أسهمت في قيام تنظيمات قوية من أجل الدفاع العسكري ، بين القبائل المقيمة غرب وجنوب وادي النيجر الغني ، فظهرت اتحادات قبلية تنسم بالكفاءة بين شعب الأجان في غانة الحديثة ، كما بدأ الزنوج غير المسلمين يتوغلون بأعداد كبيرة في الغابات المطيرة ( حيث اكتشفوا الذهب أيضاً ) ويستوطنون على طول ساحل غينيا .

إننا نفتقر إلى المعرفة بشأن التطورات الدقيقة التي وقعت على امتداد هذا الساحل ، ولكن في الإمكان أن نوحى ببعض المعالم الرئيسية العامة . فالظاهر





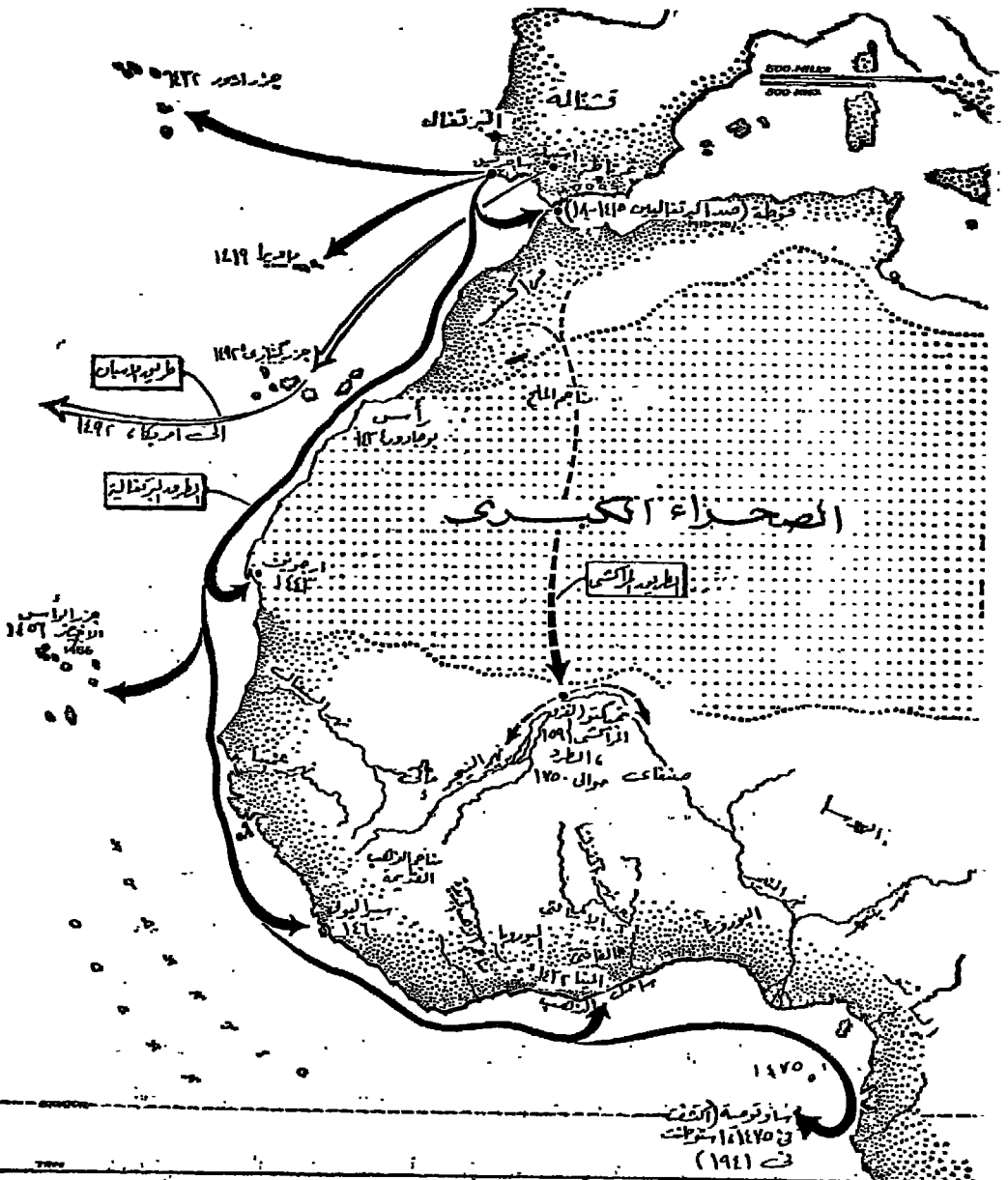
# الهجرات الزنجية

بخصوص ساحل فينينا (بطريق الحدس) من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر

أن الزوجين الذين كانوا يتميزون بالسهولة البالغة في تصنيع الحديد ، انتقلوا إلى المنطقة الواقعة غربى دلتا النيجر منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام خلت — أى في نفس الوقت تقريباً الذى بدأ فيه انتشار الزوجين من الناطقين بلغة الباتو ، شرقى الدلتا — وأقاموا عدداً من المجتمعات الصغيرة المستقلة . وفيما بين عامى ٩٠٠ ق . م ، ٢٠٠ ميلادية سادت حول نوك فى السافانا الجنوبية سهولة رائعة فى نحت رسوم صغيرة للإنسان .

كان مجتمع نوك يمثل انتقالاً من الخشب والحجارة إلى الحديد فى أفريقية الغربية ، وكانت موضوعاته طليعة الأشكال الفنية التى اتخذت فيما بعد لتلائم الطين المحروق والوسائل البرونزية فى وسط نيجيريا وجنوبها الغربى . ونمت ثقافة بنين وهى من سلالة ثقافات نوك ، استخدام الحديد حتى وصلت به إلى مستوى رائع حوالى عام ١٤٠٠ ، وأنتج فناؤها صوراً بشرية وسماوية تقدر قيمتها بسبب طابعها الجمالى أكثر من منفعتها . وثمة مجتمعات أخرى وبخاصة اليوروبا ومواليهم ، وأهل داهومى ، نجحت بشكل خاص فى عمل الآلات . وعندما اشتدت الضغوط من جانب السودان الثائر حوالى عام ١٥٠٠ ، شجعهم ذلك على تكوين الأحلاف بقصد الدفاع العسكرى ، وأصبح هذا الفن عبارة عن صناعة الأسلحة . وتدهورت حضارة بنين فى القرن السادس عشر إزاء الضغط العسكرى من قبل اليوروبا الذين أنشأوا حديثاً حكومة مركزية ، وبسبب التعديلات الثقافية التى أدخلها التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون .

وفى الشرق والشمال الشرقى من دلتا نهر النيجر ، وبين الباتو وغيرهم،



**افريقيّة الغربيه التنافس الاقليمي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر**

بمبادرة من (البحر)  
في ١٩٧٥، ١٩٧٥، ١٩٧٥  
(١٩٤١)

من الأقوام الزنجية في مرتفات الكمرون وحولها، لم يتطور التنظيم على مثل هذا النطاق أبداً بالرغم من أن معظم هؤلاء القوم لا بد أن وجدوا في هذه المنطقة طيلة آلاف عدة من السنين . وفي السافانا شمال المرتفعات استوطن الزنوج منذ أزمنة ما قبل التاريخ ، ولعل السكان الأوائل جداً كانوا من اليوروبا والداهوميين ، وتحركوا عبر النهر إلى غرب نيجيريا حوالى الوقت الذى ظهر فيه المسيح . وكان الهوسا ثانياً شعب نعرف أنهم أقاموا هناك ، وهؤلاء وصلوا في حوالى القرن العاشر . ومن المحتمل أنه كان هناك بعض الباتو في نيجيريا الشمالية — ولا تزال بقاياهم متناثرة هناك — ولكن معظم توسع الباتو كان في اتجاه الجنوب ، لا الشمال ، من الكمرون . ومن الممكن القول بأن شعب جا الذى يعيش الآن على طول المجرى الأدنى من نهر الفولتا ، كلن هنا ، ويبدو أن تاريخهم تضمن إقامة في نيجيريا الشمالية حيث بدأوا يهاجرون منها منذ حوالى ٩٠٠ سنة خلت .

ويعتقد الجاهل أنهم وصلوا في منطقة الفولتا حوالى عام ١٣٠٠ ، فيما تذكّر معظم الروايات أن شعب الأجان وفد من الحافة الجنوبية لغانة القديمة أو مالى إلى الحافة الشمالية لإقليم الغابات المطرية في غانة الحديثة بين عامى ١٢٠٠ ، ١٤٠٠ . ولعل قبائل أجان التى توغلت في الغابات وأطلقت على نفسها اسم الأشانتى ، قد اكتشفت الذهب في القرن الخامس عشر ، وبدأت تكون أجلاًفاً عسكرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ودارت قبائل أخرى من الأجان يقال لها فاتى حول الغابات ، واستوطنت تلك الشقة المغطاة بالسافانا في ساحل الذهب غربى شعب جا مباشرة ، ولكن كم من هذه الروايات يمكن تقبلها؟ وإلى أى

حد كان في الإمكان أن تمتزج قبيلة مهاجرة بأخرى أو بالسكان الأوائل الذين كانوا مقيمين في المناطق التي جرى اجتياحها؟

والمعلومات عن الهوسا قليلة نسبياً ، فبالرغم من احتفاظهم بسجلات مكتوبة فإن معظمها دمر في ثورة قاد بها المسلمون منذ ١٥٠ سنة خلت . ويبدو أنهم من الغزاة البربر — أو ربما من اللاجئين القارين أمام الغزوات العربية ، ففرضوا سلطانهم على الشعب الزنجي الوطني الذي كان يشتغل بالزراعة. وكان الهوسا تجاراً على درجة جيدة من النظام ، ونظموا أنفسهم على هيئة سلسلة من مدن كل منها تمثل دولة ذات سيادة . وقام تحالف بين الملوك ويروقراطية ثابتة الدعائم ، ساعد أقلية فاتحة في الإبقاء على سلطانها على جماهير الشعب من أبناء البلاد . هذا الشكل من الحكم تأثر إلى حد كبير بتعاليم القرآن في تاريخ مبكر جداً ، ولكن الحكام أو الجماهير لم يتقبلوا الإسلام ديناً لهم إلا بصورة جزئية وببطء . وتخصص الهوسا في عمل التماس الرقيق والمصنوعات الجلدية والعبيد الذين كانوا يصطادونهم أو يشترونهم شرقي دلتا النيجر . وكانت تلك « المدن الدول » تتجر عبر الصحراء مع الإمبراطوريات القائمة على امتداد النيجر الأوسط ومع زنوج اليوروبا وجا . فهل كان الجا إذن من اللاجئيين الذين فروا بصورة جماعية من وجه الفاتحين الهوسا ، واصلوا علاقاتهم التجارية ولكن احتفظوا باستقلالهم؟

من الصعب القول ، إذا كان الزوج عاشوا بأعداد لها شأنها في العادات المتطرفة قبل القرنين الرابع عشر أو الخامس عشر ، ولكن من الصعب

بالمثل الاعتقاد بأن الأجانب كانوا الاجئين بأعداد كبيرة وفدوا من ناحية الشمال البعيد . إن لفهم قرية جداً من لغة جير أنهم من أهل الغابات وهي مختلفة جداً عن أى شيء معروف في وادي النيجر الذي يزعمون أنهم قدموا منه . غير أن هذا لا يعنى أنهم كانوا بالضرورة يعيشون في شمال منطقة الغابات أو جنوبها ، ولا يعنى أنهم لم يتعرضوا لأية مؤثرات واردة من الشمال الأقصى .

قد يكون الجواب بالنسبة إلى كل من الجا والأجانب أن القوم الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات عاشوا زمناً طويلاً على الحافة الجنوبية للسافانا شامياً منطقة الغابات المطيرة وبعيداً عن الساحل ، ولكنهم تلقوا في زمن أحدث شيئاً من التقاليد والأشكال التنظيمية، بل وأرستقراطية حاكمة من الأماكن التي يزعمون أنهم هم نشأوا فيها في الأصل . وبعد ذلك اكتسبوا بدورهم بسالة عسكرية ، وارتدوا منذ حوالي عام ١٥٠٠ نحو الساحل والغابة المطيرة بوصف ذلك وسيلة لتفادي الضغط المتزايد من جانب الإسلام ، والاضطراب الناشب في وادي النيجر .

وثمة رأى يوازى هذه الإمكانية مع تعقيد أقل بدرجة طفيفة ، قد تلقاه في الزواج من أبناء الغابات المطيرة بساحل العاج الحديث وليبيريا وسيراليونى . ففى كل هذه المناطق المغطاة بالغابات يظهر أن التوغل تم على صورة أعداد صغيرة وفي زمن متأخر نسبياً ، وعلى أيدي الجماعات الأقل تقبلاً للتنظيم المركزى أو الإسلام . وقد يبدو أنهم غادروا السافانا على غير رضاه منهم ، كى يهربوا من الإسلام والحكم القوي، ولكنهم لم يتعرضوا للتأثير أو يشعروا بالضغط ، مما أرغم الأجانب على إنشاء الحلفاء والأحلاف .

« وهناك مجموعة متفرقة عبر أفريقيا من السنغال إلى دول الهوسا يقال لها الفولاني، وكانوا من البنو الزنجل، ونادراً ما أقاموا دولة لأنفسهم وإنما عاشوا كشمب يتمتع بالحماية في المجتمعات الكثيرة القائمة في أقاليم السافانا، الجنوبية والوسطى. وهم يزعمون أنهم من سلالة بيضاء وهو زعم حاول العلماء الأوائل تبريره عن طريق ربطهم بالبربر، ولكن الرأي الحديث<sup>(١)</sup> يؤيد وجهة النظر التي تذهب إلى أنهم أصلاً من الزنوج الذين نشأوا على مقربة من الطرف الغربي لإفريقية. ولقد ظلوا قرونًا يقاومون الإسلام، ولعل ذلك أو ميلهم الرعوي وحده هو الذي شجع على هجرتهم المتدرجة. ما من شك أن بعضهم كانوا على الحافة الجنوبية لغانة القديمة حين هاجم المرابطون تلك الإمبراطورية، ويبدو أن انتشارهم زاد حوالى ذلك الوقت إذ وجدوا على هيئة أقليات محمية في مختلف الدول التي قامت في السافانا من السنغال إلى بلاد الهوسا، وفي أثناء الفوضى التي ارتبطت بالفتوح المراكشية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأوا يلعبون دوراً هاماً في سياسة الدول الصغيرة التي قاومت الولاة من أبناء شمال أفريقية ووجدت منهم جماعات كبيرة بوجه خاص، حوالى ذلك الوقت في فوتالون (في داخل غينيا الفرنسية الحديثة) وفي بلاد الهوسا، وفي كلا الإقليمين كانوا ما يزالون أقلية رعوية ووثنية، بالرغم من أن نسبة طيبة منهم ممن أقاموا بين الهاوسا كانوا في المدن اختلطوا بالقبائل الأخرى عن طريق المصاهرة حيث اعتنقوا الإسلام. وفي معظم الأحوال عاش الفولاني البقارة على وفاق مع أبناء البلاد للشغليين بالزراعة.

---

Joseph H. Greenberg . Studies in African Linguistic (١)  
Classification, New Haven, 1955, pp. 24—32

وإذا استثنينا سكان السواحل ، فإن الكشف والتوسع الأوربيين لم يكن لهما تأثير مباشر على الحياة الدينية إلا بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة قرون .

ومهما يكن من أمر ، فالتأثير الأجنبي غير المباشر بعد حوالي عام ١٤٥٠ ، أدى إلى تغييرات عميقة حولت بشكل جوهري مجرى التاريخ في غرب إفريقية .



## عالم الرق

وجد الرق — وهو اقتناء البشر كتناج شخصي — في إفريقية كما في أجزاء العالم الأخرى — منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان في مراحل المبكرة ظاهرة صغيرة نسبياً ، معتدلة المدى ومنطقية ، إذ كان الاسترقاق وسيلة للتحكم في المجرمين والساخطين وأسرى الحرب ، واستخدامهم بطريقة إنتاجية في مجتمع رحالة يفتقر إلى الحكومة الموضوعية والسجون الدائمة لتنفيذ القانون . ولأسباب عدة لم يكن الإنكار الكلي للإنسانية والشخصية — وهو الإنكار المرتبط في العادة بالرق — موجوداً فمن جهة لم تكن لدى المجتمعات الإفريقية فكرة دقيقة عن حقوق الملكية الخاصة ولهذا كانت الحقوق الشخصية للمبيدوا حوالهم العامة تحميها قوة القانون التقليدي ومسئولية الجماعة . كذلك كان الرق عادة لفترة زمنية معينة تناسب مع طبيعة الجريمة أو ظروف الأسر — بدلا من أن يكون حالة طابعها الدوام ، كما كان في الإمكان أن يكسب العبد حرته بفضل حسن سلوكه أو بالشراء . وكان المالك مسئولاً عن المحافظة عليه وحمايته ، ومقابل هذا يؤدي العبد قدراً محدداً من العمل بغير أجر . غير أنه كان يستطيع في وقته الحر أن يقتني المتقولات التي يشتري بها حرته ويعود فيندرج في المجتمع كمضو في مرتبة طيبة .

هذه الظروف الخفيفة من وطأة الاسترقاق ظلت سائدة طالما كان العبد

لا يباع أو يتجر فيه إلا مع المجتمعات المجاورة التي تسير وفق قانون مماثل ، ونشأت الصعاب والساوى أصلاً حين بيع العبد إلى مجتمع يدين بفكرة الملكية الشخصية التي لا تقبل الانتهاك وفكرة العبودية الدائمة . مثل هذه الأحوال لقيها الزوج الذين كانوا يباعون إلى العالم القديم في حوض البحر المتوسط ، وحتى هناك كان السلوك الحسن وتجميع الممتلكات الشخصية مما يمكن استغلالهما لصالحهم . وبانتشار الإسلام قام شكل من الرق أشد قسوة نوعاً ، إذ بالرغم من أن القرآن أوصى بالمعاملة الإنسانية ، فإنه لم ينص على مسئولية الجماعة عن أحوال الأسرى وحماية حقوقهم ، ممن لم يكونوا من المؤمنين بالله الحق . لقد سمح بوجود الخلاء والملكية الدائمة والإنكار الكلي لحقوق الملكية ، ولهذا تحول الاستعباد إلى نقي جذري لإنسانية الضحية .

هذا النمط من الاستعباد الكلي ظهر في شمال إفريقية ومصر الإسلامية ، منذ القرن السادس عشر حين زاد حجم الاتجار في الرقيق نتيجة سيطرة المستوطنين العرب على نهاية التجارة الصحراوية على البحر المتوسط ، وانتشار الإسلام في السافانا تحت لواء المرابطين ، ويحتمل أن معظم العبيد كانوا من أسرى الحروب وضحايا الغارات الذين كانت تأخذهم إمبراطوريات إقليم السافانا من القبائل الأقل منها تنظيمياً ، وألقيمة على امتداد الحافة الشمالية لمنطقة الغابات . ويبدو أن أكبر مصدر للتوريد بعد تطبيق القانون الإسلامي في دول الهوسا ، كان الزوج وبخاصة الباتو الذين لم يهاجروا إلى حوض الكونغو الذين يعيشون جنوبي شرق بلاد الهوسا ، وكانوا يتكوتون من قبائل صغيرة تنتمي إلى التنظيم الدفاعي ويمكن حشها على الإشتباك في الحروب فيما بينها حتى يقتضى توفير الأسرى للتجار المسلمين . واشتد الطلب على العبيد في الأسواق

لواقعة فينيا وزاء الصحراء ، بعد انحلال الإمبراطورية البيزنطية وسقوطها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إذ كان الفانجون الأتراك في حاجة إلى جماعات تابعة لهم ، حتى يتسنى لهم الاحتفاظ بحكمهم على السكان المسيحيين . وارتقى كثيرون من العبيد الزوج فشفلوا مراكز إدارية رئيسية في ظل السلاطين بالأستانة ، ولكن الخصاء كان مطلوباً دائماً للحيلولة دون قيام مصالح وراثية قد تنازع الأتراك سلطانهم . وكان الموردون من الهوسا الذين ضمت لهم هذه السياسة سوقاً دائماً ، نشيطين بوجه خاص في إعداد هؤلاء الخصيان للرحلة إلى الأنواق .

وكان الرق البسيط موضع الممارسة أيضاً بين الباتو الذين هاجروا عبر الغابات من الكمرون خلال العصر المسيحي . وحالت المنافسة الحادة على احتلال الأراضي الواقعة عند خط تقسيم الكونغو والسيطرة عليها ، إلى خلق سلسلة من القبائل المنظمة نسبياً ، والتي كان ينجح بعضها في اجتياح جيرانه من وقت لآخر . كان من الجائز استرقاق بعض الأسرى الذين يؤخذون في أمثال هذه الصراعات ، ولكن يحتمل أن أعظم مورد لهذا المتاع كان يتمثل في الغبيد الذين تسلمهم القبائل التي أخضعت بوصف ذلك جزية مفروضة عليها . لم تكن هناك سوق أو تجارة بالنسبة إلى هؤلاء الأسرى ، ولكن إذا أمكن إدماجهم في أهل القبيلة المنتصرة أمكن أن تعظم سلطة الزعيم الحاكم ، في داخل تلك القبيلة وفي جميع أرجاء المنطقة .

ويحتمل أن المستكشفين والتجار البرتغاليين الأوائل اشتروا أولى شحناتهم من العبيد من التجار المسلمين القيمين على سواحل السنغال وموريتانيا في أواسط

القرن الخامس عشر . ولما مات الأمير هنرى الملاح فى عام ١٤٦٠ كان يجرى شراء الزنوج من الوسطاء الزنوج والبربر بين نهري السنغال وغينيا ، كما كان عدد قليل يؤسر عن طريق الغارات التى تشن كيفما اتفق عند الطرف الشمالى الغربى لمنطقة الغابات ، ولكن هذه العملية كانت تكلف الأوربيين الكثير من الرجال والمال ، بخلاف التبادل السلمى . وبعد عام ١٤٨٢ ، حين استقر البرتغاليون فى إلينا على ساحل الذهب ، وضعوا التأكيد على اقتناء الذهب ، وكان فى الإمكان إيجاد العدد الكافى من العبيد فى أماكن أقرب إلى البرتغال ، حول الرأس الأخضر ، لإشباع الطلب الأوروبى . وفى إلينا عقدت معاهدات مع قبائل الفانتى القاطنة على امتداد الساحل ، وتنص على مبادلة الذهب بالملح والقماش والقطع المصنوعة والآلات . كانت العلاقات - رة وودية بدرجة معقولة طائفا لم يحاول البرتغاليون أن يتخطوا هذه القبائل الوسيطة ليستغلوا المناجم أو ليتصلوا اتصالاً مباشراً بالمنتجين من شعب الأشانقى فى الداخل .

وزار بعض رجال الإرساليات الدينية والتجار بنين غربى دلتا النيجر ، ولكن الاهتمام بهذه الجهة كان قصير الأمد . وسار البرتغاليون بعيداً على الساحل — وكانوا الآن يبحثون عن مملكة برسترجون المسيحية التى تحدثت عنها الأساطير ، وعن طريق إلى الهند — فاتصلوا بشعب الباتو فى الكونغو . وفى عام ١٤٨٣ طلب حاكم مانيكونغو التى تصادف أن كانت القبيلة التى لها الغلبة ، المساعدة فى المحافظة على سلطته ، وأعرب عن اهتمامه بالمسيحية . وتما اكتشاف رأس الرجاء الصالح بعد ذلك بأربع سنوات ، ولكن نشاط البرتغاليين تحول إلى مانيكونغو قبل أن يتجهوا نحو الشرق . وفى ربيع عام ١٤٩١ وصل إلى الكونغو

رجال الإرساليات والمبعوثون والمستشارون الفنيون ، حامنين الصور والهدايا .  
 وجرى تميميد الزعيم نزينجا كَنوَوُ Nzinga Knewu باسم الملك يوحنا  
 الأول ، وعقدت محالفة مع يوحنا الثاني ملك البرتغال بوصفها بين عاهلين على  
 قدم المساواة ، وأنشئت مستعمرة أوروبية صغيرة في مبانزا ، وهي المقر القبلي  
 والواقعة على مسافة ١٢٥ ميلا في الداخل . وساعدت قوات مانيكونفو في  
 إخماد ثورة ولكن عندما أصبح يوحنا الثاني أكثر اهتماماً بالهند ، بدأت  
 مملكة الباتو. ترد ، فتراجع رجال الإرساليات إلى الشاطئ فنع ولى العهد  
 مبيمبا أ - نزينجا ، الذي أصبح بعد عشر سنوات في المنفى ، برتغالياً متفقاً ،  
 قد انقطعت صلته تماماً بأساليب الباتو .

وفي أثناء المنفى بدأ الساخطون البرتغاليون الذين أبعدوا ، يدخلون زراعة  
 قصب السكر في جزيرة ساو توميه الاستوائية غير السكونة والتي تقع على مسافة  
 ٦٠٠ ميل شمال غرب الكونفو . لقد جاءوا أولاً إلى البر في حوالي سنة ١٥٠٠  
 لشراء العميد للعمل في مزارعهم ، ووجدوا بين اللاجئيين من اللاتينكوونفو  
 موردين على استعداد لسد حاجتهم ، واتخذ مبيمبا أ - نزينجا اسم ألفونسو الأول  
 بعد وفاة والده ، وأخضع الحكام الوثنيين الذين اغتصبوا ميراثه ، وأطلق على  
 عاصمته مبانزا اسم ساو سلفادور . وجاء مزيد من رجال الإرساليات في ١٥٠٨  
 لدعم برنامج ألفونسو في إدخال الحضارة الأوروبية ، ولكن نادراً ما جرى بعد  
 ذلك تذكر ألفونسو . وتحول النشاط البرتغالي إلى غزو المحيط الهندي في عام  
 ١٥٠٩ ، أما رجال الإرساليات الذين كان أكبر اهتمامهم منصباً على الجواربي  
 والعميد منه على تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، فأخذوا يموتون بالتدريج .

وفرض صاحب امتياز ملكية مزارع ساو. توميه الرقابة على الاحتجاجات والنداءات التي كان ألفونسو يبعث بها إلى اشبونة ، وأصدر إيمانويل ، ملك البرتغال الجديد ، أوامر نموذجية لتصحيح الموقف ولكن لم يتمكن من فرض إرادته على رعاياه. وظل ألفونسو يمثل إلى حد كبير الدافع على التقدم ، فأقيمت في ساو سلفادور المباني على الطراز الأوربي ، وأرسل أبناء الأثرياء للدراسة في البرتغال — ودخل ابنه في خدمة الكنيسة وأصبح أسقف الكونفو وهو الزنجي الوحيد الذي فعل ذلك حتى العصور الحديثة -- ولكن ساو توميه استرقت الكثيرين ممن كانوا قبلاً من الطلاب . وحاول ألفونسو أن يقوى الإرساليات ، ولكن ظل الاستعراض التقليدي القائم على شن الحروب لاقتضاء الجزية ، يسود بلاده . كان واضحاً أن الأسرى الذين يقعون في أمثال هذه الحملات ، مرشحين للشحن إلى ساو توميه ، وهو أمر لم يلق إليه ألفونسو بالاعتناء خاص . كان معتاداً على شن الغارات من أجل الحصول على العبيد ، وصدق بإخلاص البرتغاليين حين وعدوا بمد مزايا التحول إلى دينهم إلى هؤلاء القوم .

وظهر تجار ومبشرون برتغاليون جدد في بلاد المانيكونفو خلال الثلاثينات من القرن السادس عشر ، ولكن بسبب دسائهم الشخصية أبقوا الملكة في اضطراب مقتتل لم يكن في وسع أي ملك كنفى أن يتحكم فيه . وظلت الأسرة الباتوية المسيحية قائمة حتى القرن السابع عشر . كان مقر أسقف الكونفو — من الناحية القانونية -- وهو الآن برتغالي أبيض — كاتدرائية ساوسلفادور المبنية على الطراز البرتغالي حتى سنة ١٦٧٦ ، ولكنه كان يقيم في العادة على ساحل أنجولا . ومن حين لآخر كانت ترسل بعثات

دينية جديدة إلى ساوسلفادور - وقامت هيئة كلية بتدريب عدد قليل من التساوسة الأفريقيين هناك. وفي منتصف القرن السابع عشر كان الملك يدرج في عداد المسيحيين - ولكن مملكة الكونغو كانت تؤدي الجزية إلى البرتغال بعد ١٥٧٠ ، وارتد أهلها إلى الوثنية بحلول ١٦١٥ ، وزالت البقايا الأخيرة لساوسلفادور والأسرة المالكة في مانيكونغو قبل عام ١٦٩٠ ، واستمرت البرتغال في اعتبار البلاد حليفاً ذا سيادة حتى عام ١٨٨٣ ، ولكن كل ما تذكره البانتو في ذلك الوقت كان اسم ألفونسو وتجارة الرقيق، وبعض التعاويذ الغامضة ذات الأصل المسيحي .

كانت التجربة رائسة ، ولكن لم تتمكن البرتغال ولم يستطع ملوك مانيكونغو فض النزاع بين القيم الأوروبية والتقليد الأفريقي . فمن جهة ، أراد ألفونسو والحكام البرتغاليون أن يخلقوا دولة سياسية متساهلة ذات نظام مركزي للحكم ، تعتنق المسيحية وتتولى الإدارة فيها البيروقراطية ، وتسير وفق النظم القانونية والثقافية الأوروبية . ومن جهة أخرى واصل الطرفان تقبل نظام البانتو القائم على اللامركزية والمكون من دول تابعة ، ينتج العبيد ويشجع الفن ويحول دون الاستقرار الدائم . وبالرغم من النوايا النبيلة في لشبونة فضل التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون تشجيع الفن ، وأسلوب البانتو في اقتضاء الجزية ونظام الرق الذي تولد بسببه ، بل ولم يكن بأمر ذي بال أن تجتاح قبيلة أخرى أراضي المانيكونغو، إذ كان في الإمكان الحصول على العبيد من أي زعيم قبلي يحرز النصر ، وكان المورد أوفر إذا اتسم الموقف بأعظم قدر من الغوضى . ومن هنا كانت تجارة الرق الثمرة الدائمة الوحيدة التي أسفر عنها مشروع الكونغو .

وفي أوائل القرن السادس عشر ، خلال حكم ألفونسو وألمع فترة في تاريخ التجربة الكونفولية، اقتضت سوق الرقيق على مزارع جزيرة ساوتومييه. وكان البرتغاليون والإسبان في سانتو دومنجو يحصلون على حاجاتهم مباشرة من قبائل السنغال وجامبيا. لكن بعد عام ١٥٣٠ ، ترتب على توسع الإسبان في كوبا والبر الأمريكي ، إلى جانب إقامة البرتغاليين في البرازيل التي كانت تعاني من الفقر في عدد السكان ، أن نشأت أسواق جديدة لتعبيد الإفريقيين ، لم يكن في الوسع إشباع حاجتها عن طريق السنغال وجامبيا وحدهما . وقبل عام ١٥٥٠ بدأت مناجم الذهب القريبة من إلينا تنضب فتحول الوسطاء من شعب الفانتى إلى توريد العبيد للأمريكتين . وكان تجار الرقيق يسدون حاجتهم أيضاً من بنين ، وإن ركزوا أعظم الطلب على المانيكونغو حيث سرعان ما خلفى اعتماد اقتصاد البلاد على الرق على تأثير الثقافة الأوربية .

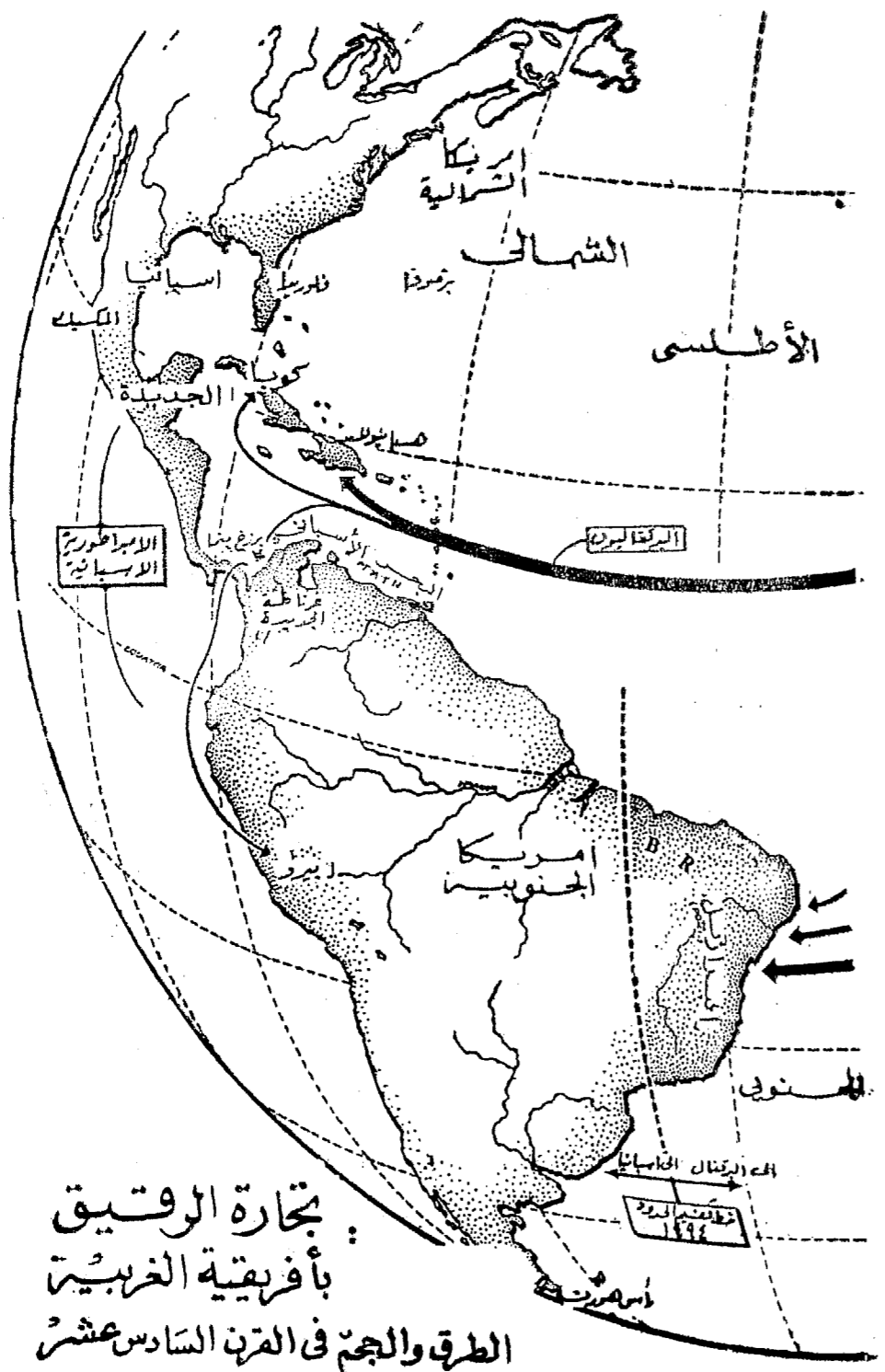
وكانت مصالح البرتغال التي تناثرت بانتصاف القرن على شواطئ المحيطات الثلاثة، تشكل استنزافاً خطيراً لقوتها البشرية المحدودة. فكانت لها احتكارات تجارية ومزارع وإرساليات دينية في البرازيل ( السكر ) ، وفي السنغال وجامبيا وساحل الذهب والكنغو (العبيد) ، وإفريقية الشرقية والخليج الفارسي والهند والملايو وجزر الهند الشرقية والصين واليابان ( التوابل والسلع الترفية ) . كذلك كانت السفن البرتغالية تزود إمبراطورية إسبانيا في أمريكا بالعبيد ، وحاول التجار التسلط على التجارة المحلية في المحيط الهندي وشرق آسيا ، واستمرت الحملات الباهظة التكاليف توجه إلى العرب في مراکش . وفيما عدا البرازيل ، كان من الضروري نبذ معظم المحاولات من أجل التسرب إلى الداخل ، ولهذا زاد الاعتماد على الجزر القريبة من الساحل حيث كان في الإمكان



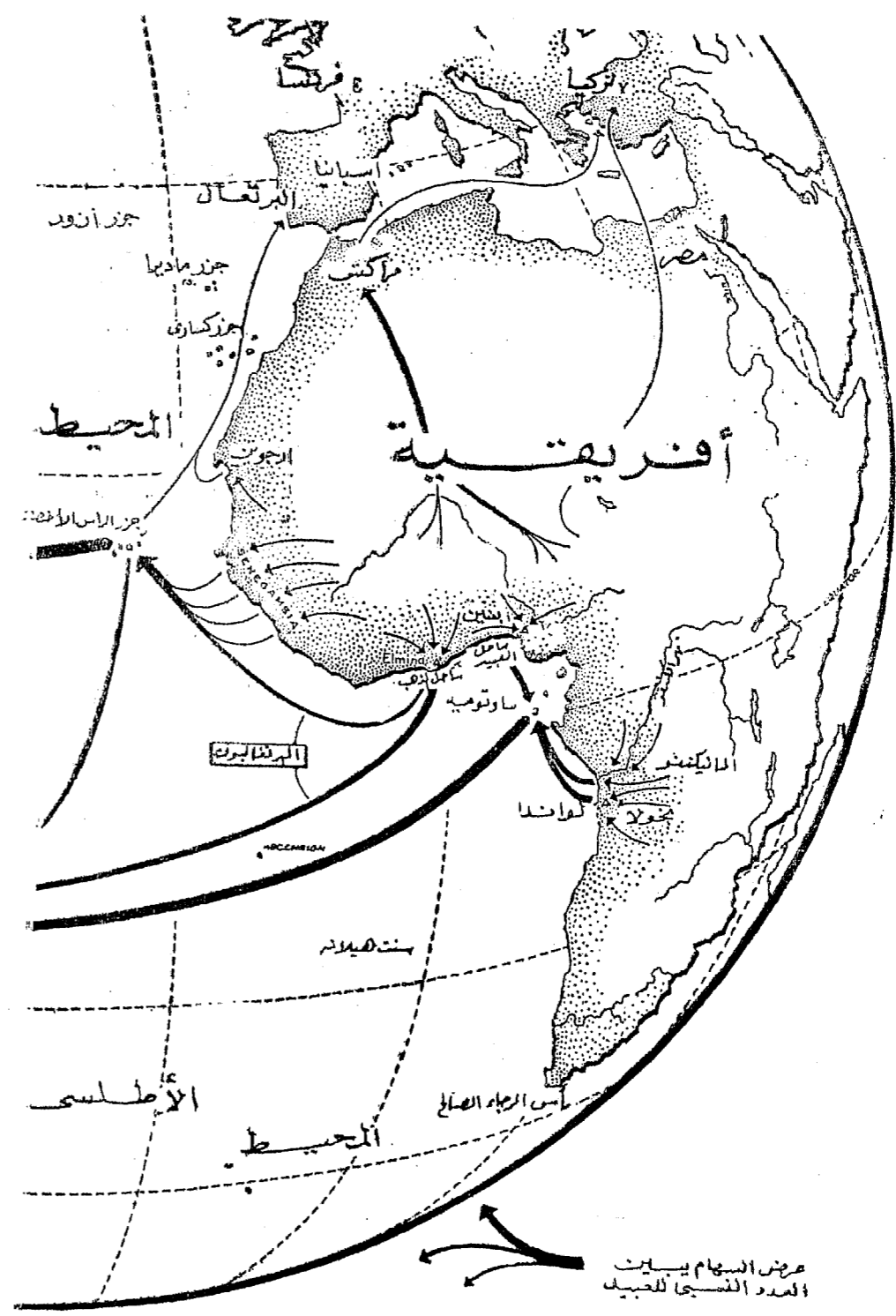
حماية الجاليات البرتغالية الصغيرة ، من الهجوم والمرض . وعلى الساحل الإفريقي المطل على الأطلسي كانت إلينا المحطة الوحيدة على البحر ، وأوقفت رسمياً الإرساليات والمراكز التجارية في الكونغو وبنين والسنغال وغينيا . وانتقل التأكيد إلى جزر الرأس الأخضر وساوتومييه ، وأصبحت الانتان حفظاً مؤقته للعبيد ، ولكن ساوتومييه أقامت أيضاً اقتصاداً مجزياً يستند إلى زراعة القصب التي سيطر عليها نفر قليل من ملاك المزارع الأوربيين ممن عاشوا في بندج وترنغ . واستمر الطلب من جانب الجزيرة على العبيد ، ولكن المزارع الأكبر حجماً والملوكة في البرازيل صارت أعظم أهمية بكثير .

وكانت قسوة المناخ الاستوائية ، بالإضافة إلى الخوف من إفقار الوطن للألم من أهله ، علملاً يحول دون هجرة النساء الأوربيات ، ولهذا اعتمد بقاء البرتغاليين وتكاثر عددهم على الزواج مع الأجناس الأخرى في جميع أنحاء الإمبراطورية . والواقع أن امتيازاتهم الوراثية كانت أشد وضوحاً من ثقافتهم الأوروبية .

وبرغم أن البرتغال لم تكن قادرة ولا راغبة في التورط البعيد المدى في إفريقية ، كان من الضروري وجود شكل ما من أشكال الرقابة والاتصال بالنسبة إلى ذلك المصدر الجنوبي الذي يزودها بالرقيق . لقد درج المانيكونغو على ادعاء السيطرة على المنطقة الواقعة جنوبي ساوسلفادور . والمعروفة باسم أنجولا ، ولكن تضائل قوة البانتو كان قد وضع حداً لاقتضاء الجزية البشرية هناك ، وفي عام ١٥٧٦ طبق بلاط لشبونة نظام منح امتيازات التملك السائد في ساوتومييه والبرازيل ، على المنطقة الساحلية غير المنظمة ، ولكن رغبة في الحيلولة



تجارة الرقيق  
بأفريقية الغربية  
الطرق والجمم في القرن السادس عشر



عرض السهام يسلط  
والعدد النسبي للخصب

دون تبديد الجهود وإشاعة الاضطراب فيها ، طالب الملك بالحكم المباشر على قبائل البانتو المنقسمة على بعضها ، وعلى استغلال المزارع . فأنشئ في لواندا حصن ساحلي قوى يضم مخزناً يستقبل الصييد، واستخدمت الوحدات العسكرية بكثرة إما لإرغام الزعماء على بيع المسجونين أو للحصول على العبيد مباشرة ، وأخفقت في العادة المحاولات التي بذلت في سبيل تنمية المزارع إذ كانت تجارة الرقيق أوفر جزاء، وتضاعل الأمل في اكتشاف مناجم لها قيمتها كلما طرود ارتياد البلاد واستكشافها . لقد حلت أنجولا في ظل السيطرة البرتغالية المباشرة ، محل منطقة الكونغو المجزية وإن افتقرت إلى التنظيم وذلك بوصفها المورد الرئيسي لتلك الشحنات من أبناء البشر .

وقتل الملك الطائش سيباستيان الأول وهو يحارب المر الكشيين ، وهنا انتقل التاج البرتغالي في عام ١٥٨٠ إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي كان اهتمامه بإفريقية والبرازيل والشرق دونه بالنسبة إلى المكسيك وبيرو . أما الأراضي الواطئة التي آلت إلى فيليب بعد تقسيم ممتلكات أبيه في وسط أوروبا ، فاعتنقت الإصلاح الديني ونالت استقلالاً فعلياً عن إسبانيا الكاثوليكية قبل انتهاء القرن . وإذ اعتاد الهولنديون طويلاً الصيد من البحر وتجفيف الأرض منه ، فقد كانوا في ظل حكم فيليب الموزعين في الشمال للمنتجات التي تستوردها البرتغال وإسبانيا من وراء البحار . نادراً ما أقرت الولايات الهولندية ذاته السيادة هذه السياسة ، ولكن لم يكن ثمة تردد في تحطى الوسطاء الإسبان المكروهين ، من أجل استغلال الشرق وإفريقية والأمريكتين لأنفسهم . وظهر الدخلاء في إفريقية البرتغالية والهند قبل عام ١٦٠٠ ، وسرعان ما طرد البرتغاليون أو أنشئت محطات تصافهم .

ومنحت البراءات بالاحتكارات إلى شركتين كل منهما أقوى في التجزئة والحرب من ولايات هولنده المنقسمة ، وهما شركة الهند الشرقية الهولندية وتمتد سيادتها من رأس الرجاء الصالح إلى اليابان ، وشركة الهند الغربية في المحيط الأطلسي . وبنيت السفن الهولندية وفق طراز بسيط وقياسي يجعل إدارتها اقتصادية ، وسرعان ما استطاعت أن تفوز دعائم الاحتكار البرتغالي دون أن تعرض للخطر الأرباح الخيالية التي يمكن اجتناؤها . وفضلت شركة الهند الغربية ساحل الذهب على إقليم السنغال وغمبيا الأقل سكاناً ، كمصدر للعبيد . وعقدت المعاهدات مع الفانتى ، وظهرت محطات جديدة هناك وتم الاستيلاء على الحصون البرتغالية ، ولكن في المناطق الأبعد صوب الجنوب ، أى في أنجولا والكونغو ، لم يعبأ تجار الرقيق البرتغاليون بأوامر فيليب ، وقبلوا ذهب هولنده بنفس الاستعداد الذى كانوا يقبلون به عملة بلدهم الذهبية . وإذا حصل الهولنديون على موطن قدم لهم في شمال شرق البرازيل ، وعلى السيطرة على المستهلكين الآخرين من البرتغاليين والإسبان في العالم الجديد ، صار لهم احتكار فعلى في الشحنات التي تعبر الأطلسي ، وهو احتكار ظل قائماً حتى العقد الثامن من القرن السابع عشر ، وفتحت أسواق جديدة في جزر الهند الغربية البريطانية والفرنسية ، وكذلك في فرجينيا ، كما توغل المربون الهولنديون في سوق المستعمرات الإسبانية .

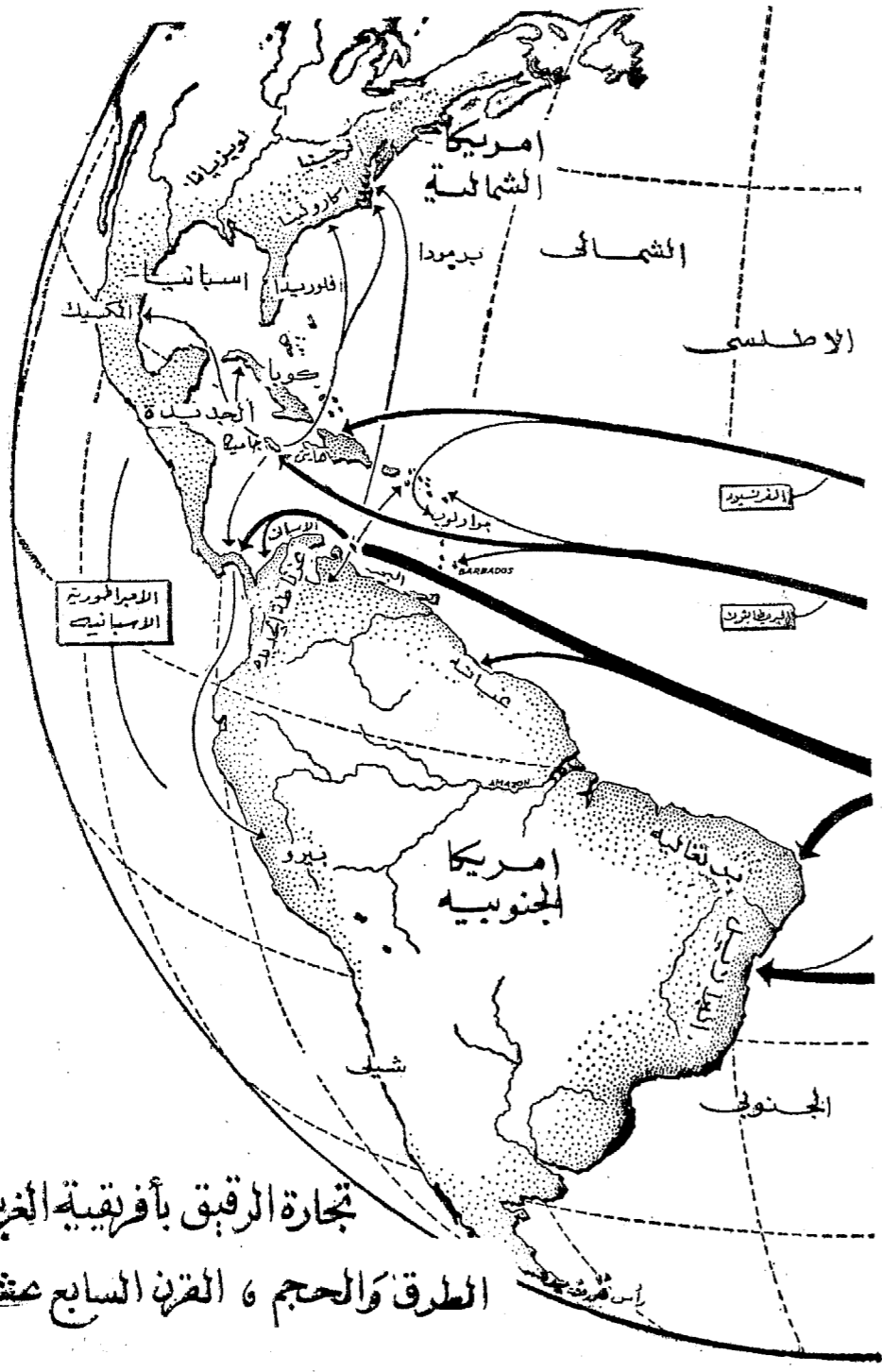
لم يكن الهولنديون يستهلكون سوى جزء يسير مما تنقله سفنهم ولذا اعتمدوا إلى حد كبير على الأسواق الأجنبية ليبيعوا فيها العبيد ومنتجات الشرق . وزاد سخط إنجلترا وفرنسا بسبب اضطرابهما إلى دفع الذهب النفيس والتمصّة نتيجة اعتمادهما على خدمات الهولنديين . وبالرغم من عجزهما عن مناقسة

أصحاب السفن الهولنديين الأكفاء في التجارة الحرة ، استطاعتا إقامة الحواجز الجمركية ونحرهم الاستيراد، حتى يقسنى لهما تشجيع التجار من أبنائهما. كانت هولندا أوفر عدداً وأعظم قوة من البرتغاليين ، ولكنها لم تملك من الموارد ما يكفي لتجهيز أسطول تجارى وبحرية فعالة ، وبذلك تمكنت إنجلترا من تنفيذ التنظيمات التي فرضتها لتحطيم مركز الهولنديين .

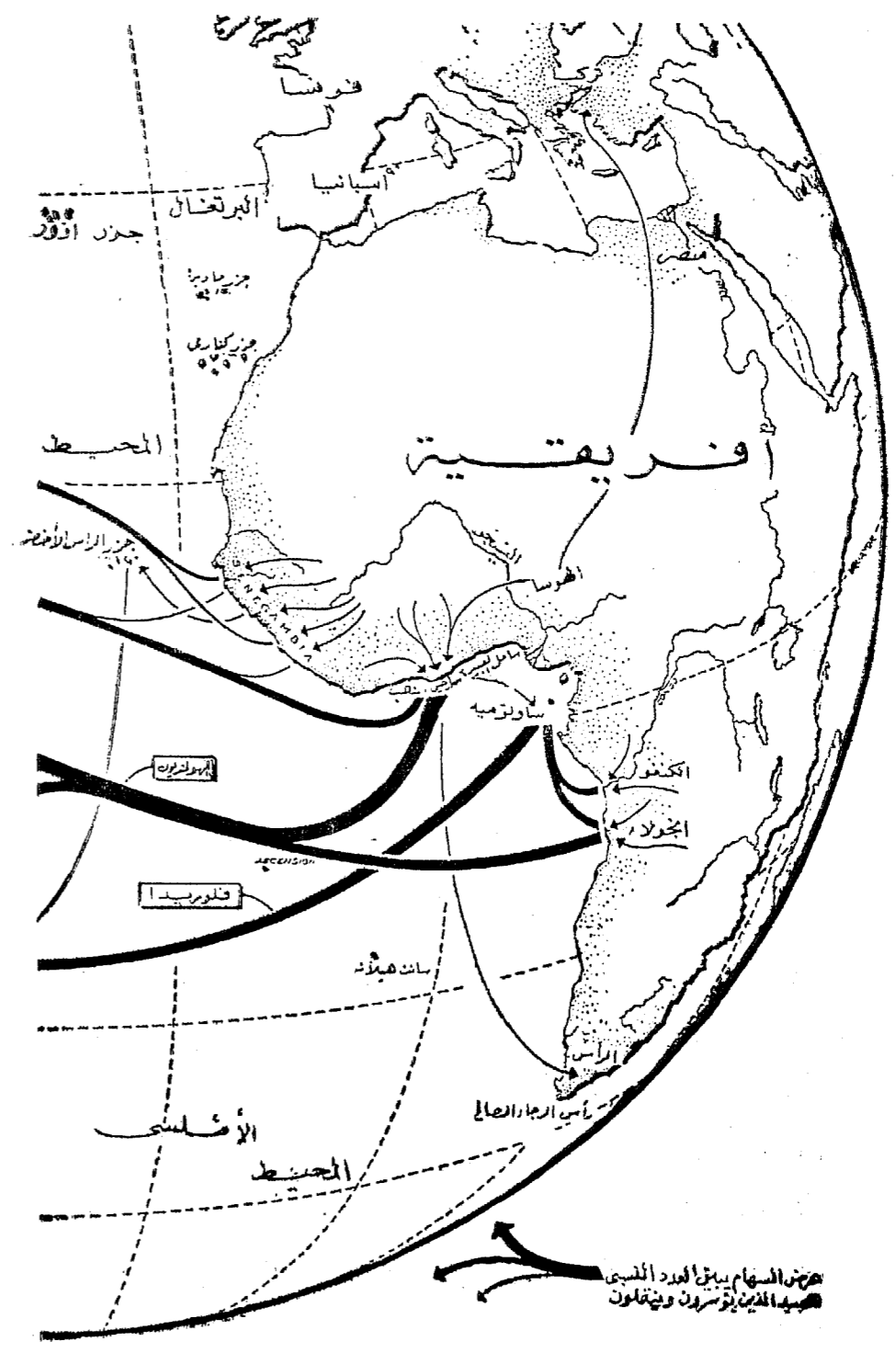
كان أصحاب السفن الخاصة من البريطانيين والفرنسيين قد عهد إليهم بصورة غير منتظمة ، ومنذ أواخر القرن السادس عشر ، بمزاولة تجارة الرقيق والهريب ، ولكن لم تكن لهم مستعمرات تابعة لبلادهم يستطيعون بها احتكار التجارة إلا بعد أن لحق الهولنديون بالسبق الذي حققه الإسبان والبرتغاليون . وعن طريق الحرب البحرية والتشريعات القيدة لتجارة المستعمرات ، فرضت إنجلترا وفرنسا سيطرة تجارية على الأقاليم التابعة لهما ، ثم اتزعا السيطرة على تجارة الشرق والمحيط الأطلسي بوجه عام . وإذ كانت إنجلترا أقل تدخلا في الشئون الأوروبية ، لهذا كانت أوفر حرية في التركيز على البحر ، وصارت لها اليد العليا بانتهاء العقد الأخير من القرن السابع عشر ، وانحازت عدة قبائل من الفانى المشتغلة بتسويق الرقيق والمقيمة على ساحل الذهب إلى الدخلاء الإنجليز طواعية ضد الهولنديين المستقرين هناك ، وأبرمت العقود مع الدول الزنجية من اليوروبا وداهومي التي كانت قد أخذت في الظهور وأطلق عليها جميعاً اسم ساحل العبيد . أما التجار البرتغاليون الذين ظلوا متمسكين بقدر كبير من التجارة بين أنجولا والبرازيل ، فكانوا يزودون السفن التابعة لحليفهم البريطانى القديم بالشحنات من العبيد .

وحصلت فرنسا على تلك الثروة المثلثة في الرقيق ، من الدول الرزجية المستقلة على ساحل العبيد ، وعلى امتداد سواحل مختلفة ( السنغال ، غمبيا ، جابون إلخ.) مما أهملته الشعوب الأخرى . وبعد إنشاء المزارع الكبيرة الغنية في هايتي لم يعد « العهد القديم » Ancien Régime في حاجة إلى أسواق الرقيق الأجنبية، أو إلى أرض جديدة لتنفيذ مشروعاته البحرية .

لم يشعر الأوروبيون بالكثير من وخز الضمير حول أخلاقية الاسترقاق . فلرغم من أن امتلاك البشر ملكية خاصة كان أمراً غير عادي للغاية في أوروبا في العصور الوسطى وعهد النهضة، إلا أنه يمثل خروجاً على القانون . فقد تقبل معظم علماء اللاهوت والمحامين والأشخاص المسؤولين دعوى تجار الرقيق بأن الإفريقيين أفضل حالاً في ظل الإشراف المسيحي أفضل حالاً منهم عند الوثنيين أو المسلمين من ملاك الرقيق . وقالت الحجة إنه طالما كان الرق شيئاً «طبيعياً» عند الإفريقيين فما على الأوروبي إلا أن يتأكد من أن العبد المشتري يستعبد بطريقة عادلة تتماشى مع القانون الإفريقي . غير أن هذا كان أمراً يصعب جداً تقيده ، والواضح أنه لم يكن في الإمكان الاطمئنان إلى أن العبد نفسه ينطق بالحقيقة ، إذ نادراً ما كان الأوروبيون يعرفون من الذي قام بعملية جلب العبيد ، بل ولم يقابلوا الأسرى ، وأقل من هذا كان مبلغ فهمهم للنواحي الدقيقة في قانون الاسترقاق التقليدي عند الإفريقيين . بطبيعة الحال ، كان الوسطاء أو الآسرون يدعون أن الاسترقاق له ما يبرره ، وغالباً ما كانوا يضيعون من نطاق القانون حتى يتسنى الحصول على مزيد من العبيد « بطريقة قانونية » . وكانت المنافسة بين الجماعات الإفريقية على الربح من تجارة العبيد ، عاملاً شجع على



تجارة الرقيق بأفريقية الغربية  
الطرق والحجم ، القرن السابع عشر



هذه الأسهم بين عدد السفن  
التي تبحر من أمريكا الشمالية  
وأمريكا الجنوبية

حدثت زيادة ملحوظة في الحروب وبخاصة الحروب المستميتة التي لامعنى لها ، إذ لم تعد الحرب تشن أصلاً لرفع ظلم أو اكتساب شرف ، كما لم يعد يحد منها الاتفاق المتبادل أو الشرائع الدينية . لقد تحولت الحرب في إفريقية من عملية محلية ، غالباً ما كانت وينده الطقوس ، إلى صراع مستميت من أجل غزو لامعنى له ، وللحصول على ثروة القبيلة وإنقاص عدد أفراد العدو في نهاية الأمر . لم يعد الشرف والنصر أهداف الحرب . وحتى في حالة الهزيمة في المعركة ، فإن القبيلة التي تستولى على أكبر عدد من الأسرى كانت تحقق أعظم الربح . وربما كان الأثر الناجم من هذه الثورة في الحروب أشد وقعاً على إفريقية الغربية ، حيث كانت طرق نقل العبيد وتطور التجارة قبل مجيء الأوربيين ، أشد تعقيداً ؛ ولكن الأثر كان عميقاً أيضاً في الكونغو وأنجولا بالنسبة إلى الفلاحين والرعاة الباتو الذين وصلوا حديثاً إلى هذين البلدين .

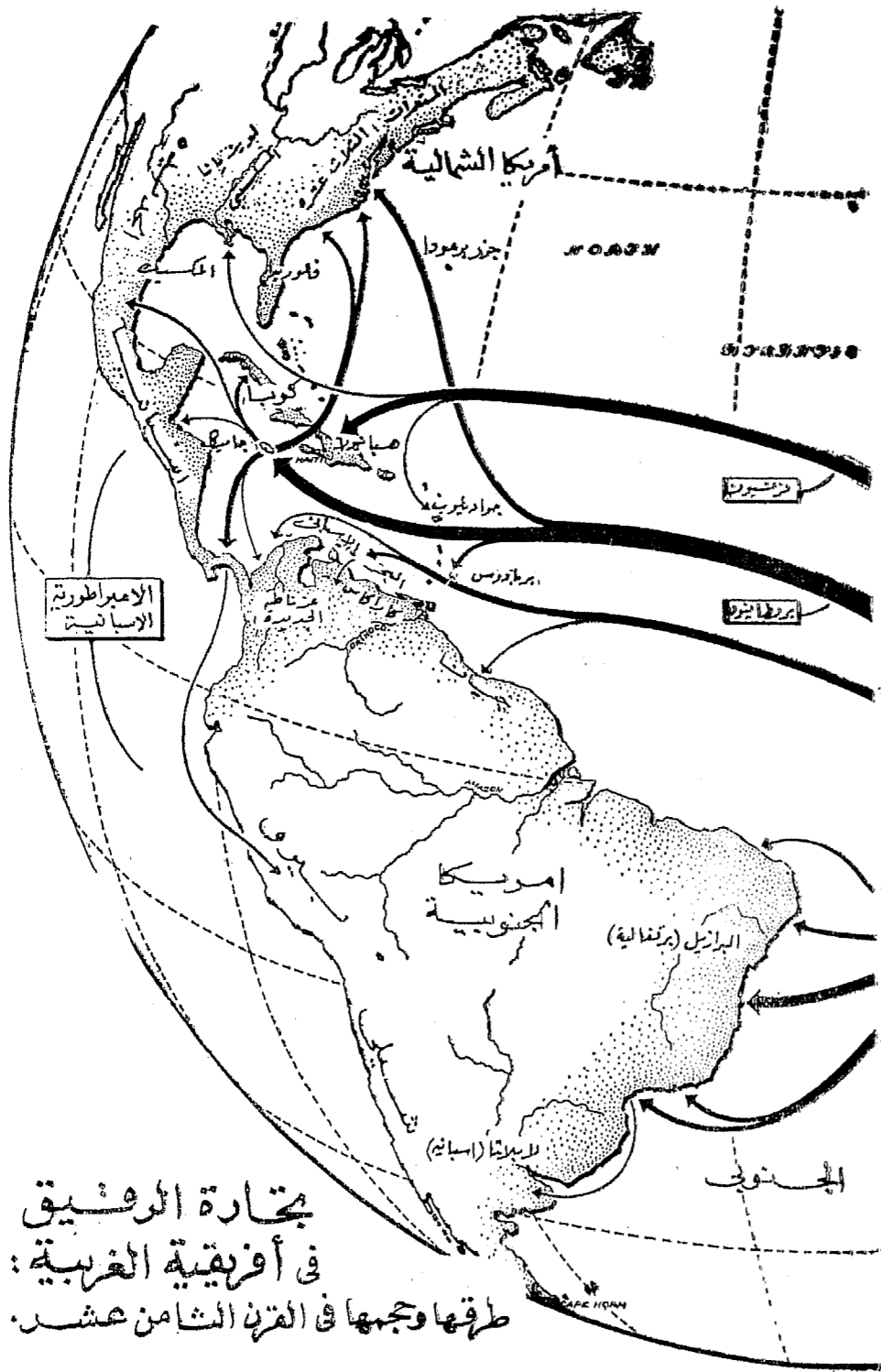
وإذا استثنينا عدداً قليلاً من الغارات في السنغال وغينيا خلال العقد الأول من القرن الخامس عشر ، فإن الأوربيين في شمال الكونغو لم يتدخلوا أبداً في اقتناص العبيد ، إذ كانت العمليات في هذه المنطقة — التي ربما ورد منها ما يتراوح بين ثلثي وثلاثة أرباع العبيد — تتم دائماً عن طريق الوسطاء الإفريقيين . وكانت تستخدم وسائل عدة في التبادل .

وفي منطقة السنغال وغينيا انتقلت المحطات الرسمية من الساحل إلى الجزر الغربية منه قبل نهاية القرن الخامس عشر ( جزر الراس الأخضر للبرتغال ، جوريه قرب داكار الحديثة ، فرنسا وبريطانيا ) . وعلى البر كان عدد قليل من الولدين الذين «أصبحوا من أبناء البلاد» وزعماء القبائل المقيمة على الساحل ،

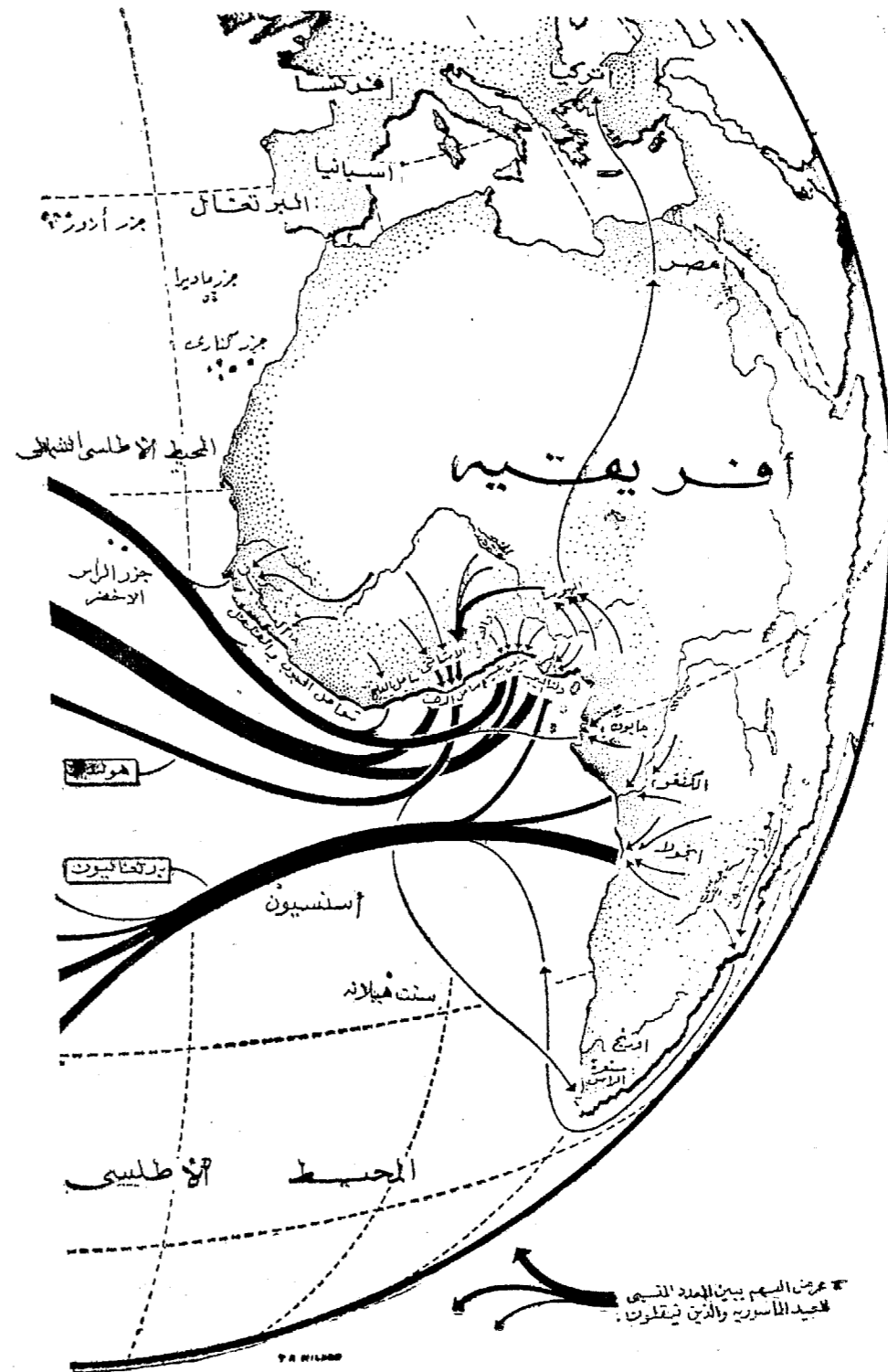


يأخذون أو يشترون الشحنات لحساب الأوربيين الذين يأتون على فترات متقطعة . وعلى طول شاطئ الحبوب والفلل ( ليبيريا الحديثة ) كانت التجارة تجرى من وقت لآخر بين قباطنة السفن الذين يأتون بصفتهم الفردية والقبائل المتفرقة هناك . وفي جميع هذه الحالات كان العبيد يؤسرون في الغارات أو الحروب في داخل مناطق تبعد حوالى ٥٠٠ ميل من الساحل ، وهى غالباً في فوتجالون أو بين قبائل الماندينجو ، وذلك قبل بيعهم إلى الوسطاء المقيمين عند الساحل .

وعلى طول ساحل الذهب، وإلى مسافة حوالى ١٥٠ ميلاً على كل من جانبي المحطة البرتغالية الأولى في إلينا ، أقام الأوربيون سلسلة من المستودعات التجارية ، يطلق عليها أسماء مختلفة من قبيل الحصون والمصانع والمحطات والمخازن أو المستعمرات . وفي جميع الحالات كانت هذه المحطات مراكز تجارية — لاتسلح إلا تسليحاً خفيفاً — وكانت كل منها تستأجر من القبيلة المحلية من جماعة الفانتى الذين ينتمون إلى زنوج الأجان ، وكانت المفاوضات بشأن المعاهدات أو العقود الخاصة بكل محطة تجرى بين الموظفين الذين يمثلون الأوربيين والفانتى ، بما يقرب من الإكراه الذى تلقاه فى أية علاقات ، فى ذلك الحين أو الآن ، بين دول ذات سيادة ولكنها غير متكافئة . وكان الاتفاق فى العادة ينص على تحالف عسكري بالتبادل ، وأداء إيجار المحطة على هيئة سلع أوروبية، واستئجار العدد اللازم من العمال للعمل فى أرضة الميناء مقابل أجر يدفع لهم ، واتفاق تجارى عام يتضمن العبيد . وأقامت البرتغال أربع محطات ( بما فيها إلينا ) بعد عام ١٤٨٢ ، ثم بنيت محطة خامسة على مسافة بضعة أميال فى الداخل ، كمحاولة لإحياء إنتاج الذهب حوالى سنة ١٦٢٣ ، ولكن ما إن



تجارة الرقيق  
في أفريقية الغربية:  
طرقها وجهتها في القرن الثامن عشر.



عرض السهم بين المدن التي  
لأعيد الأسرى والذين يفتلون.

حلت سنة ١٦٤٢ حتى كان الهولنديون قد استولوا عليها جميعاً . وحاولت البرتغال أيضاً إقامة محطة سادسة ولكنها تخلت عنها حوالى سنة ١٨٧٢ .

وأقام التجار الهولنديون أولى محطات عشر فى سنة ١٥٩٨، وظلوا بها حتى سنة ١٨٧٢ . وأعقبهم بريطانيا التى شيدت ثلاثة عشر حصناً فيما بين عامى ١٦٣١ ، ١٧٨٧ ، واتمى حكمها فى عام ١٩٥٧ . وبنيت السويد محطة فى ١٦٣٢ ، وأخرى قبل طردها فى ١٦٥٧ على أيدى الدنمرك التى أضافت خمس محطات أخرى ، ظل بعضها قائماً حتى عام ١٨٥٠ . وبعد عام ١٦٨٥ أقامت بروسيا براندنبرج ثلاث محطات ثم تخلت عنها بعد ذلك بأربع عشرة سنة . وحاولت فرنسا إنشاء محطة حوالى سنة ١٦٨٨ ، ولكنها نبذتها عندما رفض المشترون منها قبول عبيد ساحل الذهب . وآخر محطة أنشأها إحدى قبائل الفانتى فى سنة ١٧٩٨ ولكنها أخفقت بسبب الحروب النابوليونية، والحظر الذى فرضته بريطانيا فى العقد التالى على تجارة الرقيق . ولقد تم تداول معظم هذه المحطات من يد لأخرى عدة مرات ، بفعل الغزو أو الشراء أو التبادل . وحوالى سنة ١٨٠٠ كانت الحصون التى يجرى استخدامها هى أحد عشر لهولندة ، ثمانية لبريطانيا ، خمسة للدنمرك ، وحصن واحد للفانتى . وبحلول عام ١٨٧٢ كان لبريطانيا وهولندة ١٢ ، ٨ مخازن تجارية عاملة ، على التوالي .

وغالباً ما كان توريد الحصص المقررة لمحطات ساحل الذهب ، سبباً فى عمليات متشابكة ومنافسة حادة . وكثرت الحروب بين الزوج من حلفاء المحطات المتنافسة . وكان الفانتى الذين يحصلون على العبيد إما بطريق الحرب مباشرة

أو بالاتجار مع الأشانتي ، هم الذين يوردون العبيد بانتظام إلى كل دولة أوروبية على ساحل الذهب باستثناء هولندا ، إذ كان تجار الأخريرة في العادة يشترون العبيد مباشرة من الأشانتي ، حيث كان بين الهولنديين وخدمهم والأشانتي اتفاق تجارى بالرغم من أنهم كانوا يضطرون غالباً إلى الاعتماد على الفانتي . وكان الأشانتي بدورهم يحصلون على أسراهم إما بالحروب أو عن طريق التجارة مع قبائل الساقانا المجاورة والمقيمة بعيداً عن الشمال ، وفي السنوات للأخرة ربما كانوا أيضاً يشترون عدداً قليلاً من صغار الجرمن والمسجونين الباتو من التجار الهوسا الذين يعبرون إلى الداخل .

وكانت بلاد الأشانتي بوصفها مخزن معظم التجارة التي تصل إلى ساحل الذهب من إفريقية الغربية كلها ، في مركز له مزاياه وخطورته في الوقت نفسه . فمن جهة نجد أن الحروب المتكررة بقصد أسر العبيد ، والدفاع المتكرر ضد الغارات التي يشنها الفانتي من جهة أخرى ، كل هذا شجع على تقدم فن الحرب ، كما أن التجارة مع الساقانا وتوفير الحماية منها كانا يتوقفان على تنظيم يمكن الاطمئنان إليه ، للتجارة والحكم . وقبل انتهاء القرن السابع عشر كان الأشانتي قد تحولوا من شعب زراعي مسلم إلى حلف عسكري اتسع نطاقه بالفتوح أولاً ، ثم بالتهديد والإغراء . وفي حوالي عام ١٧٠١ تكون اتحاد من الحلفاء الأشانتي ، تطور إلى شعب متماسك تحت زعامة أوكومبو أنوكي كبير كهنة وزعيم قبيلة كوماسي الأشانتي . وتزعم الأسطورة أنه في أثناء اجتماع سرى هام ضد أعضاء الحلف ، تلقى أنوكي من السماء كرسياً مذهباً كانت تتجسد فيه روح القبائل المتحالفة ، وهنا أصبح الكوماشين (زعيم كوماسي) ملكاً على الأشانتي .

وتمحلت بالتدريج المنازعات بين الفاتى إلى تعاون ضد مملكة أشانتى التى كانت تسيطر على الظهير binteriandry ، غير أن الأخيرة استطاعت المحافظة على مركز منيع تقريباً نظراً لأن قبائل السافانا كانت تعتمد عليها اعتماداً كلياً من أجل الحصول على الملح والعدد، وغيرها من منتجات الأوربيين التى كانت أشانتى بدورها تحصل عليها من الفاتى . واشتد الطلب على العبيد من جانب أمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر، وبذلك اشترى الأشانتى مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة من التجار الأوربيين . وسهلت الأسلحة الجديدة الفتوح التى ضمنت عدد العبيد الآتين من الداخل . وتبين السجلات الخاصة بالعبيد ارتفاعاً ملحوظاً فى عدد الأسرى من المناطق الداخلية، والذين كانوا يضمون فى نهاية الأمر - بعد عام ١٨٠٠ - الكثيرين من النول الإسلامية مثل الهوسا . وبعد عام ١٨٠٣ حاولت جيوش الأشانتى طرد الفاتى من الساحل الكى يحملوا اتصالمهم مباشراً بالأوربيين ، وأحرزوا بعض النجاح بالنسبة إلى الهولنديين ممن كان لهم قبل ذلك اتصال مباشر بالأشانتى ، ولكن البريطانيين دافعوا عن الفاتى ، وقادوا المحطات الأوربية الأخرى فى حمل الغزاة على الارتداد .

وإلى الشرق من الفاتى كانت التجارة قائمة مع شعب « جا » الذى تحرك صوب الساحل من أجل الاتصال بالمحطات البرتغالية التى تقع فى أبعد المناطق بالشرق . ولم يتجمع المستوطنون من شعب الجا حول أكر قبل اتصاف القرن السابع عشر ، ولم يتمكنوا أبداً من إنشاء اتصالات هامة مع الداخل ، وهى الاتصالات التى ميزت تجارة العبيد والملح بين الأشانتى والفاتى ، وهذا هو بعض السبب الذى من أجله أختق الدنمركيون الذين كانت معظم حصونهم

في بلاد الجا شرقى أكرا ، في الحصول على مورد منتظم من العبيد كما كان الحال بالنسبة إلى البريطانيين والهولنديين الذين كانوا يتاجرون عن طريق البقائى .

وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشرق ، أسهمت تجارة البرتغاليين مع بنين في إفساد صناعة البرونز الشهيرة عند بنين وآيف ، ولكنها استوردت الأسلحة النارية التي سمحت لبنين بإنشاء إمبراطورية كبيرة تمتد من لاجوس إلى دلتا النيجر . وتضائل اهتمام البرتغال بعد أن استبعدت بنين وباعت معظم الشعوب التي غزتهم ؛ وتدهورت بنين في القرن السادس عشر فأضاعت ما كان لديها من الفنون والرخاء والتنظيم الحكومى الفعال ، وتحولت إلى عمليات إجتباطية من سفك الدماء ، وحكم عسكري متقلب وخراب اقتصادى ، ولم يعد من مصلحة الأوربيين المخاطرة وسط الفوضى السائدة ، كما أصبح العبيد ضحايا نظام جديد وهو تقديم الضحايا في الطقوس الدينية ، والتنجيد الرمزي للشهرة العسكرية ، والسياسة القائمة على القتل والشراسة التي لا حد لها التي كانت موضع التشجيع . واضطرت القبائل المجاورة إلى الاتحاد من أجل الدفاع عن النفس وإلا هلكت .

ووراء بنين وعلى مقربة من إيبادان الحديثة في نيجيريا ، قامت دولة اليوروبا في أويو التي ازدهر فيها ، في عصر مبكر ، فن نحت الحجارة وصناعة الحديد ثم أشغال البرونز ، منذ حوالى ألف سنة خلت . ربما أدخل الهوسا بعض الأفكار المتقدمة عن الحكم . وكانت آيف المركز المبكر وظلت المركز الدينى بعد أن انتقل الزعيم ( الأفين ) إلى أويو . وزادت أهمية التنظيم والدفاع

عندما اشتد ضغط سنغاي. والإسلام من ناحية الشمال ، ثم من ناحية بنين من الجنوب ، وهذا ما جعل التنظيم العسكري لازماً بحلول نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح من العادة إرسال جيش ضد أحد الجيران في كل عام ، من أجل إحراز المجد واقتضاء الجزية والحصول على العبيد . وأنشئت مستعمرات لليوزوبيا في الأقاليم المفتوحة ، وبهذا خلقت كتلة ثقافية حول أوبو وآيف ، نتيجة امتزاج القبائل بعضها ببعض ، وحولت الدول البعيدة مثل داهومي في الغرب إلى دول حاضرة تؤدي الجزية ، ولا شك أنها تعلمت الكثير عن التنظيم ، ووصل الألافين ذروة قوته في القرن الثامن عشر ، أي بعد أن بدأ تجار الرقيق الأوروبيون في ساحل الذهب البحث عن موارد إضافية للعبيد . وكان الألافين يتاجر معهم في حرية عن طريق لاجوس ، وهي دولة تابعة له اقتطعت من بنين الآخذة في الاضمحلال ، ولكنه نادراً ما سمح للأوروبيين بإقامة محطات دائمة .

وإذا استثنينا بعض الفترات البرتغالية المبكرة ، فإن أول اتصالات للأوروبيين شرقي ساحل الذهب ، حدثت حوالي نهاية القرن السابع عشر . وظهر أن موقفاً ليس مختلفاً عما كان في ساحل الذهب قد أخذ في النشوء ، ويمثل في قيام سلسلة من الدول الصغيرة على امتداد الساحل . وبخاصة دولة هويداه ، وهي دولة كانت راغبة تماماً في تأجير المحطات ، وفتح طريق جلب الرقيق من الداخل . كان وجه الاختلاف أن الدولة القائمة في الداخل ، على خلاف الأشانتى الأوائل ، كانت الآن منظمة تنظيماً طيباً إلى حد ما . هذه الدولة ، وهي داهومي التي تدرت على أيدي اليوروبا ، بدأت على الفور في الغزو وأسر العبيد وفي مزاولة التجارة على نطاق واسع بدرجة يمكن الاعتماد

عليها ، مما كان يبعث سرور الأوربيين . وأدرك ملك داهومي أنه يجنى ربحاً خاصاً إذا ما سيطر على المنطقة الساحلية ، ونجح — بخلاف الأشتاتي — في غزو الساحل . ثم عقد فيما بين عامي ١٧٣٤ ، ١٧٣٩ ، إلى تنصيب ولاية من قبله على الدول الوسيطة الصغيرة ، والتي جميع الماهدات . كان في استطاعته باستمرار أن يورد العبيد المتوازن دائماً ، وبسرعة وعلى نحو يمكن الاعتماد عليه ، وهكذا استمرت التجارة ، ولسكن الداهوميين قاموا بإدارة المحطات بأنفسهم — فكان الأوربيون يأتون إلى الشاطئ ، كتجار صرف وتحت موافقة داهومي . كانت أجومي ، العاصمة القائمة في الداخل ، هي التي تحدد الثمن ، ولكن هذا الترتيب وفر على الأوربيين الكثير من المال والرجال إذ لم تكن هناك أعباء إدارية يضطلمون بها .

وسيطر الملك على الاقتصاد مباشرة ، مما مكنه أن يصبح حاكماً مطلقاً يعتمد في إدارة البلاد وجمع الضرائب على بيروقراطية غالباً ما كان يخصى أفرادها حتى يحول دون قيام أية مصالح قد تقف في وجه إرادته الملكية . وكان كل موظف ، بما في ذلك الملك ، خاضعاً من الناحية النظرية للملكة الأم التي كان مفروضاً فيها أنها تمثل الضمير الناصح وإن لم تملك السلطة التنفيذية ، وامتدت صورة معقدة من هذه السياسة التطبيقية إلى الجيش . غير أنه لأغراض الغارات بقصد جلب الرقيق والاشتبكات الحربية الكبرى ، فضل الداهوميون استخدام فرقة منتقاة من « النساء المحاربات » كلهن من العذارى ، ولا يخضعن لأحد ؛ على خلاف الحال بالنسبة إلى الرجال . هذه الإدارة المستنبذة التي تتولى الحصول على العبيد ، كانت من الناحية الفنية دولة تابعة إلى الأفين أويو الذي أثبت أنه لا يمكن أن يهزم ، ولكن الأمازونات اتجنن



غرباً لمقابلة الأشماني حيث خطت الحدود بين الجانبين في عام ١٧٥٠ .  
وتكررت الثورات من قبل دول الساحل مثل هويداه وعدرا الصغيرة وبوربو ،  
ولكنها ثورات كانت تنتهي باستبعاد القائمين بها . ولكن داهومي لم تتمكن  
أبداً من إقامة علاقات تجارية مع الدول الإسلامية على طول النيجر أو غزوها ،  
ولهذا كان مورد الرقيق أقل من الشبكة التجارية الواسعة التي أنشأها الأشاشي  
على ساحل الذهب .

وفي دلتا النيجر ، جنوب شرق ساحل العبيد لم تكن هناك دول قوية  
للتعامل معها . وكان العبيد الواقدون من هذه المنطقة يباعون بأثمان منخفضة ،  
إذ المرجح أنهم كانوا أقل من غيرهم دراية بأية مهارة فيما عدا الزراعة . لم يكن  
صغار ملاك العبيد يرغبون في اقتنائهم ، ولكنهم كانوا ضالحين للعمل في  
المزارع الكبيرة بالبرازيل ، وفي حزام القطن الأمريكي . وبعد اختراع حلج  
القطن في نهاية القرن الثامن عشر زاد إنتاج القطن بسرعة . وكان قباطة السفن  
قد بدأوا يكتشفون في أوائل القرن ، أن في الإمكان اجتناء الأرياح حتى عن  
طريق نقل عبيد دلتا النيجر الأرخص ثمناً وأقل مهارة ، ممن عظم الطلب عليهم  
الآن . كانت تجارة الدلتا تنطوي على أداء رسم صغير لكل من مئات الزجاء  
ذوي السيادة ، يعقبه شراء عدد قليل من العبيد الذين سبق أسرهم في الحروب  
المحلية المتوطنة في هذا الإقليم . وبعد ذلك تسير السفينة بضعة أميال في اتجاه  
أعلى النهر ، وتبدأ مفاوضات جديدة وتجارة من جديد . وقد تكون السفينة  
التي تم الحصول عليها ، في بعض الحالات ، عبارة عن السجناء الذين أسرهم  
الجانبان المتعاربان في اشتباك وقع بينهما حديثاً ، أو قد تكون جماعة من الرجال  
اشترهم زعيم محلي أو أسرهم بينما السفينة تنتظر موعد الإبحار . ونظراً لعدم

وجود مخازن أو محطات في العادة ، ونظراً لعدم وجود مهابديات منتظمة ، أو اتفاقات دائمة في الغالب ، لذلك درج تجار الرقيق على شراء بعض العبيد ، وشحنهم على دفعات صغيرة إلى أن يتم امتلاء السفينة . وغالباً ما كانت الأحوال الصحية رديئة تماماً حتى قيل أن تفلح السفينة ، هذا الموقف بالإضافة إلى عدم توافر التفتيش قبل الإبحار وهو ما كانت تشترطه داهومي ، كان معناه أن العبيد الذين يصلون إلى أمريكا كانوا أقل سلامة من الناحية الصحية ونفعاً من عبيد القرون السابقة .

وفي خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، حين أصبحت هاتي سوقاً لا تشبع ، زاول التجار الفرنسيون نشاطهم على سواحل جابون ، مستخدمين نفس الأساليب ، ووجدوا شحنة العبيد من البانتو شبيهة بما وجده أصحاب السفن الخاصة ، البريطانيون والبرتغاليون ، في دلتا النيجر . وظلت البرتغال تستغل مملكة الكونغو على أساس غير رسمي ولكنه مجز ، مثلما كانت تفعل في الأيام الأخيرة لتجربة المانسيكونغو . ومن المرجح أن التجارة من أنجولا والتي كانت تخضع رسمياً للاشراف ، كانت المصدر الذي يزود عدداً من العبيد أكبر مما كان يأتي من أي جزء آخر فيما عدا ساحل الذهب ، ولكن الأسلوب المتبع كان مباشراً وبسيطاً على صورة أكثر مما كان في أي مكان آخر . وكان الكشافون البرتغاليون من المولدين ، وكذلك زعماء البانتو ممن استخدمت معهم أساليب القهر أو الخداع ، يقلمون سبلاً منتظماً من المجرمين الحقيقيين أو المفتعلين ، ومن أمرى الحرب والهاربين ممن كانوا يباعون بلا قيد لكل من يأتي في طلبهم ، لا فرق بين هولنديين وبريطانيين وفرنسيين أو برتغاليين . وكانت أعظم نسبة من أهل أنجولا تتوجه إلى البرازيل . ولكنهم كانوا يوزعون

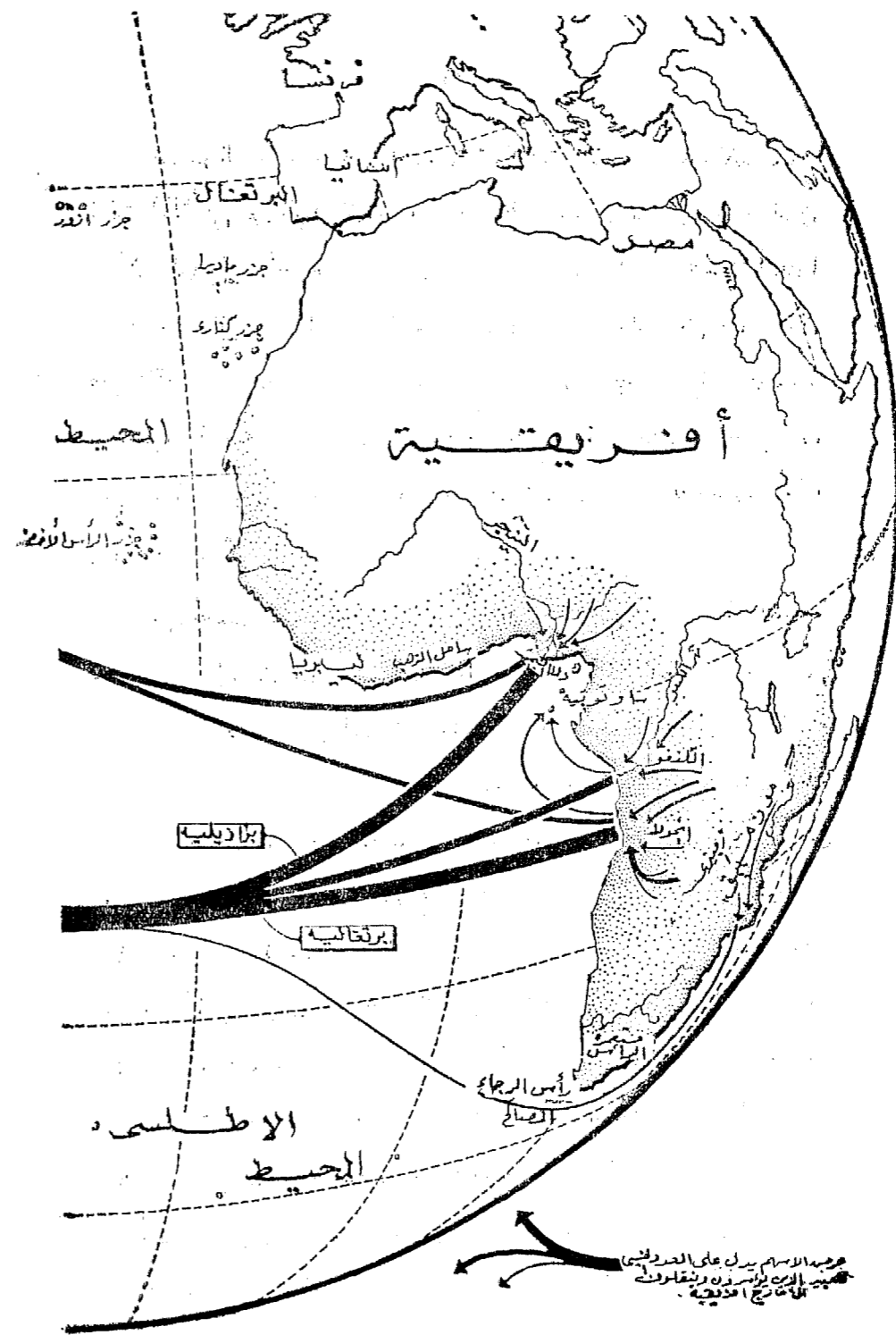
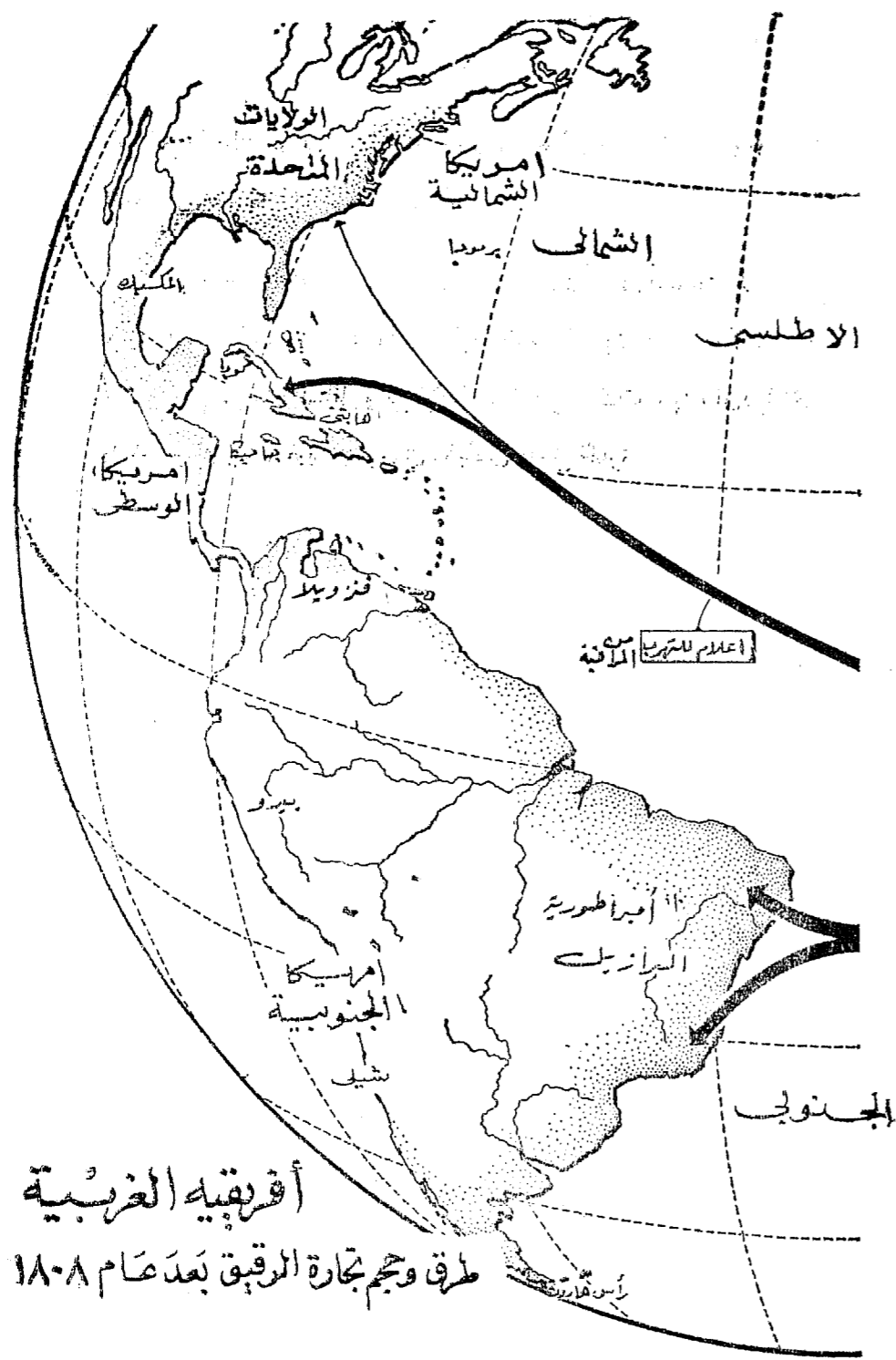
بسبب على جميع المناطق التي تستخدم العبيد في العالم الجديد . وتوغلت التجارة البرتغالية في نهاية الأمر إلى مسافة في الداخل تبعد ٣٠٠ ميل عن الساحل ، وتشمل معظم أنجولا الحديثة ، وجزءاً كبيراً من حوض الكونغو الأدنى .

نست هناك إحصائيات يمكن الاطمئنان إليها في معرفة عدد الأفريقيين الذين جرى بهم إلى أمريكا . إن التقديرات تتراوح بين ٣,٠٠٠,٠٠٠ وأكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ، وربما أسهمت الحركة المصادرة للرق في حدوث هذا الاضطراب لأن التقديرات ظلت تتضخم لكي تحت حركة الإلغاء خلال القرن التاسع عشر . ولقد ضاع أو دمر الكثير من السجلات التجارية ، ولكن بقي منها ما يكفي لأن نعرف على الأقل نسبة العبيد الذين كانوا يموتون خلال الرحلة الشاقة عبر المحيط ، وهي حوالي ١٢ في المائة في السفن الفرنسية ، مقابل ١٧ في المائة في السفن الهولندية والبريطانية ، وبلغت الخسائر البرتغالية في القرون الأولى حوالي ١٥ في المائة ، ولكن لما أرغم الضغط من أجل إلغاء الرق ، التجار على الغامرة ، ارتفعت نسبة الضحايا إلى ٢٥ أو ٣٠ في المائة .

وفي عام ١٨٦٠ حين انتهى معظم تجار الرقيق ، كان في أمريكا الشمالية والجنوبية ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص من أصل إفريقي . وفي المناطق التي توجد بها إحصائيات عن السكان ترجع إلى أوائل القرن ، يظهر أن نسبة تتراوح بين ثلث ونصف هذا العدد مصدرها التكاثر الطبيعي . إن عدد الذين وفدوا من إفريقية لا بد أن كان بين ٣,٥٠٠,٠٠٠ ، و٥ مليون . فإذا أضفنا عدد من كانوا يموتون في الطريق . لبدأ أنه ما بين ٤ ، و٦ مليون نقلوا من إفريقية فيما بين عام ١٤٤١ ونهاية عصر الرق ؛ عبر الأطلسي في العائينات من القرن التاسع عشر .

وبيع حوالي ٥٠٠,٠٠٠ و ٥٠٠,٠٠٠ في المستعمرات الثلاث عشرة . نصفهم قضى بعض الوقت أولاً في جزر الهند الغربية التي وصل إليها ما يقرب من ١,٥ - ٢ مليون ولكن البلد الذي أصبح يعرف باسم الولايات المتحدة، وكذلك الإسبان أعادوا شراء حوالي ثلث هذا العدد، ولا بد أن البرازيل قد حصلت على ١,٥ مليون على الأقل ، لكن العدد لا يزيد على ٣ ملايين . بينما أوروبا وساو توميه وجنوب إفريقية وغيرها من المحلات المتفرقة كان نصيبها يتراوح بين ربع ونصف المليون . وهذا أيضاً يدل على أن ٣,٥ - ٥,٥ مليون وصلوا إلى الأسواق الأجنبية .

بل وأصعب من هذا أن نعرف من أية أجزاء من أفريقية جاء العبيد ، وهذا راجع إلى أن تجار الرقيق نادراً ما وجهوا مثل هذا السؤال ، ولكن السجلات الرئيسية دمرتها الشركات والحكومات التي يمسها الأمر . ربما جاء ثلثا العبيد من ساحل الذهب وأنجولا بالتساوي ، ولكن هناك مناطق عدة كانت لها فترات اشتهرت فيها بتوريد العبيد، مثل الكونغو في القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وساحل العبيد في القرن الثامن عشر، ودلتا النيجر في التاسع عشر . وثمة جهات كانت توردهم على فترات متباعدة أو بأعداد صغيرة على فترة طويلة . وسيطرت البرتغال على تجارة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهولندا على التجارة خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر ، وبريطانيا في السنوات ١٦٧٢ - ١٨٠٨ ، وبعد ذلك كانت الغلبة لسفن الولايات المتحدة والبرازيل وإسبانيا وفرنسا . ومن الواضح أن عدد العبيد كان يتفاوت تفاوتاً بالغاً من قرن إلى آخر ، ولكن إذا نظرنا إلى المجموع الكلي وجدنا أن بريطانيا والبرتغال كانت كل منهما تنقل حوالي ٣٢ أو ٣٣ في المائة من الشحنة .



والأراضي الواطنة حوالي ١٨ في المائة ، وفرنسا حوالي ١٢ في المائة ، والولايات المتحدة ( بعد ١٧٨٣ ) حوالي ٥ في المائة .

وبنهاية القرن الثامن عشر ارتفعت في كل بلد أوربي أصوات الاحتجاج ضد المساوىء والشكوك المتعلقة بأخلاقية الاسترقاق البشرى — وترتب على الأثر الناجم من هذه المسائل وعن الإصلاحات التي تولدت عنها ، أن نشأ اتجاه جديد نحو إفريقية وتغيير جذرى في الحياة في داخل القارة .

## ورطة العداوة

كان الأوروبيون قبل القرن الثامن عشر ، يعتقدون أنه ينبغي الحكم على عادات الإفريقيين وفق المستويات السائدة عندهم . لقد كان الرق منقشاً بين الشعوب الإفريقية منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم يشعر الأوروبيون الذين اتجروا بالعبيد إلا أن عليهم التزاماً بأن يقيموا القانون الإفريقي ، وأن يفتشوا المسيحية حينما يقيس لهم هذا . لم يكن الإنجيل برنامجاً أو مستوى للعمل الاجتماعي ، ولكنه رسالة اخلاص من هذا العالم . ولذلك خلال القرون الثلاثة الأولى من التوسع فيما وراء البحار لم يظهر سوى قدر يسير من الغضب الشعبي في أوروبا . أجل ، فباستثناء تجار الرقيق وملاك المبيد لم يشهد أوروبا أبداً كفيلاً زنجياً أو فهم ما ينطوي عليه الاسترقاق من معنى بالنسبة إلى الإفريقيين الذين تعرضوا له .

غير أن معارضة الرق كانت موجودة دائماً ، ولقد تكرر الاحتجاج من جانب بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية في البرتغال ضد النظام خلال فترة السنوات الأربعين والخمسين التي شهدت مزاوله هذه التجارة . ومن وقت لآخر في إنجلترا وغيرها من البلاد ارتفعت أصوات شجاعة أشربت نفوس أصحابها بالروح الإنسانية ، ولكن من الذين استمعوا إليها لم يفهم إلا القليلون المشكلة التي هاجمتها تلك الأعنوت ..

حاول كل بلد أوروبي أن ينظم التجارة أو أن يضمن مزاواتها « بطريقة عادلة ». فكان المفروض أن جميع العبيد يؤخذون طبقاً للقانون الإفريقي السائد - أى في حرب « عادلة » أو بوصفهم مجرمين ثبتت إدانتهن - وكان لابد من شرائهم بطريقة مشروعة . وبالرغم من ميل الزعماء الإفريقيين إلى توسيع قائمة « الجرائم » وشن حروب لا ضرورة إليها بقصد الحصول على العبيد ، لم تكن لدى الأوربيين وسيلة فعالة يميزون بها بين من استرقوا بصورة عادلة ومن استرقوا بطريقة تتنافى مع العدالة . كانوا يعتبرون من الخطأ الاستيلاء على بلاد إنسان آخر أو فرض المستويات الثقافية والقانونية الأوربية على المجتمعات الأخرى . وبهذا كان في الإمكان عقد معاهدات مع القبائل الصديقة ، تضمن لها الحماية من الاسترقاق ، وتتضمن الوعد بشراء العبيد الذين تحصل عليهم هذه القبائل بطريق الحرب أو التجارة من جيرانها .

بطبيعة الحال ، أسهم هذا الاتجاه إسهاماً مباشراً في تنمية التجارة إذ ظن الأوربيون أنهم يسدون خدمة للأفريقيين - فضلاً عن أنفسهم - بشراء العبيد ، إذ يكون السادة المسيحيون أكثر عدلاً من الملاك الوثنيين ، والعبد الذي يتحول إلى المسيحية يضمن الحرية والمساواة الكاملتين في الحياة الآخرة ، كما يتعلم الإفريقيون القيمة المعنوية للعمل بينما يسهمون في تحقيق رخاء العالم المسيحي .

وكانت إسبانيا هي وحدها من بين الدول المسيحية ، التي اعتبرت تجارة الرقيق غير قانونية ، فلم تسمح أبداً لسفنها بالاشتغال بها ، وفنذت الأمر الخاص بهذا الشأن بشدة ( وإن كان هناك استثناءان ، أحدهما استعباد كريستوف كولمبس



للهنود، وهو ما خوكم وسجن من أجله في عام ١٥٠٠، والآخر هو المهزبون في القرن التاسع عشر، وكانت البحرية الإسبانية أضعف من أن توقف نشاطهم) : ومع هذا، فقد سمح بتملك العبيد - بل ولقى التشجيع - على أساس أن فيه فائدة لكل من الإفريقيين والإسبان، ولكن السفن البرتغالية والهولندية هي التي كانت تقوم فعلاً بنقل العبيد من إفريقية .

كانت محاولة أوروبا احترام وتقبل العادات الإفريقية نبيلة من الناحية النظرية ولكنها خطيرة من الناحية العملية لأنها خدمت الاقتصاد الأوربي أكثر مما خدمت الاقتصاد الإفريقي . لم يكن من التقاليد الإفريقية استرقاق الشخص بصفة دائمة، أو اعتبار العبيد ملكية خاصة غير مقيدة، أو جعلهم عنصراً أولياً في تجارة الجملة . ولم يكن من عادة الأوروبيين تملك الآدميين أو استعمالهم من أجل اجتناء الربح الخاص، ولكن جرت التقاليد بأن تكون لملاك العبيد حرية كاملة في استعمال مقتنياتهم أو التصرف فيها . وفي هذه الحالة اندرجت عادة الرق الإفريقية في المذهب الأوروبي عن حقوق الملكية المطلقة، وهذا الاندماج بين نظامين تقليديين ولد الاضطراب والتشويشات والخطر الناشئ عن سوء الاستعمال أو الانحراف .

وزادت الهجمات على نظام العبودية في أثناء القرن الثامن عشر لأن كتاب « التنوير » من أمثال جون لوك وفولتير وجان جاك روسو كانوا جميعاً يدعون أنه لا وجود لغير قانون عالمي واحد . فابتدأنا مع الأخلاق في مكان ما هو خطأ في كل مكان، لأن جميع الناس يخضعون « لحكم » العقل ويمتلكون نفس الحقوق الطبيعية . وانتشرت على نطاق واسع الروايات عن الأحوال

التي كان يعيش فيها العبيد ، وذلك في الصحف الشعبية الحديثة النشأة . وجاءت حركات اليقظة الدينية وبخاصة الحركات الجباهيرية مثل مولد الميثودية في إنجلترا - فوضعت التأكيد على الجانب الإنساني . وإذ عجز تجار الرقيق وملاكه عن أن يقنعوا أحداً بحججهم القديمة اضطروا بصورة متزايدة إلى تأكيد حقوق الملكية والضرورة التجارية وحماية الاستثمار . وكلما زاد تكرار الحاجة للمادية زادت قوة رد الفعل الإنساني النزعة .

وكانت جمعية الأصدقاء في عام ١٧٢٧ أول من استنكر الرق ، وبدأ الكويكرز في كل من إنجلترا وبنسلفانيا يحرون من لديهم من الزوج . وأثرت حركة جون ويزلي الميثودية التي كانت تضع التأكيد على الأخلاقية الشخصية ، في وليم ويلبرفورس، وهو سياسي بريطاني كان على دراية بالتنكير السائد في عهد التنوير . وفي عام ١٧٦٥ ظهرت في إنجلترا جمعية معادات الرق بزعامته وعملت على إقناع البرلمان بأن من الخطأ تملك أي فرد من أبناء البشر في أي مكان بالعالم . وعندما أقيمت الجمعية في عام ١٧٧٢ كبير القضاة مانسفيلد بأن القانون العام يضمن الحرية لجميع الناس أصبحت إنجلترا أول بلد يلغى الرق . واقتصرت النتيجة المباشرة على أن أصحاب المزارع في جزر الهند الغربية امتنعوا عن الإتيان بالعبيد الشخصيين إلى إنجلترا ، ولما كان القرار لا يسرى خارج الجزر البريطانية كان لابد من إقناع البرلمان بأن هناك مستوى أخلاقياً متجانساً حتى داخل الإمبراطورية البريطانية .

وأخيراً حرم القانون الصادر في عام ١٨٠٧ الاتجار بالرقيق في المياه البريطانية وتصديرهم إلى جميع المستعمرات البريطانية أو استيرادهم منها . وكانت البحرية

للملكية مسئولة عن مراقبة السفن البريطانية ولكن الحروب التي شنت ضد نابليون حالت دون تطبيق القانون بصورة منتظمة طيلة سنوات عدة. وواصلت الكثير من سفن الرقيق البريطانية أعمالها - كما كان حالها من قبل - وملاحوها بريطانيون وتدعى الحصانة إذا تحدتها داورية بحرية . ومن أجل وقف هذا التهرب تحت ستار العلم البريطانى، يرجع بعض السبب الذى دعا السفن البريطانية إلى بدء تفتيش السفن الأمريكية . لم تكن هناك بطبيعة الحال طريقة مؤكدة لمعرفة ما إذا « كانت السفينة الأمريكية » سفينة تجارية مشروعة أو سفينة تراول تجارة الرق ويتولاها بعض الإنجليز من الخارجين على القانون . وكانت توقف كثير من السفن المشروعة وذلك أثناء البحث عن تجار الرقيق أو لأسباب أخرى . واحتجت أمريكا وأعقب ذلك نشوب الحرب فى عام ١٨١٢ . ( كان دستور الولايات المتحدة المكتوب فى عام ١٧٨٧ يطالب السفن الأمريكية بالامتناع عن مزاوله تجارة الرقيق بعد عام ١٨٠٨ ولكن هذه المادة لم تطبق إلا بعد الحرب الأهلية ) .

بل وزاد من مضايقة البريطانيين وجود ثفرتين ينفذ منهما تجار الرقيق ، الأولى أنه بمجرد وصول العبيد إلى المستعمرات البريطانية يصبح مركزهم قانونياً تماماً ، والثانية استمرار قانونية مركز تجار الرق الأجانب . كانت الوسيلة الوحيدة لمنع التهريب هى إلغاء الإغراء ، ولهذا حرر البرلمان فى عام ١٨٣٤ جميع العبيد فى الإمبراطورية ولكن - بسبب استمرار نظرتة المحافظة إلى الملكية - خصص ٢٠ مليون جنيه لتعويض ملاكهم السابقين . ومن بين الدول الأجنبية كانت للبرتغال أعظم مصلحة فى الرق . فبعد عام ١٨١٥ وافقت على عدم مزاوله هذه

التجارة شمال خط الاستواء ولكنها خرقت الاتفاق لكي تشتري العبيد علفاني  
 دلنا النيجر وتبيعهم في الغالب في حزر الهند الغربية . وفي سنة ١٨١٨ نالت  
 بريطانيا حق تفتيش السفن الفرنسية وحجز أي عبيد تجدهم ، وأجبرت البرتغال  
 بالتدريج على السماح بهذا أيضاً . وكان المهربون البرازيليون والبرتغاليون  
 لا يزالون يواصلون نشاطهم بشدة في صفوف قبائل اليوروباني عام ١٨٦١ .  
 واستمرت التجارة بين أنجولا والبرازيل بصورة قانونية تماماً وبغير ما حدود ،  
 بالفعل ، حتى عام ١٨٧٨ . وازدهر التهريب غير القانوني لمدة عقد آخر من  
 الزمان . ولم يتوقف إلا عندما أصبحت البرازيل في عام ١٨٨٨ آخر بلد كبير  
 يلغى الرق . وواصلت الداوريات البريطانية المكلفة بوقف تجارة الرقيق ، تراول  
 عملها وغالباً ما كانت تقبض على المهربين ، حتى عام ١٩٠١ .

وقد آتهم بعض العقاد الحداثيون البريطانيين بأنهم أجبروا البلاد الأخرى  
 على التخلي عن تجارة الرق لكي يحطموا الاقتصادات الأجنبية وليس بسبب  
 نزعتهم الإنسانية ، ومن المحقق على وجه التأكيد أن بريطانيا كانت تسعى إلى  
 التسلط على تجارة القرن التاسع عشر ، ولكن من الصعب أن نفهم السبب  
 الذي من أجله قضت على تجارة الرقيق المجزية جداً — والتي كانت محتكرها  
 بالفعل — لو لم تكن مدفوعة بروح إنسانية .

لم يشعر المشربون بالروح الإنسانية أن مسئوليتهم اتهمت بتحريم تجارة  
 الرق وتحريم تملك العبيد . فإذا كانت المستويات العالية للعدالة قد تطلبت هذه  
 الإصلاحات فإنها تطلب الأوربيين أيضاً بأن يهتموا بأمر الزوج الذين تجرروا  
 في أمريكا ، وبأنماط الاستعباد السائدة في المجتمعات الإفريقية التقليدية ووجهت

بريطانيا والولايات المتحدة معظم جهودها المبكرة إلى العبيد السابقين في أمريكا . إن المشكلة — وهي امتصاص عنصر جديد أو التصرف فيه ، في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع أبيض أفراد من الأحرار ، مشكلة لم تصبح ذات صلة مباشرة بإفريقية إلا عندما اقترح أصحاب النزعة الإنسانية إرجاع الزوج إلى القارة التي سبق أن وفدوا منها . وبعد ذلك بوقت بدأ الأورينيون يدركون أن المشكلة الأخطر والأهم هي التناقض بين مستوياتهم ومستويات التقليد الإفريقي . هذه المشكلة المتشابكة سوف نبجثها بعد أن نستعرض الأثر الناجم من الإلغاء بالنسبة إلى إفريقية ذاتها .

ولقد واجهت بريطانيا أول مشكلة واسعة النطاق يشكها الزوج الأحرار في أمريكا وذلك عند ختام الثورة الأمريكية . فالعبيد الذين سبق لهم الفرار من المستعمرات الأمريكية الثائرة إلى نوفا سكوشيا حصلوا على حريتهم مقابل ولائهم للتاج . وزاد عدد العبيد الذين أصبحت كندا مسئولة عنهم ، بسبب مجيء غيرهم من الزوج المعترف بهم أحراراً ولكنهم نقلوا من جزيرة جاميكا بعد ثورة العبيد الهائلة . وزاد من حدة المشكلة الزوج الذين تحرروا في إنجلترا بعد الحكم الذي أصدره اللورد مانسفيلد في عام ١٧٧٢ ، وغيرهم من استولت عليهم داوريات البحرية من سفن العبيد غير المشروعة في المحيط الأطلسي ، وبدا ان الحل يتمثل في « إرجاع هؤلاء الأفريقيين إلى وطنهم » .

ولما كانت معرفة الأوربيين بالفوارق القبلية في داخل إفريقية سيرة نسبياً . مالوا إلى الظن بأن جميع « الأفريقيين » متشابهون وأن العبيد السابقين سوف يصبحون أسعد حالا في أي مكان تقريباً « بقارتهم » منهم في وسط مجتمعات

مبضاء غربية عنهم . هذا الرأي أغفل حقيقة وهي أن الكثيرين من هؤلاء  
الزواج اتخذوا ثقافة أوربية وأساليب أوربية .

وكانت أول مشكلة عملية واجهها الأوربيون عند بدء عملية « إرجاع »  
الزواج « إلى وطنهم » هي اختيار المكان المناسب في أفريقية . لم يكن في  
الإمكان إرسالهم إلى دول حسنة التنظيم مثل داهومي أو اليوروبا أو الأشانتي  
حيث يقضى عليهم أو يستعبدون بوصفهم دخلاء عليها . ولم تكن أمثال دلتا  
النيجر أو أنجولا أو الكنفو من المناطق التي تدعو إلى الرجاء بسبب سيطرة  
تجار الرقيق من البرتغاليين أو رجال القبائل ، كما اعترضت الدول الأفريقية  
المتحالفة مثل الفانتى . كانت هناك منطقة واحدة تقع بين السنغال وساحل  
الماج ، وهي منطقة تفتقر إلى التنظيم ويقل فيها السكان ، ويمكن فيها الحصول  
على الأرض ومنع الاسترقاق . واختار الإنسانيون البريطانيون ، ومن بعدهم  
الأمريكيون ، أجزاء من هذه المنطقة ، وتعرف الآن باسم سيراليوني وليبيريا .

وفي عام ١٧٨٧ وصل إلى سيراليوني وتحت رعاية بريطانية ، أول  
المستوطنين الوافدين من نوفاسكوشيا . كانت الفكرة نبيلة ، ولكن لم تعد  
الخطط الواقعية لتنفيذها . فرضت القبائل الوطنية أن تباع الأرض إذ اعتبروا  
المستوطنين دخلاء ، يجوز لهم على أحسن الفروض استئجار منطقة صغيرة ،  
وهكذا اضطر المستوطنون المتأربون Europeanized إلى أن يعملوا في خدمة  
تجار الرقيق وأن يشتغلوا وكلاء بالموانئ لحساب شركات جزر الهند الغربية التي  
تزاول هذه التجارة ، ثم تحطمت آمالهم بسبب المرض أولاً ، ثم أخيراً نتيجة  
هجوم قبلي قضى عليهم في عام ١٧٩٠ .

ونظمت عملية التوطين الثانية في عام ١٧٩١ على أيدي شركة سير اليوزء  
ومن أجل تمويل نقل المستوطنين الجدد من نواسيكوشيا ، ودفع نفقة الإدارة ،  
اعتمدت الشركة اعتماداً كلياً على أسر العبيد الوطنيين وبيعهم . ولكي يحول  
البرلمان دون هذا منحها إعانة في عام ١٨٠٠ وأضفى عليها سلطة بوليسية أكبر ،  
وبعد ذلك بثمانى سنوات استولت الحكومة على الشركة وجعلت من سير اليونى  
مستعمرة تابعة للتاج البريطانى .

كانت الأرض في هذا الجزء من أفريقية تعتبر طبقاً للتقليد الأفريقى ملكاً  
لسلالة أول رجل زرع التربة . ولم يكن في الإمكان بيعها أبداً ، ولهذا اضطر  
المستعمرون إلى أن يستأجروا الأماكن من أصحابها القبليين لكي يقيموا فيها  
مدنهم ومزارعهم . قاومت وزارة المستعمرات بشدة أى اتصال بين المستعمرين  
والقبائل وبذلك عجزت عن أن تدرك أنه إذا لم تجر المفاوضات بين الطرفين  
فسوف يضطر المستوطنون إلى القتال من أجل الحصول على الأرض ، وإلا  
واجهوا الموت جوعاً . وبعد أربعة عشر عاماً اشتد خلالها الجدل ، كان  
المستوطنون فيها يعتمدون اعتماداً كلياً على المنح من جانب الإنسانيين والبرلمان ،  
سمح بإجراء المفاوضات واستئجار أراضي القبائل . ولم يشترئ أى من المهاجرين  
أرضاً حتى نهاية القرن حين حل قانون نقل الملكية الإنجليزية محل القانون  
التقليدى ، وجعلت التطورات التكنولوجية في الإمكان زراعة أراضي  
المستنقعات التي لم تستخدم أبداً من قبل .

أما اهتمام الولايات المتحدة الذي نما بعد مشروع سير اليونى بجبل فكان  
كله مغامرة أقدمت عليها هيئة خاصة بالرغم من أن بعض رجال الحكومة

الاتحادية غالباً ما أبلوا اهتماماً بالأسر . ففي عام ١٨١٦ رخص للجمعية الأمريكية للاستعمار بنقل الزوج الأحرار من المجتمع الأمريكي دون اعتبار هذا وسيلة معادية للرق . وبالرغم من اتهام أهل الجنوب للجمعية بإثارة الاضطراب عن طريق إذاعة اهتمامها بالحرية فقد حصلت الجمعية على الكثير من التأييد من جانب ملاك العبيد والبيض من أهل الجنوب فضلاً عن ذوى النزعات الإنسانية من أهل الولايات الشمالية . إن التقرير الذى وضعته الجمعية عن سنة ١٨١٩ يعبر عن الروح التى سرت فى أول مشروع للتوطين فيما وراء البحار ، قامت بتنفيذه أمريكا فى أوائل القرن التاسع عشر .

وأن أشكالاً جديدة للحكم ، على غرار تلك الأشكال التى هى موضع فخر أمريكا وافتخارها ، تشهد بمدى ما يدينون به لسادتهم السابقين ، والأعداد الوفيرة من الرجال الأحرار يغنون وهم ( يطوفون بشواطئ ) نهر الكنغو .. باللغة التى تسجل دستور أمريكا وقوانينها وتاريخها ، وهى أناشيد المديح لأب البشرية المشترك .

وبعد ذلك بعامين تم شراء أرض جنوبى سيراليونى . وأصبحت المحطة الأولية التى أنشئت فى مونروفيا وهى مشتقة من اسم الرئيس جيمس مونرو . عاصمة « مقاطعة مونسيرادو » ، وساعدت السفن البحرية الأمريكية للمستوطنين على مقاومة الهجمات التى كانت تشنها القبائل المحلية .

وبعد أربع سنوات منحت الجمعية دستوراً لمقاطعة مونسيرادو بينما أنشأت جمعيتان خيريتان أخريان مواطن الاقامة خاصة بهما على مسافة بعيدة صوب الجنوب بحذاء الساحل ، فأقامت جمعية بنسلفانيا وميسيسيبي للاستعمار محطتها



في مقاطعة جراندي باسا ، وأقامت جمعية ماريلاندي لمحطتها في «ماريلاند بأفريقية» وكان لكل جمعية طابعها الذي يميزها — ولهذا ظلت كل مستعمرة — ويحكمها كقيلها الأبيض — منفصلة عن جيرانها . وهذه المستعمرات لم تكن تضم أكثر من ١٥٠٠٠ من العبيد السابقين وحوالي ٥٠٠٠ من الزوج الذين حرروا في البحر ( على أيدي البحرية البريطانية في العادة ) .

وسرعان ما وضح أن موارد الإحسان المحدودة ورفض معظم الزوج الأحرار تهجرة سوف يمنعان « التهجير » من أن يحل المشكلة الاجتماعية الأمريكية . وبحلول عام ١٨٣٤ كانت الجمعية الأمريكية قد ضمت إليها المشروعين الآخرين وأدجت المستعمرتان تحت اسم « ليبيريا » وأعدت مدرسة القانون بهارفارد دستورا نموذجيا ، نص على وجود حاكم للجمعية يعاونه « مجلس العشرة » ويتكون من المستوطنين ولكن احتفظ الحاكم لنفسه بحق الفيتو . ورفض أهل ليبيريا المشروع إلى أن تنازلت الجمعية عن هذا الامتياز بعد خمس سنوات من المفاوضات . وفي عام ١٨٤١ عين أول حاكم زنجي للبلاد ، فأصبحت تنعم بالحكم الذاتي فعلا .

طلبت ليبيريا باستقلالها بعد عام ١٨٤٧ ، فلم تعترض الولايات المتحدة أو الجمعية الأمريكية للاستعمار وإن امتنعتا عن الاعتراف الرسمي إلى حين نشوب الحرب الأهلية . وخلال هذه الفترة واصلت السفن الحربية الأمريكية الدفاع عن المستوطنين المقيمين بالساحل ضد الهجمات . وظلت ماريلاندي قائمة بوصفها مستعمرة منفصلة عن غيرها ، في ظل الجمعية التي أنشأتها إلى أن ضمت إلى ليبيريا باتفاق الطرفين في عام ١٨٥٧ .

ظل الحكم خالصاً في أيدي الليبيرين الأمريكيين ونسلمهم المباشرين . وكان هناك مظهر كاذب من الحضارة كان إلى حد كبير تقليداً لمجتمع المزارع في أمريكا ، بل ووصل أحياناً إلى حد تطبيق نظام الرق . ولم يحرؤ المستوطنون على التوغل في الداخل إلى ما وراء مرمى المدافع البحرية ، إلى أن فرض النزاع مع القبائل الوطنية في القرن العشرين .

إن إعادة التوطين لم تحل مشكلة الزواج سواء في الولايات المتحدة أو في جاميكا البريطانية ، وفي أفريقية لم تؤد العملية إلا إلى خلق مشكلة استعمارية لأن المستوطنين كانوا على درجة من التشبع بالثقافة الأوروبية بحيث كان من الصعب أن يمتصهم الأهالي الوطنيون . وفي سيراليوني اضطرت بريطانيا إلى تنظيم مجتمعين زنجيين مختلفين اختلاف البيض والزوج في ممتلكاتها ذات الأجناس المتعددة . لم تصبح ليبيريا الأمريكية « نموذجاً » وإنما كانت دولة ذات طابع أوروبي تقابل الخوف والسيطرة على الزوج المقيمين بالداخل . وإلى مسافة بعيدة نحو الشرق وعلى طول سواحل الذهب والبيد والنيجر وفي السافانا حيث كان الاسترقاق يجرى على نطاق واسع والأهالي أكثر تركزاً ، خلق إلغاء الرق مشكلات أحست الدول الأوروبية بأنها مسئولة عن حلها . كان الاسترقاق من أجل إشباع طلب السوق الأمريكية قد حول نظاماً محلياً إلى سباق شامل على التصدير أقص عدد السكان ، وشجع الحروب والشقاق ، وحطم بالفعل أنماطاً مستقرة من التجارة والزراعة المشروعتين ، ومقابل هذا لم يأت الأوروبيون فعلاً بشيء سوى البضائع السادية ، وكانت المسيحية والتعليم تبدوان شيئاً يتم عن التفاق حتى في نظر القبائل التي تحالفت مع الأوروبيين .

وبينا تعرضت أوروبا خلال عصر الرق لتغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية

شكلت الحضارة الحديثة فإن القدرات الأفريقية التي كان يمكن أن تكون خصبة وتقبل هذه المؤثرات ، اتجهت نحو تجارة لم يكن فيها محل لأفكار جديدة أو مختلفة ، وبعد ٤٠٠ سنة تقريباً حين غير الأوروبيون نظرتهم وحرّموا الرق استاءت دول أفريقية كثيرة قامت على تجارة الرق ، بسبب الأسواق التي خسرتها من جراء ذلك . فالتهريب ، والضغط الأوربي من أجل وقف الاسترقاق ، وموجة جديدة من الحروب التنافسية اليأسية ، والنقص في القوة الشرائية للاقتصادات المتركة على الرق — كل هذا أسهم في إحداث اضطراب بعيد المدى في داخل أفريقية . وصار واضحاً بصورة متزايدة أنه إذا كان على الأوروبيين أن ينفذوا الحظر المفروض على تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي فلا بد من أن يمنعوا الرق في منبعه لأن الحصار البحري لم يستطع أن يحول دون استمرار التهريب المجزى .. ولكي يتسنى جعل الاسترقاق أمراً غير قانوني في أفريقية كان لابد من أن تصبح للنظرية الأوربية عن القانون العالمي الأورلية والعلبة على القانون الأفريقي .

وعلى ساحل الذهب منحت للأوروبيين أفضل فرصة لتطبيق هذه الفكرة فمن طريق الحصون أو المحطات الدائمة التي احتفظوا بها بمقتضى المعاهدات المعقودة مع الفانتى ، حاولوا إدخال التجارة المشروعة لتحل مكان تجارة الرقيق ، وكانت حجة الأوروبيين أن هذه المعاهدات لا يمكن التخلي عنها لأنها تنطوى على التزام بالدفاع عن الفانتى ضد تهديدات الأشانتى من الداخل ، وكان البريطانيون قد ساعدوا في عام ١٨٠٦ على صد هجوم من هذا القبيل ، وحين توقف الاتجار بالرقيق جدد الأشانتى والذين كانوا وسطاء أقوياء في هذه التجارة — هجومهم ضد الساحل . واشتبكت القوات البريطانية

والهولندية والدمركية. في القتال الذي استمر منذ حظر تجارة الرقيق في عام ١٨٠٧ إلى أن هدأت الأحوال بعد ذلك بتسع سنوات . وفي أثناء هذه الحرب استولى الأشتى على المعاهدات أو « المذكرات » من الفانتى ، ومعنى هذا العمل طبقا للتقاليد السائدة أن تدفع إليهم الإيجارات من الآن فصاعدا .

وبعد صلح عام ١٨١٦ كانت المنافسة بين الدول الأوربية من أجل التحكم في التجارة المشروعة في مثل حدة الصراع بين الأشتى والفانتى تقريبا . وسرعان ما وضح أن بريطانيا ؛ وهى الدولة الصناعية الرئيسية ، كان لديها ما تبعه إلى أفريقية أكثر مما لدى غيرها ، ولهذا أصبحت صاحبة الغلبة على ساحل الذهب . ثم حرّضت بريطانيا والدمرك والأراضى الواطئة حلفاءها من الفانتى ضد حلفاء الدول الأخرى . ومالت كل دولة بصورة متزايدة إلى إملاء السلوك الذى يجب أن يتخذه الفانتى وبخاصة من أجل محاولة منعهم من الاتجار فى الرقيق .

من المرجح أن هذا العمل كان غير قانونى إذ لم يكن الأوربيون سوى مستأجرين فى البلاد ، ولكن الشر الظاهر الذى يمثله الرق بدا فيه المبرر لمثل هذا التدخل . وأوضح البريطانيون بصورة متكررة إنهم يعتزمون مغادرة الحصون بمجرد أن يمنع الفانتى الرق منعا فعلا ويفقدوا صلحا ثابتا مع الأشتى . ونشبت حرب أخرى مع الأشتى فى عام ١٨٢٥ واضطر البريطانيون إلى البقاء لكي يساعدوا حلفاءهم الفانتى . لكن ، بدلا من الاكتفاء بإزالة المزمومة بالأشتى ثم الإنسحاب ، استولى البريطانيون على « مذكرات » المعاهدات من العدو . وطبقا للقوانين المحلية جعلهم هذا الإستيلاء أصحاب الحصون التى كانوا



يشغلونها . وأرسلت مذكريات الدنمرك التي جرى الاستيلاء عليها أيضاً ، إلى كوينهاجن كدليل على الصداقة بين البلدين . ولكن ظل الأشاتي محتفظين بالمذكريات الهولندية . وبدأ أن بريطانيا أصبحت أكثر نورطا بصورة مباشرة عن ذى قبل ، ولكن حكومتها أعادت ترديد عزمها على التخلي عن الساحل ، وأجزت وعدة بعد ذلك بثلاث سنوات ونقلت المحطات إلى أيدي لجنة من تجار لندن وانسحب المثلون الرسميون .

وإذا استثنينا سيراليونى وليبيريا ومستعمرة زراعية فرنسية فى السنغال ، فإنه لم تكن هناك مصالح أوربية أخرى شمالى الكنفو . وحين توقفت عملية الاسترقاق توقف الاتجار والاتصال الرسمى بدهومى وجابون . وقصرت البرتغال اتصالاتها الرسمية على أنجولا حيث استمرت مزاوله تجارة الرقيق بصورة غير مشروعة معظم القرن التاسع عشر . وتضاءلت ثروة داهومى وأهميتها بسرعة برغم أن صرحها القائم على الملكية المطلقة والبيروقراطية الكاملة والجيش ظل قويا . واتقسمت دولة اليوروبا إلى سلسلة من الوحدات المحلية التى تنافست فيما بينها بمرارة من أجل مواصلة الاتصال المنقطع بالمهريين البرازيليين والبرتغاليين واستطاعت جزيرة لاجوس الرملية التى تتحكم فى الميناء الجيد الوحيد على ساحل العبيد ، المحافظة على استقلالها بتحريض جيرانها ضد بعضهم البعض من أجل الوصول إلى مهربى العبيد وللحصول على الواردات من الملح والسلع المصنوعة .

وفى شرقى ساحل العبيد لم يكن ثمة وجود أبداً لمحطات أوربية أو دول إفريقية منظمة تزاول التجارة . ولذلك فعندما ألقى الرق لم تكن هناك أرض

للتصرف فيها أو معاهدات تحالف لتمسك بها . وشجعت التجارة في زيت النخيل والعايج لكي تحل محل تجارة الرقيق ، ولكن انصب الاهتمام الرئيسى على استبعاد المهرين . وكان الوحدات القبلية صغيرة ولا يمكن التنبؤ باتجاهاتها بحيث يمكن أن تشر المعاهدات المضادة للرق أو أن تجرى المفاوضات المشتركة . وفضلا عن هذا ساد الاعتقاد الثابت بأن دلتا النيجر ليس لها منفذ إلى الداخل أو اتصال به . كانت مصاب النهر الكثيرة ينظر إليها لا على أنها دلتا وإنما على أنها مجموعة كبيرة من الصخور القصيرة التى عرفت باسم « أنهار الزيت » وكلها ترتفع على هيئة سلسلة جبلية شاسعة من الجرانيت تمتد عبر البلاد حوالى مائتى ميل نحو الداخل .

ولم يكن طريق نهر النيجر الأدنى واتجاهه معروفين حتى بالرغم من أن بعض الرواد الأوربيين كانوا قد أصبحوا على بينة تماماً بالقسم الأعلى منه انذى ينساب داخل السافانا . وكانت الحكومة البريطانية تحاول التخلي عن أية مصالح لها على الساحل ، ولم تتورط أبداً بشكل مباشر فى « أنهار الزيت » ، ولكنها قدمت تأييداً بالغ القدر للكشوف الجغرافية فى الداخل . وكان منجوبارك قد اكتشف الكثير من مجرى النيجر الأعلى والأوسط ، ومات فى سلسلة من الشلالات على مقربة من بلاد الهوسا فى عام ١٨٠٥ . واستؤجر هنريخ بارت من ألمانيا كى يعبر الصحراء الكبرى وقدم بعد ذلك بوقت قصير تقريراً عن أحوالها الجغرافية والسياسية . وفى عام ١٨٣٠ عبر كلايرتون ، ر . لاندر الصحراء أيضاً وأنزلا زورقاً فى نهر النيجر — ثم ظهرا فى « أنهار الزيت » حيث التقيا بتجار من بريطانيا — الأمر الذى أثار الدهشة الكبيرة فى نفوس الجميع . لم تتابع الحكومة هذا ولكن التجار بدأوا يسيرون بسفهم

في هذه الشبكة النهرية المكتشفة حديثاً ، وبذلك خلقوا عداوة عنيفة بين القبائل المقيمة في المجرى الأدنى والتي جرى تخطيها ، ولكنهم نجحوا أيضاً في تقليل عدد العبيد الذين كان يحصل عليهم المهربون في الدلتا ( ولم يكن المهربون ليجروا على التوغل في مياه النهر المحدودة خاصة إذا تأكدوا من وجود السفن البريطانية هناك ) . لقد حلت التجارة المشروعة محل الرق بفعل المنافسة والظروف المواتية ، ولم تكن للتجار مزايا خاصة أو مستودعات ، ولكن بعد عام ١٨٤٠ وجدوا هم والقبائل المقيمة على النهر أن تبادل زيت النخيل والعاج بالمنتجات الأوروبية أمر يعود بالنفع على الطرفين .

وكانت آثار الاتجار في الرقيق قد امتدت نحو الشمال من منطقة الغابات المطيرة ، إلى مسافة بعيدة عن الساحل ، كما تضاعف بسرعة الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي منذ القرن السادس عشر . والعوامل التي أسهمت في هذا هي تحول نحارة مباداة الذهب بالملح على أيدي البرتغاليين والذي أعقبه الغزو المراكشي الشره وإعادة توجيه قبائل الغابات من تجارة السافانا إلى التجارة الساحلية . ومن بين جميع مناطق السافانا كانت بلاد الهوسا أقلها تفككا ، إذ كان تقليدها الحكومي المستنير قائماً على الاستقلال الذاتي المنبعث عن اللامركزية كما كانت تشتغل بالصناعة (بخاصة القماش والصابن) على خلاف الحضارات التي تقدمتها في إقليم السافانا .

وكان الإسلام قد دخل بلاد الهوسا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين حيث أحدث تأثيراً بالغاً في بنیان الحكم وفي تطور أدب الهوسا ولكن تأثيره كدين شعبي كان سطحياً . وربما هذا التهاون ، وربما رخاء بلاد



الهوسا واستقرارها فقط ، من العوامل التي اجتذبت البدو من الفاتحين المعادين للإسلام في حوالى الوقت نفسه . وواصل الإسلام انتشاره ببطء في القرون التالية إلى أن توغل في صفوف الفولاني التجواين وذوى النزعات الانفصالية ، تماماً كما انتشر في صفوف مضيفهم الهوسا الحاكمين .

كان الزعيم الفولاني عثمان دان فوديو ، على خلاف معظم أتباعه المشتغلين بالرعى ، يعيش بين سكان المدن من الهوسا وعندما رجع من الحج إلى مكة في عام ١٨٠٢ أوحى إليه بالدعوة إلى تطهير الإسلام ، فشن الفولاني بزعامته الجهاد أى الحرب المقدسة ضد دول الهوسا التى تسيطر عليهم ، وفيما بين عامي ١٨٠٤ ، ١٨١٠ سقطت أمام توسع إمبراطورية عثمان الفولانية ، دولة إثر أخرى فضلا عن أجزاء من بلاد اليوروبا المجاورة وبقية صنفاى القديمة . كان القتال عنيفاً . وفي موجة من الإرهاب القصير الآن ولكنه كان عنيفاً ولده التعصب الدينى ، حل الدمار بالكثير من الآثار غير الإسلامية في ثقافة الهوسا بما فيها معظم وثائقهم التى يفتقر إليها الباحثون الحديثون افتقاراً شديداً . ولما كان النظام السياسى مستمداً من تعاليم القرآن فقد ظل موضع الإبقاء عليه بعناية وإن أصبح يخضع لساردونا أو إمبراطور مركزى اتخذ من سو كوتو مقراً له واتخذ عثمان دان فوديو ذلك اللقب وعين أمراء من الفولاني أى رؤساء النواحي على رأس كل دولة من دول الهوسا . والواقع إذن أن الإمبراطورية كانت تديرها مجموعة صغيرة من المنظمين الفولاني الذين اقتصروا على أن فرضوا أنفسهم على نظام الهوسا القديم . واستمرت كل دولة من دول الهوسا تضطلم بوظائفها كما كانت تفعل ذلك قروناً ، وظلت بغير تغيير معظم القوانين والبيروقراطية التقليدية الكبيرة والإدارة اليومية للشئون المحلية .

كان الإسلام منذ ذلك الحين يمارس بالأسلوب السنّي نوعاً في جميع أرجاء ما يعرف الآن باسم نيجيريا الشمالية ولكن حماسة الجهاد سرعان ما هوت إلى استبعاد وتوسع شخصي ، وأتجه الغزاة الفولاني بصورة متزايدة إلى شن الغارات من أجل أسر العبيد وبخاصة في الجنوب الشرقي على مقربة من مرتفعات الكيرون حيث اعتادت دول الهوسا الحصول على عبيدها .. كانت الأسواق التي تستوعب هؤلاء الأسرى تنضب ببطء — فطريق الأشانتي مثلاً أغلق حين منع البريطانيون التجارة الساحلية ، وكان الاتصال بالمهريين عند لاجوس مستحيلاً بسبب انقسام دولة اليوروبا إلى شيع متشاكفة ، واستمرت المبيعات للأتراك ، ولكن الدبلوماسيين الأوربيين في الآستانة فضلاً عن الأساطيل في البحر المتوسط حاولوا منعها . ربما كانت قوة الفولاني البشرية أصغر من أن تسمح لهم بالسيطرة على بلاد الهوسا إلى ما لا نهاية . فعندما خبا التعصب سهل إفساد هؤلاء السادة ، ومال الأمراء بصورة متزايدة إلى العطف على الجهات التي يحكمونها ، وبالتوسع أخذت بيروقراطية الهوسا وتقاليدهم القانونية تتحدى سلطان الفولاني ببطء وأصبح السارد ونا رمزاً دينياً بحتاً ، وعندما حلت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، عادت الدول المتمتعة بالاستقلال الذاتي ، إلى الظهور من الناحية العملية .

إلا أنه قبل أن تغير روح الجهاد الذي شنه عثمان دان فوديو حمل نائبه أحمدو لوبو حماسه إلى الأقليات الفولانية المتفرقة في جميع أرجاء أقاليم السافانا . ففضلاً عن بلاد الهوسا ، كانت أقوى مجموعة هي بين الماندينجو الذين يعيشون بين نهري النيجر والسنغال على مسافة نحو الداخل من السنغال الفرنسي ، وحذا أحمدو لوبو حذو مولاه في قلب حكومات مضيقه ، ولكن حكم « إمبراطورية ماسينا »

التي أقامها (١٨١٠ - ١٨٤٤). لم يكن ذا أهمية بالقياس إلى رد الفعل في نفوس جيرانه إزاء أفكاره الدينية والسياسية .

وكان اللذان سارا على نهجه عمر حاكماً فوجالون بعد عام ١٨٣٨ ، وسامورى أحد الغزاة العصاميين من المانديجو في السبعينات من القرن التاسع عشر . هذان الرجلان وضعا حداً للقوضى والعزلة في السافانا لا بفعل حكمهما وإنما لأن توسعتهما السريع جعلهما على اتصال مباشر بالأوربيين الذين سيطروا على الداخل منذ ذلك الحين .

وظالما أحست الدول الأوربية بأن مسئوليتها لا تمتد إلا إلى الدول المتحالفة معها والمقيمة على امتداد الساحل ، فإنها لم تهتم بما يجرى في الداخل أو بالدول التي لم تكن تتاجر معها . أجل ، فطالما لم تجر التجارة في الرقيق تحت أنوفهم ، أحس البريطانيون — وربما على نحو أشد منه عند سواهم — أن الحكم أو التدخل العسكري إجراء غير ضرورى إن لم يكن غير سليم ، وساد الرأي بأن الحرية في ممارسة التجارة المشروعة تسير جنباً إلى جنب مع التقدم لكلا المشتري والبائع ، وأصبحت وزارة الخارجية مسئولة عن حماية مثل هذه التجارة ، ولكن الحكومة لن تقوم بأى عمل إيجابى خلاف القضاء على السفن المشتغلة بتجارة العبيد . واستطاع التجار البريطانيون طرد الأوربيين الآخرين في سلام ، إذا كان إنتاج بريطانيا أكبر وكانت أثمانها التي تبيع بها أقل . كانت بريطانيا تؤمن بالمنافسة الحرة ووجدت ذلك من صالحها ، وتقبلت الدول الأخرى الفكرة أيضاً ولكنها كانت تفتقر إلى المصنوعات والمصلحة اللازمة لوزحة البريطانيين من مواقعهم .

لماذا كان من الأمور المنطقية كلية أن تنسحب الحكومة البريطانية من ساحل الذهب في عام ١٨٢٨ وألا تكون لها مصلحة رسمية في تجارة دلتا النيجر ، وبمجرد إقرار السلام على الساحل فسوف تؤدي « القوانين الطبيعية » التي تحكم الضرورة الاقتصادية إلى نشوء الظروف التي ترضى بطريقة آلية كلاً من الأفريقيين والأوروبيين . وبعد خروج البريطانيين من ساحل الذهب تولى شئونهم الدبلوماسية والتجارية موظفون في سيراليوني أو أحييت إلى لندن ، وشغل التجار المحطات في بلاد الغاني وأداروا شئونهم في دلتا النيجر .

كانت تجارة ساحل الذهب تتولاها لجنة تجار لندن وهي هيئة خاصة . واختار التجار جورج ماكلين ، وهو ضابط جيش قوى الشكينة ، للمفاوضة من أجل إقامة سلام فعال مع الأشانتي الذين لا يستقر لهم حال . وحتى يتسنى له حماية طرق التجارة المارة ببلاد الأشانتي وهي لازمة للعمليات التجارية الناجحة ، جعل من نفسه حكماً يفصل في جميع المنازعات التي تنشأ بين القبائل وحذرت الحكومة اللجنة من أن هذا العمل يشكل إدارة أوربية وهو ما أرادت بريطانيا تماماً أن تتجنبه ، ولكن ماكلين واصل سياسته إذ أحس هو واللجنة أن التجارة تعتمد على تظيم القبائل .

إن حزم ماكلين الاستثنائي وإخلاصه غير التحيز وصبره الذي لا ينفد ، كل هذا أوجد في ساحل الذهب عصرًا لم يسبق له مثيل ، من السكينة والتعاون . كان الأفريقيون يطمثون إلى رأيه الذي ضم إلى القدرة على تقبل الكلمات العنيفة البطء الطويل الأمد الذي تتصف به المفاوضات التقليدية مع القبائل ؛

وهي فطرية كانت تعتبر شيئاً فريداً بين الأوربيين في ذلك الوقت . وكان يجب السفر في الداخل دون أن يصحبه حرس حربي ، كما أنه — على خلاف سياسة الحكومة البريطانية — لم يستخدم القانون الأوربي إلا بوصفه مكملاً للعادات الوطنية . وكانت النتيجة أن انتشر سلطان ماكلين بسرعة وأصبح موضع الاحتراء الكبير من جانب كل من الفاتني والأشانتى .

وخشيت الحكومة أن تؤدي سياسة ماكلين واللجنة إلى التورط الشديد في شؤون الوطنيين ، ولهذا رانخت تخرج التجار في عام ١٨٤٣ ، وبعد ذلك استأنف الموظفون البريطانيون تحكيمهم المباشر على الحصون وأعدوا الخطة للتقليل من عدد الالتزامات السياسية التي سبق أن اتفق بشأنها التجار . وكان ماكلين خلال توسعه في عام ١٨٣١ قد عقد هدنة بين الفاتني والأشانتى أبقّت عايتها الحكومة حتى عام ١٨٧١ ، ولكنها ظلت مترددة بشأن معظم المسائل الأخرى .

وإذ كانت قد تمت تهدئة الأشانتى عندما استؤوف الحكم المباشر ، حول الموظفون انتباههم إلى المنازعات البسيطة التي تقسم دول الفاتني . ومن أجل تهدئة الساحل وقع « عقد » مع الفاتني يقضى بتحكيم بريطانيا وتنظيم العلاقات بين القبائل . ربما كان الغرض من عقد عام ١٨٤٤ تقوية التجارة البريطانية ، أو لعله كان خطة يراد بها تثبيت الأمور في المنطقة قبل انسحاب الحكومة . لقد ظل النقاد البرلمانيون يدعون إلى الانسحاب بقصد التقليل من النفقات ، ولكن لم يتحقق أبدا الهلواء الذي يحدث بعد ذلك .

كانت تكاليف إدارة المستعمرة تشكل مشكلة مستمرة ، وتثير استياء

دافعى الضرائب البريطانيين . كان التجار ، لا الحكومة ، هم الذين ينجنون الأرباح ، ولكن لم يكن فى الوسع فرض الضرائب عليهم أو مطالبتهم بأداء رسوم جمركية على التجارة لأن هذا يتيح للمحطات الهولندية والدمركية فرصة البيع بأثمان أقل مما يبيعون به ، كما تتعارض أمثال هذه التعريفات الجمركية مع سياسة حرية التجارة . كان الحل الوحيد هو الاستحواذ على المحطات الأجنبية التى تثير الانقسام فى صفوف القانتى ، وعندئذ يمكن فرض الضرائب مباشرة عليهم . وفى عام ١٨٥٠ باعت الدمرك راضية ما كان لها من مصلحة ، واستردت بريطانيا « المذكرات » التى تقرر حق الملكية ، وخفت حدة الاضطراب التنافسى . كان معنى هذا مزيداً من التورط ولكن بدا الآن أن فى الإمكان تحقيق السلام والوحدة . ثم طلب إلى رؤساء القانتى أن يتولوا جباية الضرائب من رعاياهم ، وإذا استخدم البريطانيون عقد عام ١٨٤٤ مبرراً لتصرفاتهم أدخلوا على قوانين القانتى نصاً يقضى بفرض ضريبة على الرؤوس ولكن لم يجمع شيء منها إذ لم يكن فى استطاعة الرؤساء فرض الضرائب بغير موافقة قومهم .

كانت المحطات الهولندية لاتزال تتخلل المحطات البريطانية على طول ساحل الذهب . وظلت قبائل القانتى المتحالفة مع إحدى الدولتين ، تسمى إلى تحطيم منافسيها المتحالفين مع البلد الأوربى الآخر . وفى عام ١٨٦٧ وافقت الدولتان على تبادل الحصون ، فأصبح القسم الغربى من الساحل هولندياً بينما انتقل الجزء الشرقى إلى بريطانيا ، وصار من المأمول الآن أن يسود السلام والوحدة فى كل قسم ، بل ربما كان فى الإمكان فرض رسم جمركى صغير لتغطية نفقات الإدارة ( وليس لأغراض الحماية ) .

.. إلا أن السلام جان. دونو نشوء سوء تفاهم كبير . لقد أحسن الفاتى من أهل القسم الغربى أن تحلفاهم البريطانيين . خانوم حين تقوهم إلى أيدى أعدائهم الهولنديين . وأبانت بريطانيا جميع الفاتى - سواء فى الشرق أو فى الغرب - أنها بصدد الانسحاب إلى المحطات التابعة لها ولن تحاول بعد ذلك الدفاع عن الفاتى أو القيام بدور الحكم فى المنازعات التى تقشب بينهم . إن تبادل المحطات الذى تم بين الإنجليز والهولنديين بدأ الآن مشروعا للانسحاب أكثر منه إعادة تنظيم للخلفاء التقليديين . وكان من المنطق تماما أن يترأى لفاتى أن هذا العمل يحلهم من الميثاق الموقع فى عام ١٨٤٤ ، ومن الصعب أن تعرف ماذا كان رأى البريطانيين آنذاك فى ذلك الاتفاق .

وتصرف أحد زعماء الفاتى كما لو أن العقد أصبح لاغيا . فبعد أن اتخذ لنفسه لقب الملك جون أجرى إعلان أن الحاكم البريطانية لم تعد لها الولاية على شعبه وراح ينشئ جيشا . وعهد غيره من الفاتى إلى تكوين حلف بقصد الدفاع عن أنفسهم ضد الهولنديين وحلفائهم الأشاتى فى الغرب والشمال . وأقر حلف الفاتى قانونا أساسيا يمتاز بالنضوج وهو دستور مانكسيم *Mankesim* لعام ١٨٧١ وينص على أن يرأس الاتحاد ملك يختار بالانتخاب ، وجمعية تمثيلية ، وهيئة قضائية دائمة ونظام للتعليم العام . وأرسلت نسخة منه بالطرق الدبلوماسية السلمية إلى المحطات البريطانية « للعلم » .

وإذ استشعرت بريطانيا الرعب من جراء النتائج التى أسفر عنها اتفاقها مع هولنده ، عمدت إلى التصرف على نحو أثار دهشة الفاتى ، إذ طلبت أن يكون لها حق الفيتر على دستور مانكسيم ، ويظهر أنه ساورتها فكرة بأن

الفاتسي يضمون صفوفهم من أجل طرد الأوربيين . إننا نعرف الآن أن العداء بين الفاتسي والأشاتي كان يزداد بسرعة ، ولكن الأوربيين الذين لم يفهموا إلا القليل من الشئون الوطنية ، تملكهم الفكرة بأن الفاتسي يتحالفون مع الأشاتي . فلو انقلب الحكم الذاتي عند الفاتسي إلى فرضي -- وكان رأى البيض أن الزوج من الهجينة بحيث لا يستطيعون تنظيم أنفسهم -- فسوف يتعين على بريطانيا أن تعود من جديد إلى تهدة البلاد . فضلا عن هذا فالتعامل مع بيروقراطية فاتسية أصعب بكثير منه مع الرعاء التقليديين المستقلين ، ولهذا فإن الحلف سوف يهدد السلام الذي أراده بريطانيا ..

وكافت الأراضي الواطئة أشد عزوفاً عن استعمال القوة ضد الفاتسي . كانت تجارتها تعتمد على حرية الوصول إلى بلاد الأشاتي ، واضطرت تجارتهم اضطراباً خطيراً نتيجة رد الفعل الذي سرى في نفوس الفاتسي . بسبب تبادل الحصون . . . وبقدر ما كانت تجارة الهولنديين بسيطة نسبياً فعندما حل عام ١٨٧٢ كان رأيهم قد استقر على بيع ما لهم من مصلحة إلى البريطانيين . بدأ الإجراء الآن في أول حلام مقبولاً للكثير من مشكلات ساحل الذهب . ولكنه أثار أزمة بالدرجة الأولى من الضخامة .

كانت بريطانيا والديمبرك تملكان . منذ عام ١٨٢٥ حصونهما بسبب استيلائهما من الأشاتي على « المذكرات » أو حقوق الملكية . غير أن المذكرات الهولندية لم يتم الاستيلاء عليها ، ولذلك ظلت محطات الهولنديين ملكاً للأشاتي ويجب أداء الإيجار عنها بانتظام . وعندما جرى تبادل الحصون مع إنجلترا في عام ١٨٦٧ واحتلت هولنده إرسال الهدايا إلى ملك .



الأشاتي ولكن بريطانيا لم تفهم هذا عندما اشترت المصالح الهولندية بعد ذلك  
خمسة سنوات . كانت إنجلترا تعتقد أن الهدايا مجرد وسيلة لتشجيع تجارة سير  
في طريق التدهور ، وكان ينبغي لها أن تعلم في هذا الوقت أن أمثال هذه المدفوعات  
ضرورية بدلاً من أن تظن العكس . وإذا كان الأشاتي يعتبرون الهدايا نوعاً  
من الإيجار توقفت بريطانيا عند أدائه ، لهذا قدموا احتجاجاً ثم عمدوا أخيراً  
إلى مهاجمة الأقاليم الساحلية . وظنت بريطانيا أنها يبعث الحياة في العقد وينيل  
الاحتصاص على الساحل بأسره ، تستطيع كفالة السلام والاستقرار بدون  
التوغل في الداخل أو تحمل نفقات كبيرة .. وبدلاً من ذلك اضطرت إلى  
التوغل في الداخل على نحو لم يكن له مثيل من قبل . مثل هذا التطور الجديد  
سبب تنقيحاً حاسماً للسياسة (١) .

لم تتأثر الأحوال في دلتا النيجر بمثل هذه الأزمة فزاد الاتجار الحر بسرعة  
بعد اكتشاف النهر وارتياحه ، ولهذا عينت وزارة الخارجية قنصلاً لها بعد  
عام ١٨٤٩ . كان القنصل يقيم في فرناندبو على مسافة من الشاطئ ، ولكن  
كان من السهل الوصول إليه بالأسلوب الدبلوماسي العادي لكي يساعد التجار  
في المفاوضات التي يجرونها مع الزعماء في الدلتا . وكان انعدام التنظيم القبلي  
يخلق أحياناً ظروفاً خطيرة . وكثيراً ما طلب التجار من القنصل أن يمدم  
بالتأييد الدبلوماسي ولكن وزارة الخارجية أصرت بثبات حتى عام ١٨٧٢ على  
رفض التدخل ، وبعد ذلك سمح للقنصل بالتحكيم في المنازعات التي تنشأ حول  
المتنود وبتنظيم الحملات التأديبية وأخيراً انتقل إلى كالا بار على الساحل .

(١) عالج المؤلف هذا التطور في الفصل السادس عشر من الكتاب ، وهو خارج عن  
الجزء الذي ترجمناه .  
(الترجم)

ولكن ظلت الشئون أساساً داخلة في نطاق المسئوليات الخارجية بدلاً من الإدارة السياسية .

وكانت المصالح البريطانية النظامية قليلة في ساحل العبيد ولكن واصلت البحرية مضاهرة عدد من سفن العبيد التي تزاول هذه التجارة بطريقة غير مشروعة من لاجوس إلى البرازيل . وبحلول عام ١٨٥١ كانت المنافسة على السيطرة على مثل هذا التهريب قد أصبحت حادة بين قبائل المنطقة . فحاولت داهومي القوة الاستيلاء على الميناء بقوة قوامها ١٨٠٠٠ من محاربيها اللأى لا يقهرن ، ولكن جنود لاجوس وإن لم يكونوا في بسالة معظم أعدائهم الداهوميين ، كانوا راغبين في القتال وكسبوا المعركة وقطعوا سبيل التجارة المشروعة إلى بلاد الداهوميين وجزء من أرض اليوروبا . وأعقب ذلك نشوب حرب بين أفراد الأسرة المالكة . وأثارت روايات الزحالة عن ازدياد الفوضى ، الانزعاج في نفوس ذوى الميول الإنسانية ، قم احتلال ميناء لاجوس ولكن دون احتلال أى أرض تتجاوزة . وفر تجار الرقيق البرازيليون وأعيد فتح طرق التجارة .

كانت بريطانيا وحدها هي التي تورطت إلى درجة لها شأنها في أفريقيا الغربية خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر . لقد حاولت بقميد مصالحها ولكنها وجدت أن النزعة الإنسانية المعادية للرق وكذلك حرية التجارة لا يمكن أن يمحقا نجاحاً بغير التدخل الحكومى المتزايد . وبانتصاف القرن التاسع عشر كانت قد أرسيت الأسس التي سيقوم عليها بعد ذلك الغزو الإمبراطورى والتقسيم التنافسى والحكم الاستعمارى في أفريقيا الغربية .

## من بنت إلى الزنج

عاش الأقزام حول البحيرات العظمى في عصور ما قبل التاريخ، أما البوشمن فساحوا في كل مكان آخر شرقاً وجنوباً ولا تزال نجد جيوباً من كلا الشعبين، ولكن التطور التاريخي يبدأ بسلسلة من التسربات الأجنبية حدثت في تعاقب بدأ العلماء في توضيحه، ويظهر أن أولها كان تفرقا رقيقا للكوشيين الأفرو آسيويين أو شعب سيدامو الذين انتشروا نحو الجنوب بعد أن هبطوا من المرتفعات الأثيوبية قبل مولد المسيح بقرون قلائل. ويعتقد علماء الآثار أن هؤلاء المستوطنين الزراعيين جاءوا إلى الفلاحين بنظام زراعة المدرجات على جوانب التلال وبنحت الأحجار لأغراض البناء وبسلسلة من المحاصيل الجديد.

وعلى مقربة من الحلات التي أقاموها عند بحيرة فكتوريا، يظهر وأنهم قضاوا على الأقزام، إلا أننا نلاحظ أن سكان الجهات الممتدة بعيداً في اتجاه الجنوب تقبلوا الشعب الخموسى، ويحتمل أنهم علموه المبادئ الأولية في استخدام الحديد. وكان للغزاة الكوشيين تأثير بالغ حتى بالرغم من صغر أعدادهم وقلة الآثار التي خلفوها بعدهم.

وكان المصريون القدماء يذكرون من وقت لآخر الساحل الشمالى الشرقى والذى أطلقوا عليه اسم بنت - ولكن السبائين من أهل اليمن الحديثة كانوا أقل الأقبام المهمة الذين ثبت بصورة مادية وصولهم إلى الساحل. وفي ظل

حكمتهم بدأ الاتجار في منتجات بلاد العرب والهند وشرق أفريقيا . وكانت هناك محلات قلائل للتجارة والزراعة الاستوائية في أيام الرومان بالقرب من خط الاستواء، ولكن من المشكوك فيه وجود كثيرين من الهنود أو الإندونيسيين. إن وجدوا — بين المستعمرين . ربما استخدمت الأفكار الشرقية الخاصة ببناء السفن والمجاصيل ، ولكن من الممكن أن تكون هذه قد جاء بها بنو سبأ في أثناء التجارة التي زاولوها .

ولم يكن للزنج وجود في شرق أفريقية إلى أن بدأت الطليمة التي تتكلم لغات الباتو تخرج من الغابة قرب البحيرات المظية فيما بين عامي ٥٠٠ و ٨٠٠ للميلاديين . وبالرغم من أن الباتو كانوا ينشئون تنظيمات عسكرية بسيطة أثناء هجرتهم عبر الغابة من الكامبيرون فلا بد أنهم كالجوا من أجل اجتياح الدول القائمة على جوانب البحيرات والتي أنشأها الفلاحون الكوشيون ممن عرفوا قطع الحجر ونحته . وفي النهاية انتصر الزنج لأنهم كانوا يفوقون المدافعين عدداً ويقلدون التنظيم السائد لديهم .

وظهرت ممالك على شواطئ البحيرات مثل بوجندا على بحيرة فكتوريا وبنغورو على بحيرة ألبرت ورواندا وأوروندي شمالي بحيرة تنجانيقا ، وسادت لهجات الباتو واشتغل الأقزام في رواندا وأوروندي حيث لم يقصر عليهم الكوشيون من شعب سيدامو بالصيد والقتل ، واقتبست الأنماط الكوشية في التنظيم وبناء البيوت والزراعة . وواصل زنج آخرون من الباتو — ربما هم الذين خرجوا من الكنفو بعد ذلك بوقت قليل — سيرهم حتى بلغوا تنجانيقا ومنها واصلوا سيرهم إلى كينيا بعد احتلال مناطق البحيرة ، وأعتبت

ذلك مُؤججةً بانتونية أخرى سارت في المر المتمد بجوار البعيرة والذي يحترق الغابة ، حتى يقسنى لها الوصول إلى روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند . وعلى خلاف ما فعل الأقزام ، يظهر أن البوشمن فروا جنوباً أتم هذه الموجات الزاحفة أو أيديوا .

وقبيل عصر المسيح قرر التجار من بينى سبأ الانتقال من اليمن في بلاد العرب المجدبة إلى الجبال الأشد خصباً في أثيوبيا ، وحوالهم المبشرون الوجدانيون إلى المسيحية في القرنين الرابع والخامس ولكن الصراع مع المدعين الآخرين في المنطقة حال بينهم وبين مواصلة نشاطهم في الملاحة والاستعمار . وكانت ردود الأفعال في نفوس من زحزحوهم من الشعوب موضع الشعور بهما في النهاية على امتداد البحيرات المظلمة بينا حل محلهم العرب والفرس في التحيزة الساحلية .

وظل الزوج الذين يمشون على طول مجرى النيل الأعلى واقعين قرواً كثيرة تحت تأثير الثقافة الكوشية ولغة أثيوبيا المجاورة لهم ، وعن طريق هذا الاتصال جاءت الماشية إلى الوادي . ولما غزا بنوسباً المرتفعات فرالكثيرون من الكوشيين متجهين نحو الغرب كي يجدوا ملجأ لهم بين الزوج . هذا المزيج الناتج أى النيلوتيون أوجد مزيجاً من لغات النيجر والكنغو واللغات الأفرو — آسيوية ر بعد ذلك بدأ البدو النيلوتيون ينتشرون في اتجاه البحيرات المظلمة حيث التقوا بمالك الباتو الآخذة في النمو ، وأخيراً أقام معظمهم في مرتفعات كينيا وتنجانيقا ولكن نجحت مجموعتان منهم في إجراء ترتيبات خاصة في بوجنده ونيورو ورواندا — أورو ندى .

إن ذبابة تسي تسي التي تحمل مرضاً يفتك بالماشية لا وجود لها في الجهات الممتدة بجذاء البحيرات ، وبذلك كان في الإمكان أن تعيش قطعان النيلوتيين مزيد من ثراء اقتصاد البانتو . وسرعان ما نقلت أساليب تربية الماشية إلى الجنوب عن طريق الممر المرتفع الخالي من الذبابة والمؤدي إلى سهول الروديسينيين وجنوب إفريقيا . وأصبح رعاة الماشية النيلوتيون طبقة ممتازة في بونيورو وبوجنده وهما أبعد الممالك القائمة في إقليم البحيرات في اتجاه الشمال ، ولكنهم نجحوا في رواندا وأوروندي في فرض سيطرتهم على الحكم بطريق التفاه أو القتال .

وفي هذه الممالك البعيدة في اتجاه الجنوب شكل البانتوسى النيلوتيون (الواتوسى) أرستقراطية منعزلة تحكم جماهير البانتو واحتفظوا بخواصهم الجنسية المميزة بما في ذلك ارتفاع قامتهم الكبيرة ، وكانوا يكنون الاحترام لسرعة الحركة والقراع . من المتوقع أن يلقى المرء هذه الصفات المتميزة في جماعة غربية نشأت في البلاد، كانت تذكر مقدرتها العسكرية وتمت فيها كراهية العمل الذي يقوم به الفلاحون . وفي كل حالة حلت لغة البانتو محل اللغة النيلوتية ولكن ظلت الماشية الأساس الذي يقوم عليه النشاط الأساسي .

وساعد النيلوتيون الأغنياء في بونيورو وبوجنده زعماء البانتو الذين منحوهم امتيازات خاصة حتى يصبح الأخيرون ملوكاً مطلقى السلطان تقريباً . وكانت مساحات شاسعة وجماهير كبيرة من الأهلين تحكمها بيروقراطية دائمة ومجلس يجمع بين المهام القضائية والتنفيذية .

وتوسعت بونيورو بسرعة عن طريق الغزو العسكرى خلال القرن التاسع

عشر<sup>١</sup> وتقسمت البلاد إلى مناطق وضعت تحت إدارة الرؤساء المحليين ، وغالباً ما كان الملك يقوم بالرحلات من أجل الإشراف على قطعانه المتناثرة من المشية ، وعلى الوصول إلى رؤساء النواحي. وبذلك لم يكن هناك بلاط دائم أو أبهة كثيرة . إلا أن بوجنده كانت غير ذات شأن نسبياً إلى أن توسعت بونيوزو إلى الحد الذي تجاوز طاقتها في أوائل القرن التاسع عشر. نشبت ثورة عجبت بفكك الأخيرة . .

. وسرعان ما برزت بوجنده بوصفها الدولة ذات الغلبة في منطقة بخيرة . فيكتوريا ، وفي هذه الدولة كانت المشية أقل أهمية من زراعة الدخن التي ازدهرت حول البحيرة . لم يكن لدى هذا المجتمع أسباب كثيرة تدعوه إلى التوسع ولكن ربما لأن بوجنده لم تكن ذات طابع عدواني - سعت كثير من القبائل في المحيط بها إلى التماس حمايتها وبدأت تؤدي الجزية بانتظام . كانت للملك أو الكابا كعاصمة دائمة أدخل فيها النيولوتيون الكثير من مظاهر الأبهة والطقوس ، كما كان له أيضاً جيش عظيم من المحاربين وعنده مئات من الزوارق الحربية التي تستخدم إما للدفاع عن حلفائه أو لإجبارهم على أداء الجزية المستحقة . وبرغم أن الكابا كاضل بمساعدة النيولوتيين إلى مركز الحاكم المطلق بالفعل ظلت رعاياه زمنياً طويلاً تفضل الزراعة المستقرة على الغزو ، وأصبح الأتباع الجدد رعايا مخلصين في العادة ، إذ كان يحكمهم رؤساء محليون يستأهلون الثقة بدلا من قوات الاحتلال أو عملاء بوجنده ممن قد يثيرون الاستياء في النفوس<sup>(١)</sup> . ومنح الزعماء المعينون سلطة القضاء وجباية

(١) في لغات الباتو يستدل على التفسيرات التي تطرأ على الاسم الأساسي بإضافة مقادير قبله . مثال ذلك أن الكلمة الأساسية جاندا يشتق منها بوجنده (أرض جانده) ، باجندا (شعب جانده) ولوجنده (لغة جنده) وبالثلث نجد كلمات بونيورو ، بانيورو ولونيورو مشتقة من نيورو .

الضرائب وبذلك توافر الاستقلال الذاتي الهلبي إلى جانب الخدمة الخاصة للكابا كما صاحب السيادة .

لم ينشب صراع بين الدولتين حتى عام ١٨٦٩ حين أحييت بونيورو نزعتها التوسعية واحتكت بشبكة من القبائل التي تؤدي الجزية. ولكن نشوب صراع حاسم بينهما حال دونه وصول الأوربيين في العقد التالي . كان المراقبون الأوربيون يعتقدون في أول الأمر أن الكابا كأكثر ثقافة بولينا من مقابله في بونيورو ، وأكثت تقارير الرحالة الطابع المتقن والمستقر لبلاط بوجنده وأهمية الزراعة ونظام الحارين والبجارة الذي يلفت النظر وبدت دور إقامة الملوك في بونيورو « قدرة » ومتأخرة ، ولكن المعروف الآن أن هذا المظهر الخارجي الهزيل كان يرجع إلى حد كبير إلى طبيعة البلاط غير الدائمة .

أما وراءه فقامت حكومة تستطيع أن تحكم مساحات أكبر وكانت أذل اعتماداً من نظام الحكم في بوجنده على تبادل الامتيازات .

وفي جنوب غربي بوجنده وتورو وبونيورو قامت مملكتا رواندا وأوروندي ( رواندي ) . هذه الدول الخمس كانت تتشابه من نواح كثيرة كما كانت الفوارق بينها تستحق الذكر ، ولكنها جميعاً شكلتها المؤثرات النيولوتية .

وكان للكوشيين الأوائل من أهل سيدامو تأثير قليل على رواندا ولهذا غلب الأقزام الذين قتلوا في المواضيع الأخرى على قيد البقاء . وفضلاً عن هذا لم يكن للباتو في هذه الجهة أسلاف من السيدامو يحتذى حذوهم لهذا كانوا أقل تنظيماً حين وصل النيولوتيون من الشمال الشرقي . ونتيجة لهذا لم يجلب



الغزاة إلى هؤلاء الباتو أفكار السيد امو غيب ، وإنما أصبحوا أيضاً طبقة ممتازة في أيديها السيطرة السياسية والاجتماعية الكاملة ، ولذلك كان تأثيرهم أكثر فحائية ووضوحاً وثورية منه حول بحيرة فيكتوريا .

ولم تكن لرواندا أو أوزوندى عواضم ثابتة، واحتفظ الباتو تسمى الخاكسون ببلاد زاق ولكنهم منتقل يتولى إدارة شكل من الإقطاع . أما الباهوتو الذين يتكلمون لغة الباتو وهم السكان الأقلون، ضبطوا إلى منزلة الفلاحين المزارعين . ولم يسمح لهم بالقتال أو تملك الأرض وبذلك أصبحوا رقيقاً فعليين . وكانت ملكية الأرض والحق في جباية نسبة مئوية من إنتاجها متركزين في أيدي الملك الباتو تسمى الذى كانت سلطته مطلقة . واشتغل الأفزام المعروفون في هذه الجهة باسم الباتوا، بصيد الحيوان والحراسة كما اشتغلوا أتباعاً وخدماء للملك وطبقته الأرستقراطية . وكانت تربية الماشية تعتبر امتيازاً ولهذا لم يكن يملك القطعان سوى الباتو تسمى الذين كانوا محاربين أيضاً . كذلك سيطرت الطبقة الحاكمة على السطات القضائية والإدارية والاقتصادية في كل بلد .

وتعلمت قبائل الباتو التى تحركت صوب الشرق من ناحية البحيرات العظمى تربية الماشية من شعب الجلا الكوشى المقيم في جنوب إثيوبيا ومرتفعات كينيا . ولم تكن المجتمعات الباتوية القاطنة بين البحيرات والمحيط الهندى تتطلب أو تتلقى تنظيماً معقداً ولكنها استعارت نظاماً قانونياً واسع النطاق . وأساليب طقسية كثيرة من جيرانها الكوشيين والسيدامو والنيلوتيين .

وبأوائل القرن العاشر كانت طلائع من الباتو قد سارت في الأرض الفضاء على طول البحيرات العظمى حتى وصلت الشاطئ الجنوبي لهرزمبىزى . كانوا

في ذلك الوقت من صناع الحديد المهرة، وأضافوا إلى هذا فن قطع الأحجار الذي تعلموه من الكوشيين المتناثرين على هيئة جماعات صغيرة في وسط البوشمن بشرق أفريقية . كذلك اتبع الباتو تقاليدهم المعتاد القائم على امتصاص أو طرد أو إبادة البوشمن الذين في طريقهم ، ووجدت رواسب معدنية غنية لمسافة ٢٠٠ ميل على كل من جانبي نهر زمبيري وازدهرت المحاصيل وقامت تجارة مجزية مع التجار العرب على طول ساحل المحيط الهندي قبل عام ١٢٠٠ الميلادي .

وكان الكوشيون قد مارسوا بعض التعدين والتجارة منذ القرن السابع ولكن التجارة لم تزدهر إلا بعد أن أقام الباتو الأول والذين يطلقون على أنفسهم اسم سووثو بأعداد كبيرة . وبعد حكم دام حوالي ٢٠٠ عام طغى عليهم الباتو المعروفون باسم شونا والذين بيده أنهم جاءوا بالماشية من البحيرات العظمى عن طريق المر الخالي من ذبابة تسي تسي . وبحلول عام ١٤٥٠ كان الشونا قد أنشأوا مملكة وأطلقوا على حاكمهم لقب « مونوموتابا » وبدأوا في إنشاء مستعمرات تحيط بها أسوار مبنية من الحجارة .

وكان أوسمها نطاقا وأشدها مدعاة للحيرة زمبابوى . في هذا الموقع وجدت قرى خشبية وطينية منذ بدء التعدين في القرن السابع ، وكانت الحجارة تستعمل زمناً طويلاً لإقامة أماكن الاحتفالات ولكن الثابت الآن أن استخدام الحجارة كان في عهد إمبراطورية اللونوموتابا في القرن الخامس عشر .

وكان النظام السياسي يعتمد على جمع الجزية من الجيران الذين يجرى غزو

بلادهم، وربما كانت إحدى هذه القبائل هي التي قلبت حكم المونوموتابا في حوالي ١٦٠٠، واحتلت المدن اللبنيّة بالحجارة، وأضفت مباني جديدة. وبعد عام ١٦٩٣ استولى الباتو المعروفون باسم روزوي على المنطقة وأعادوا بناء الكثير من الصروح الأصليّة، ونشروا البناء بالحجارة في الأجزاء الأخرى من روديسيا الجنوبيّة. وفي ١٨٣٤ تحطم الروزوي على أيدي الغزاة من الزولو الوافدين من الجنوب، وانتهت فجأة معرفة البناء بالحجر واحتلال المدن المشيدة بالحجارة. وليس ثمة شك في أن الزوج الباتو هم الذين ابتدعوا ونفذوا فكرة إقامة زمبابوي، لقد لوحظ وجود البناء بالحجر من الباتو في عهد حديث مثل الأربعينات من القرن التاسع عشر على مقربة من شلالات فكتوريا، وفي العشرينات في الترنسفال. وثمة تشابه مع فن البناء بالحجارة في أثيوبيا بما يدل على أن أصل هذا الفن كوشي، ولكن الدوافع الخاصة على استخدامها للزينة ترجع إلى الباتو في حوض الكونفو. إن تصميمات ووظائف الصروح المعبدة للاحتفالات تمثل ذروة الأفكار التي أمكن إرجاع أصلها إلى مرتفعات الكامبيرون.

وخلف التجار العرب روايات مكتوبة عن تطور زمبابوي ومباني المونوموتابا الأخرى، وزارها المبشرون والتجار والمبعوثون البرتغاليون عدة مرات، وخلفوا وراءهم روايات واضحة. إن تحديد تاريخ الكربون وفحص الجاجم والحقائق الفنيّة والتقدم الهام في الدراسات عن الباتو — كل هذا ساعد على توضيح تاريخ المدن الحجرية. إن الاضطراب المتعاقب بزمبابوي التي أصبحت «سراً غامضاً» ذا أبعاد تدعو إلى السخرية يمكن إرجاعه إلى مصادر ثلاثة، فما من واحد من المكتشفين الأوائل فحص الخرائب قبل ذلك أبداً.

وعرقل الأبحاث . إن المتقنين وصلوا إلى الخرائب ودرسوها قبل أن يتمكن العلماء من دراستها، ولذلك كان لا بد من القيام بحفريات واسعة النطاق ، ومن التذرع بالصبر الكثير قبل أن أمكن إيجاد الحل . والمصدر الثالث أن معظم الزوار غير المدربين اخترعوا نظرية خيالية مثيرة تعبر الزوج من « الانحطاط » بحيث كانوا عاجزين عن التخطيط والبناء بالحجارة .

هناك أشياء كثيرة غير مؤكدة ، ولكن الصورة العامة واضحة ، والاختلاف قليل حول النقاط الكبرى بين السلطات المدربة التي فحصت موقع زمبابوى <sup>(١)</sup> .

إن ساحل شرق أفريقية شقة ضيقة ورملية من الأرض ، وتحول الغابات والمرتفعات دون سهولة الوصول إلى الداخل ، ونتيجة لهذا ظل التوغل وراء الساحل قليلاً جداً حتى بدء القرن التاسع عشر . وكان السبتيون القدماء من أهل بلاد العرب قد أنشأوا تجارة بسيرة مع الكوشيين المتفرقين في أفريقية الشرقية، ولكنها تضاءلت حيث ركزوا جهودهم على غزو إثيوبيا في فترة مبكرة

(١) من المراجعين المصادر الخاصة بزمبابوى نذكر :

Gertrade Caton-Thompson : The Zimbabwe Culture : Rains and Reactions ( London, 1931 ).

والملاحظات الأحدث عهداً والواردة في كتاب ج . ديزموند كلارك :

The Prehistory of Southern Africa.

(هارموندز ورت ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٩ — ٣١٣ ) .

وثمة خلاصة هامة من الجدل حول زمبابوى تجدها في كتاب بازيل دافيد سون :  
Old Africa Rediscovered.

( لندن ١٩٦٠ ، ص ١٩٩ — ٢٣٠ )

من العصر المسيحي . ربما وجدت مراكز تجارية على امتداد الساحل ، ولكن لم يكن لها تأثير دائم على شرق أفريقية . وأقام غيرهم من العرب والذين حلوا محلهم بالتدريج على طول الساحل تجارة غير منتظمة مع المعدنين السكوشيين بني وادي زمبيري ، ولكن لم يحدث تطور واسع النطاق إلا بعد وصول البانتو ، وتحالف المنظمات العربية .

وانتشر الإسلام إلى جميع القبائل في الصحراء العربية خلال القرن السابع ، ولكن التوجيه السياسي كان من الصعب تحقيقه ، واحتفظ البدو في عمان الواقعة في الطرف الشرقي من بلاد العرب باستقلالهم لأنهم كانوا يتطلعون إلى البحر بدلاً من الصحراء سعيًا وراء العيش .

وسيطرت مسقط ، وهي الميناء الوحيد بعمان ، على القبائل المقيمة في الداخل ، وبحوالى عام ٧٥٠ الميلادي جعل انتشار النظرية الإسلامية في الحكم ، في الإمكان قيام حاكم مركزي اتخذ لنفسه لقب إمام عمان .

كان لدى قبائل الصحراء من العمانيين القليل من المنتجات القابلة للبيع ، ولكنهم وجدوا ربحاً يجتنبهم في القرصنة ، وفي نقل البضائع لحساب الغير ، فأنشئت المستودعات في الهند وبلاد فارس وشرق أفريقية . وقامت التجارة على أساس تبادل الذهب والعبيد من أفريقية بمنتجات الهند وفارس من القماش والأدوات المنزلية وعقود الخرز . وكان النيووتيون السودانيون والزنج والذين يأسرهم أحياناً السبثيون المحاربون في أثيوبيا ، يباعون في أسواق البريق الفارسية .

ولكن ما نعمت به فارس في القرن التاسع من سلام ورخاء تحطم بسبب  
 المنازعات الدينية ، والخلافات حول وراثته العرش والثورة التي قام بها العبيد...  
 واغتصب الجنود من الأتراك سلطة الخليفة ، وضغط الأشراف الفرس من أجل  
 الحصول على السيطرة السياسية وإعادة النظر في التعاليم الإسلامية . ومات  
 الألوف في هذه الفوضى ، و التمس غيرهم ملجأ في سفن العانيين ، ونقلوا إلى الساحل  
 الأفريقي الشرقي حيث عاونهم التجار والبحارة العانيون على إنشاء محلات دائمة  
 لهم . كانت عمان حاهيتهم وكفيلهم ، ولكن المدن كانت فارسية في تصميمها  
 ومستقلة في سياستها .

وكانت المحلات التي أنشئت على الساحل من زمبيزي إلى الصومال الحديث  
 تعرف في مجموعها باسم الزنج ( وهي الكلمة العربية لأثيوبيا ) ولكن لم يكن  
 هناك تنظيم مركزي ، فبنيت كل مدينة مستقلة على جزيرة لتكون في مأمن  
 من الهجوم والمرض . وإذا استثنينا التجارة التي بدأت تنمو بعد وصول البانتو  
 في القرن التالي كان الاتصال قليلا مع البر . وقامت المزارع الكبيرة لزراعة أشجار  
 زيت النخيل ، وبدأت أولاً في الجزر ، ثم انتقلت إلى الشقة الساحلية الضيقة ،  
 وكان من السهل الحصول على العبيد للعمل في هذه المزارع إذ كان تنظيم البانتو  
 الذين وصلوا إلى الساحل ضعيفاً . وإذا استقرت أحوال بلاد الزنج ونمت  
 زادت التجارة بسرعة ، وإذا وجد المنظمون من الهند الساحل مجزياً  
 بدأوا في السيطرة على الملاحة والمصرفية والزراعة ، وأصبح العرب العانيون  
 والفرس طبقة حاكمة تنعم بالفرح ، وبدأت مختلف الجماعات المقيمة على الساحل  
 من البانتو والعرب . والهنود ( والأخيون يعرفون باسم بنيان ) .Bunyan في  
 ابتداء مزيج ثقافي سواحي جديد . كانت السواحلية ، كلغة ، مزيجاً من المفردات

الباتوية والعربية ، ولكنها تكتب بحروف عربية ، وغلبت التجارة على المنطقة وغالباً ما حقق الحكام المسلمون والمنظمون الهنود الثراء ، لكن ثقافتهم كانت مستعارة من فارس وعمان .

واستخدم معظم العبيد في المزارع القائمة على ساحل أفريقية الشرقى بالرغم من وجود سوق منتظمة لهم فيما وراء البحار . وكان الخدم من الزنوج من المظاهر المألوفة في بلاد العرب وفارس والهند حتى أن الصين اشترت عدداً قليلاً منهم في السنوات التي أعقبت ذلك العصر .

ومع ذلك نادراً ما استخدموا في العمل الزراعى الواسع النطاق ، ولهذا كان الطلب الخارجى عليهم محدوداً دائماً . لسنا نجد اليوم الكثير من الزنوج في هذه البلاد لأن تجار الرقيق من بلاد الزنج لم يصدروا سوى الخصيان من الذكور ، وهذا بطبيعة الحال منع إغراق البلاد بهم ، وساعد على استئناس العبيد والخدم . وكانت للزنوج سوق مضمونة تزودها بالعبيد الذين يحلون محل من ينتهى أمره منهم .

وبحلول القرن الخامس عشر كانت السفن تأتي من وقت لآخر إلى مدن الزنج من كاتون ، ولكن أحداً من الصينيين لم يُقم هناك بصفة دائمة . وواصل العرب السيطرة على السياسة وجباية الرسوم الجمركية ولكن سمح للأجانب بالتحكم في التجارة ذاتها : الهنود والصينيون في البحر ، والباتو في داخل أفريقية الشرقية . وكانت المدن ذات السيادة مثل كلوة أو ممباسا تفرس الجزية من وقت لآخر ، أو تبعث الاضطراب في التجارة ، أو تمارس النفوذ العسكرى في الموانى الأخرى ، ولكن ظلت كل محلة مستقلة من حيث الجوهر .

والحق كانت كل مدينة من مدن الزنج مختلفة عن غيرها . فاليندى وممباسا





على ساحل كينيا كانتادولتين لهما أهمية من ناحية المزارع القائمة فيهما، وتحكمت  
 ممباسا كذلك في تصدير العبيد في تلك المنطقة . كذلك تخصصت كلوة القائمة  
 على الساحل الجنوبي لتنجانيقا الحديثة في العبيد . وكانت تجارة زمبابوى في  
 الذهب تمر عن طريق سفالة الواقعة عند مصب نهر زمبىزى . ولما كانت تجارة  
 مدينة موزمبيق مع الداخل صغيرة جداً لهذا اعتمد رهاؤها أصلاً على تحكمها  
 الاستراتيجى في مضيق موزمبيق ، وعلى عدد من المزارع التى أنشئت فيها .  
 كانت حظوظ كل دولة لا تعتمد على الإنجازات الزراعية والعسكرية فحسب ،  
 وإنما تعتمد أيضاً على هجرات الباتو إلى الداخل ، تلك الهجرات التى لم يكن  
 فى الإمكان التنبؤ بها .

فإذا انتقل الزنوج بعيداً أو تشددوا فى المساومة تضاءلت تجارة الرقيق  
 والمزارع . إن تفوق العرب التجارى والسياسى الذى دعمه تدفق العمال الباتو  
 ومنتجات المناجم من الداخل كان متأصلاً فى الساحل الأفريقى الشرقى عندما  
 حل القرن الخامس عشر . وفى ذلك الوقت حمل فاسكودا جاما العلم البرتغالى  
 شمالاً من رأس الرجاء الصالح ، واقتصر أمر الأوربيين على أن استولوا على نظام  
 الزنج المستقر الدائم وتولوا إدارته .



## إمبراطوريات ساحل أفريقيا الشرقية

في نهاية القرن الخامس عشر كانت كلوة تبسط سلطانها على المدن العربية الجنوبية، بينما سيطرت ممباسا على المدن الشمالية. وعندما شق أسطول فاسكوداجاما المتجه إلى الهند طريقه بحذاء ساحل أفريقية الشرقى في مارس سنة ١٤٩٨ كانت موزمبيق أول ميناء اكتشفه في بلاد الزنج. ظن العرب في مبدأ الأمر أن الأسطول يمثل جماعة من التجار المسلمين الجدد، واعتقد البرتغاليون أنهم اكتشفوا مملكة مسيحية لهمها مملكة بريسترجون.

وسرعان ما تبددت الأوهام، فهاجم فاسكوداجاما المدن وخذعها واحدة تلو الأخرى، حتى بالرغم من أن بعضها أبدى نحوه الود؛ واكتفى البعض الآخر باتخاذ موقف الحذر. ليس واضحاً ما إذا كان موقفه ناشئاً عن حساسة دينية أو عن خوف من قوة العرب أو مجرد نزعة إلى الفساد؛ وكانت ماليندى هي الوحيدة بين جميع مدن الزنج التي استطاعت فيما بعد أن تنسى موقفه وتعتبر نفسها صديقاً للبرتغال.

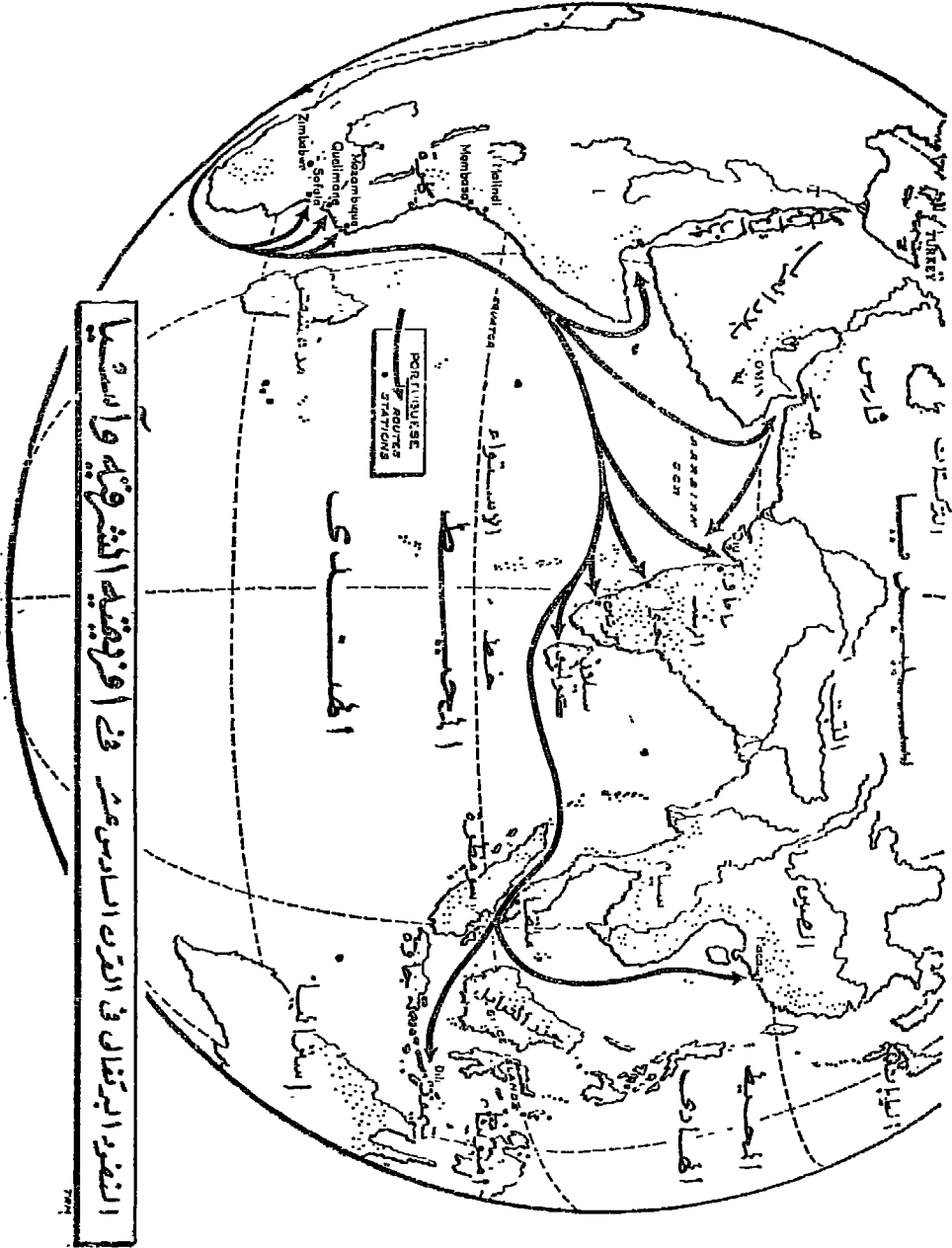
كانت الهند وجزر الهند الشرقية الهدف الرئيسى. ففي ١٥٠٩ - ١٥١٠ أخضعت حملة عسكرية برتغالية بقيادة القونسو البوكيرك وبصورة منظمة جميع المستودعات التابعة للعرب والهنود وأبناء الملايو، وتحكمت في طرق التجارة المتفرعة منها. وأصبحت موزمبيق في أفريقية وهرمز في فارس وملقا على

مضايق الملايو وجوا في شبه القارة الهندية أحجار الزاوية في الإمبراطورية .  
وأدارت البرتغال طرق التجارة بين القارات بسفنها ، ورخصت للسفن الهندية .  
والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الأفريقية والآسيوية . ولم  
تملك البرتغال من القوة البشرية ما يمكنها من الحكم ومزاولة التجارة في كل  
مكان ، ولذلك نظمت الموانئ الثانوية في البلاد عن طريق جباية الجزية بصورة .  
متقطعة ، ومن وقت لآخر استقبلت الزوار . غير أن المناجم لم تغل أبداً من  
الثروة القدر الذي كان يريد التجار ، بل كان النجاح الذي حققته البعثات الدينية .  
أقل إذ لم يكن في مستطاع البرتغال توفير عدد من المساواة بحيث يؤثر في  
نفس المونوموتابا الذي يستطيع أن يقدر حقيقة القوة .

ونادراً ما كان يسمح للأوربيات بالتوجه إلى المستعمرات ولهذا توقف .  
استمرار الحكم الأوربي على التزاوج مع الوطنيين ، وانتقلت التجارة البرتغالية  
بالتدريج إلى أيدي المولدين المخلصين خلال القرن السادس عشر .

وظل التجار الهنود يعرفون باسم « البنيان » كما كان الحال في أوائل  
العصر العربي ؛ ولكن الهنود الذين اعتنقوا المسيحية والمولدين كانوا يعرفون  
باسم « الجوين » Goans إذ كانوا في العادة من جوا وهي مقر إمبراطورية .  
البرتغال الاستعمارية على ساحل ملبار بالهند .

كان التوغل في الداخل عملية كثيرة التكاليف دائماً في الرجال والمال .  
فبالرغم من المعاهدات التي عقدها كايادو لم يكن في مقدور المونوموتابا  
السيطرة على قبائل الباتو الخاضعة لنفوذه . ولكي يقسني الاحتفاظ بقبضة .  
البرتغال على الداخل الذي يبشر بالخير ، شجعت المغامرين الجوين من .



أبنائها على الإقامة على جوانب المجارى العليا من نهر زمبىزى ، ومنحت إلى هؤلاء البرازيرو Prazeiros المزارع الشاسعة على انحنو الذى نجح فى البرازيل . ولكى يتمكن الآخرون من الاحتفاظ بهذه المنح واستغلالها سمح لهم بجلب العبيد لأداء العمل ولتكوين جيوش خاصة ، وسرعان ما زالت الثقافة البرتغالية ومعها الدم الأبيض والطاعة للتاج . ولكن البرازيرو الفخورين فى عنف بامتيازاتهم الإنطاعية وجنسياتهم الأوربية ، واصلوا السيطرة على ضياعهم الكبيرة شبه السلحة ، والتي تعيش فى حالة اكتفاء ذاتى عن طريق استخدام العبيد .

لم تكن أفريقية أبداً فى نظر المشروعات البرتغالية فى مثل أهمية جوا أو جزر التوابل ، وذلك باستثناء تجارة ذهب المونوماتابا عن طريق سفالة . وأصبحت جوا المستودع الرئيسى والطريق المؤدى إلى ثروة الشرق ، وجرى احتلال شرق أفريقية بقصد حماية طرق الملاحة بين الهند والبلد الأم ، ولمنع الدول الأخرى من تهديد الاحتكار البرتغالى بالحصول على موطىء قدم فى تجارة البلاد .

ولم تكن لدى البرتغال من المصلحة أو القوة البشرية ما يمكنها من احتلال جميع بلاد الزنج احتلالاً فعالاً . ولم يجل دون بعث قوة العرب الاقتصادية أو السياسية المنافسة فى الأنحاء البعيدة نحو الشمال على الساحل ، سوى قوة الأسلحة البرتغالية . وتملمت بمباسا وماليندى وكلوة برئاسة حكامها العرب التقليديين من الجزيات المفروضة عليها ، ومن القيود الخائفة التى قضت على ثرائها السابق .



وفي عام ١٥٨٠ ورث فيليب ملك إسبانيا عرش البرتغال، فقدت الأخيرة على الفور عميلها الرئيسي أى الهولنديين الذين حاولوا طيلة ثمانى سنوات إبعاد فيليب عن عرشهم . وبدلاً من الاتجار مع البرتغال أو تقديم الرجال للمغامرات البرتغالية بدأت الأقاليم الهولندية الآن تبعث بأساطيلها إلى الهند . كان فيليب أكثر اهتماماً بالفضة الأمريكية ، وبإخماد ثورة هولندا ، وبإعداد الأرمادا ضد إنجلترا منه بمشكلات البرتغال . الاستعمارية .

وضاعت جزر شرقية لها قيمتها الواحدة تلو الأخرى ، وسقطت المحطات في الهند أو تجاوزتها السفن ، وتحول الأمراء والتجار الذين درجوا على الاتجار مع البرتغال إلى القادمين الجدد . وحتى إذا تجنبت السفن البرتغالية المراكب الحربية الهولندية فإنها لم تعد تجد سوى القليل من العلاقات التجارية القديمة . وتخلصت المدن العربية بنجاح من القيود على التجارة ومن التزامها بأداء الجزية مما سبق أن فرضته البرتغال عليها .

وفي جميع أرجاء أوروبا اكتسبت أفريقية الشرقية سمعة بأنها فقيرة وغير صحية ، ولم يعتبر الهولنديون أن تجارتها أو جزيتها شيء يستأهل الاهتمام . وفضلاً عن هذا اكتشف الملاحون الهولنديون رياحاً سائدة جديدة أقوى وأوفر أمناً من التي تهب على طول الساحل الأفريقي الشرقى . وإذا اتجهوا شرقاً من رأس الرجاء الصالح تجنبوا الرياح الموسمية المتقلبة والمناطق الضحلة في مضيق موزمبيق .

لم يكن من السهل دائماً تقدير الرحلة إلى الشرق عبر المحيط الفسيح إذ ظلت معرفة خطوط الطول مسألة تعتمد دائماً على الحدس الذكى إلى أن استخدم



الكرونومتر في القرن الثامن عشر - ولكن الملاح الماهر كان يستطيع في العادة أن يجد طريقه إلى الهند أوجاوة ، وكل منهما معناها ربح مؤكد ( أخطأ بعض الملاحين الهولنديين تقدير المسافة فاكشفوا أستراليا ونيوزيلندا قبل أن يجدوا الطريق المؤدى إلى جزر التوابل ) . وكذلك تجنبت الساحل الأفريقي الشرقى بريطانيا وفرنسا اللتان خلفتا الهولنديين في تجارة الهند .

وفي الوقت الذي بدأ فيه تدهور البرتغال كانت ممالك المونوموتابا تزقتها المنازعات ، فقبائل نجوني وجماعات السوثو شقت طريقها بنجاح عبر مناطق التعدين وهي تتجه جنوباً في عامي ١٥٩٠ - ١٦٣٠ ، وحررت قبائل كثيرة من دفع الجزية إلى شعب المونوموتابا وحطمت التجارة الداخلية وتدخلت البرتغال باستخدام الجنود من أهل جوا ، واعترفت بأحد الأتباع المتمردين حاكماً جديداً على بلاد المونوموتابا ، بل ونجحت في حمل خليفته على اعتناق الديانة المسيحية . كان الموقف شديد التعقيد والزعيم المسيحي - وهو العوبة في يد البرتغال - بالغ الضعف ، وموارد البرتغال محدودة أكثر مما ينبغي ، ولم يكن في الإمكان إعادة الرخاء والاستقرار إلى سابق عهدهما ، وحتى قبل أن يخف الاضطراب في العقد الثالث من القرن السابع عشر عاد العرب إلى تأكيد وجودهم . وفي سنة ١٦٩٣ خضع إقليم المونوموتابا تماماً للبانغو من جماعة روزوي الذين تقدموا من منطقة بحيرة تنجانيقا ، وكان اهتمام أوروبا ونشاطها في مناجم الذهب والمدن المشيدة بالحجارة قد انتهى الآن .

وفي عام ١٦٢٢ بدأت عمان الواقعة في بلاد العرب تساعد المسلمين من أهل

أفريقية الشرقية على طرد البرتغاليين، ولم ينتصف القرن حتى كان معظم الساحل عربياً بشكل واضح، ولم يستطع البرتغاليون إلا الاحتفاظ بنقطة أو اثنتين لسنوات قلائل وذلك عن طريق تركيز قوتهم، وعادت مدن الزنج إلى الظهور من جديد كمستودعات لتجارة الرقيق والزراعة العريبتين. وبفضل ما أظهرته عمان من مقدرة في قتال البرتغاليين تمكنت من حمل بلاد الزنج على الاعتراف بالولاء الفعال لها أكثر مما كان عليه الأمر قبل عام ١٤٩٨. حاولت البرتغال استرداد المدن الواقعة إلى شمال موزمبيق ولكن توازن القوة بين العمانيين والبرتغاليين تحقق في النهاية في رأس دجلادو الواقع بين موزمبيق وكلوة، وفي اتجاه الجنوب أمكن حماية المصالح البرتغالية بفضل وجود البرازيرو وتجارة الرقيق التي ازدهرت بعد عام ١٦٤٥، ووضع حد من الناحية العملية لقوة عمان. ولم تتدخل الدول الأخرى في شئونها لأنها لم تهتم بالأمر بالرغم من أن البريطانيين كانوا يقدمون لها بعض التأييد غير المباشر بحكم التحالف بين لشبونة ولندن، ومعااهدة الزواج المعقودة في عام ١٦٦١. وفي شمال رأس دجلادو كان العمانيون الحماة الذين لقوا الترحيب في المدن الساحلية العربية، وبحلول عام ١٧٤٠ كان الإمام قد دعم ممتلكاته العربية بحيث أصبح قادراً على توجيه اهتمامه إلى الزنج.

كانت الهند أعظم عميل يُطمأن إليه بالنسبة إلى العبيد الذين تحصل عليهم. عمان من شرق إفريقيا، فقد كان في وسع دول الأمراء أن تدفع فيهم أثماناً تربو على ماقد تدفعه فارس أو بلاد العرب. وكان قماش الهند وأدواتها المنزلية تباع بأثمان عالية في بلاد الزنج، ولذلك كانت عمان الوسيط في تجارة أهلها الدول الأوربية منذ انحطاط شأن البرتغال، طالما نشب العراك بين الأوربيين.

حول الهند ظل مركز العامين آمناً ، إلا أن بريطانيا أخرجت الفرنسيين في عامي ١٧٦٣ ، ١٧٩٩ ، وهزم تيبو صاحب آخر أمير مسوال للفرنسيين ، وأصبحت بريطانيا الآن تتحكم في طرق التجارة بين الهند وعمان ، ولكنها لم تحتل دول الأمراء ، ولذلك لم يطبق القانون الذي أصدره البرلمان في ١٨٠٧ بتحريم تجارة الرقيق على أسواق عمان . واستمر العرب يتحدون الحظر البريطاني ، ولكن وزارة الخارجية عمدت إلى الضغط الدبلوماسي على سعيد الإمام الحاكم في ذلك الوقت ، فوافق بمقتضى معاهدة مورسباي في عام ١٨٢٢ على قصر الآتجار في الرقيق على إمبراطوريته في بلاد العرب وشرق إفريقيا ، وعلى السماح للبحرية البريطانية بمراقبة شواطئها ، واستمر قدر بالغ من التهريب ولكن موانئ الزنج بدأت تفقد بعض رخائها السابق .

ونارت ممباسا ، أقوى هذه المدن ، ضد السلطان وطلبت من الكابتن وليم أوين من رجال البحرية الملكية إعلان الحماية عليها . اتد اعتقد العرب أن في الامكان إحياء تجارة الهند إذا ضمت ممباسا إلى الإمبراطورية ، غير أن الوزارة البريطانية كانت مصرة على الابتعاد عن شرق إفريقيا كما سبق لها أن خرجت من ساحل الذهب .

وبعد أن ظلت ممباسا محمية تابعة لأوين لسدة عامين أعيدت رسمياً إلى السلطان سعيد في عام ١٨٢٦ .

لكن أبت ممباسا النظر في العودة إلى الإمبراطورية الألمانية الآخذة في الانحلال ، ولم يحل عام ١٨٣٥ حتى تمكن الإمام سعيد من إخضاع المدينة التي تحده ، وهو لم ينتجح في هذا بفضل القوة العسكرية وإنما نجح باستخدام

الرشوة والخيلة والخداع . ففي أثناء الحصار الذي دام تسعة أعوام أقام قواعد أممية في زنجبار ، تلك الجزيرة الخضراء ذات المناخ البارد نوعاً في بلاد الزنج . وبعد انتهاء القتال عاد إلى عاصمته في مسقط ببلاد العرب . كانت مسقط حارة وجافة ، وبدت زنجبار أكثر أمناً وأدعى إلى البهجة من الميناء الصحراوي ، كما كانت مكاناً أنسب يستطيع عن طريقه استغلال شرق إفريقيا ولذلك نقل السلطان العماني عاصمته من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٤٠ .

كان سعيد قد وصل إلى الحكم عن طريق قتل منافسيه في عام ١٨٠٦ ، ثم تمكن بعد ذلك من الاحتفاظ بسطوانه وتوسيع نطاقه بطريق الدسائس التي لا تنتهي ، ولكنه حرص دائماً على التقرب إلى الدبلوماسيين الأوربيين الذين يشغلون مركزاً طيباً ، ولم يكن يستخدم جيوشه إلا كحل أخير بعد أن تحقق كل سبل المخادعة والمحاباة . كان الإمام مقتصداً في نفقاته كما خلا من مظاهر الأبهة بالرغم من الزيادة السريعة في الثروة الملكية ، واعتقد زوار سعيد أنه رجل كريم ونبل على نزاهة حقيقية وإخلاص يتصف بإنكار الذات .

وبعد أن نقل سعيد عاصمته إلى زنجبار بوقت قصير بدأ في تنفيذ برنامج واسع النطاق للتنمية في ممتلكاته بشرق إفريقية ، فوسع نطاق زراعة الكاكو وأشجار زيت النخيل ، وغرست في زنجبار أشجار القرنفل التي جيء بها من إندونيسيا . وإذا تقدم تنفيذ المشروعات عظم الطلب على العبيد فاستغلت إلى أقصى حد الطرق القديمة التي كان يستخدمها تجار الرقيق ، وفتحت مسالك جديدة إلى الداخل ، وسارت القوافل المسلحة في مواعيد منتظمة إلى بحيرتي نياسا وتنجانيقا . وإذا استثنينا بعض المراكز الحربية والتجارية التي أقيمت على امتداد

طريق القوافل فلم يهجم أرض جديدة ولم ترغم قبائل جديدة من الباتو على الخضوع لحكم الزنج .

كان الكثيرون من الباتو يؤسرون بنصب الكائن لهم أو بطريق الخداع ، أو بشن الهجوم المباشر ، وكان غيرهم يشترن من القبائل المتحالفة مع التجار ، وغالباً ما كان المال يدفع إلى قبيلة لملها على مهاجمة جارة لها .

لقد ظل العرب قرييين من الساحل طيلة ألف عام حتى سنة ١٨٤٠، وخلال ثمانية عشر عاماً تقدمت قوافلهم ومراكبهم وعملاؤهم حتى وصلوا إلى أعلى الكونغو في منتصف الطريق عبر أفريقية . وحمل تجار الزنج اللغة السواحلية إلى الداخل وجعلوا منها لغة مشتركة في شرق أفريقية ووسطها ، ولكنهم ولدوا سلسلة لم يسبق لها مثيل من الحروب القبلية الوحشية ، فتحطمت الزراعة المستقرة . واستعبدت قرى بأسرها من الباتو ، أو ذبح أهلها وتناقص عدد السكان بسرعة ووجد الأوربيون الذين احتلوا إفريقية الشرقية فيما بعد أن بعض المناطق كانت ما تزال تسودها القوضى في القرن العشرين .

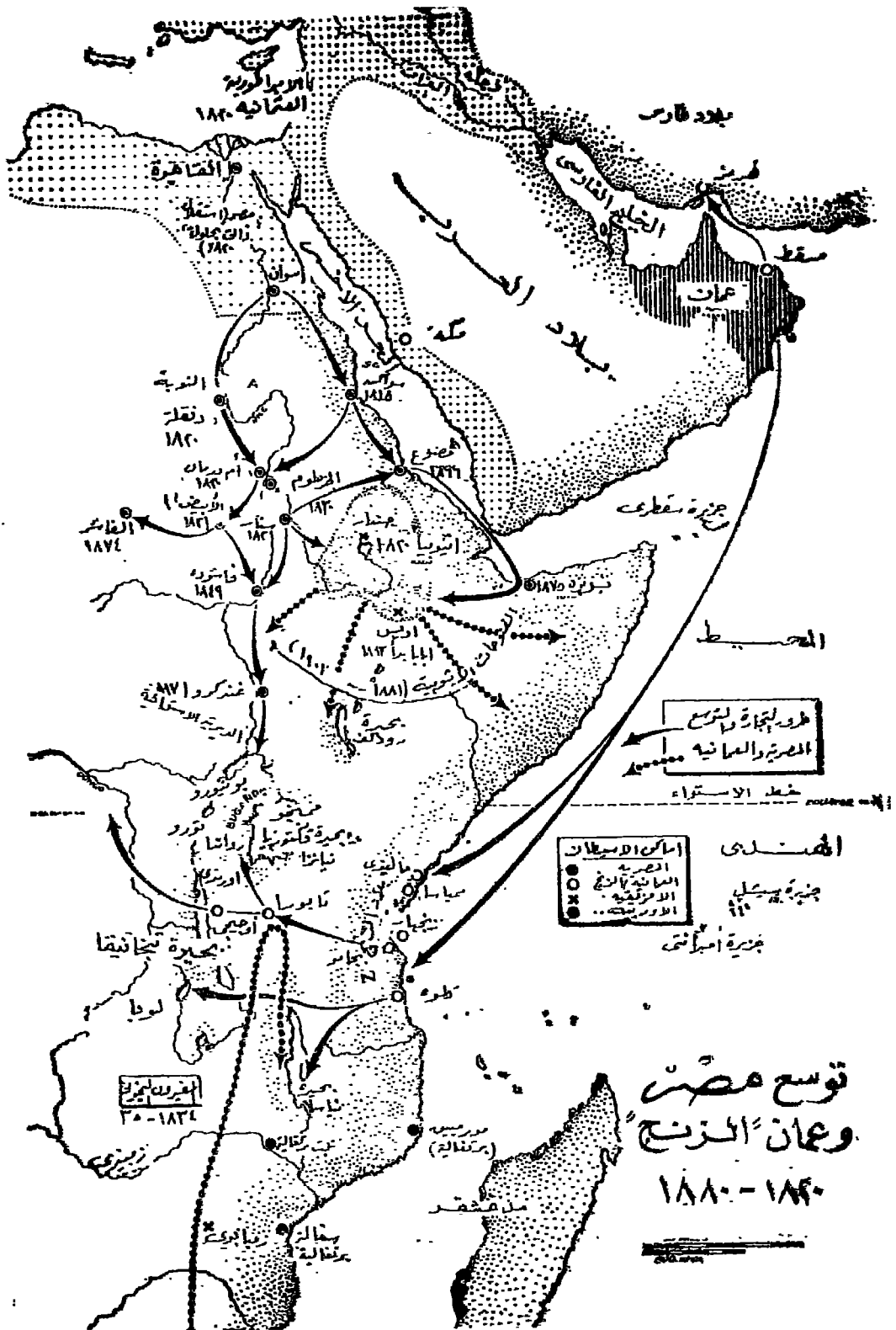
ونجحت زنجبار في ظل حكم السلطان سعيد المطلق في بسط سلطانها على الساحل من موزمبيق إلى الصومال ، فضلاً عن عمان وبعض اللواتي في بلاد فارس وبلوخستان . وشاع الاضطراب في جزء كبير من الأقاليم الداخلية في إفريقية ، واستطاعت زنجبار بفضل الاستغلال المنظم للزراع أن تحتكر الإنتاج العالمي من القرنفل ، وزاد حجم تجارتها عشر مرات في مدى عشرين عاماً .

وحرمت معاهدة هامرتون في عام ١٨٤٧ تصدير العبيد من إفريقية وبذلك

فقدت عمان مورد العمل لزارعها ، ولكن ظل يسمح لسفن المبيد بالسير بجوار ساحل الزنج ، وعجزت الداوريات البريطانية في أعلى البحار عن التفرقة بين تجار الرقيق للسواح لهم بمزاولة تجارتهم على امتداد الساحل ، وبين أولئك الذين يقومون بتهرب المبيد بطريقة غير قانونية . وبعد عام ١٨٦١ لم يكن مفروضاً أن تحمل السفن المبيد ولكن قباطنة الزوارق العمانية سرعان ما تعلموا كيف يعمثون الشك في نفوس البريطانيين بالإصرار على أن شخصاً منهم من الزنج لا تتكون من عبيد وإنما من رجال يقومون بإدارة المجازيف .

ومات سعيد في عام ١٨٥٦ ، وبعد سنوات خمس ثارت عمان إذ غضبت للخسارة التي عانتها في المبيد ، ولأنها هبطت إلى مركز ضئيل ثانوي في إمبراطورية الزنج . وأيدتها بريطانيا في المطالبة بالاستقلال مؤملة بذلك إضعاف الحلفاء على خرق المعاهدات التي تحرم الرق — واضطر مجيد سلطان زنجبار الجديد إلى قبول التقسيم . أصبحت إمامة عمان منصباً منفصلاً عن سلطان الزنج ، غير أن تجارة الرق لم تمت ولذلك بعثت بريطانيا في عام ١٨٧٣ بالسير بارتل فريير Frere لإجراء المفاوضات بشأن عقد اتفاق لتحرير المبيد . أغلقت سوق الرقيق ولكن لم يعقبه التحرير إلا في عام ١٨٩٧ في زنجبار نفسها ، وفي عام ١٩٠٧ في كينيا ، وفي عام ١٩١٩ في تنجانيقا .

وخلال توسع تجارة الرقيق في عهد السلطان سعيد وصلت بعض فروع طرق القوافل شمالاً إلى الحدود الجنوبية لبوجنדה والحافة الشرقية لرواندا — أورندي ، وفي نفس الوقت كانت سلسلة أخرى من تجار الرقيق تقترب من حدود بوجنדה الشمالية آتية من قواعد لها في مصر .



ظلت مصر قرونًا خاضعة اسمياً لسيادة الأتراك العثمانيين في الآستانة ، وكان العبيد منذ الأزمنة القديمة ينقلون بطريق النيل . وأدى الفتح الإسلامي لمصر إلى عزل سلسلة من الممالك المسيحية القائمة في حوض النيل الأوسط . استمر الرق قائماً ولكن التجارة كانت قليلة .

وفيما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر حدث تسرب إلى هذه الممالك انتهى باعتمادها الإسلام ، وخلال الفوضى كانت الدول القائمة في حوض النيل أضعف من أن تشن غارات كبرى من أجل الحصول على العبيد .

وبدأت مصر غزواً منظماً لأعلى النيل في عام ١٨٢٠ ، ذلك أن محمد على - وهو قائد عثمانى أثارهياج كل أوروبا بسبب معاملته للمسيحيين اليونانيين - أصبح « خديوى » على مصر فجعل منها دولة ذات سيادة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية<sup>(١)</sup> . وجاء التوسع بالجدد كما أدى إلى بعث الحياة في تجارة الرقيق ، وسدت بريطانيا الطريق البحرى في وجه هذه التجارة ، ولكن محمد على أنشأ طريقاً تجارياً في الداخل يمكن أن يعتمد عليها ، وقبل وفاته كان قد تم تخطى أثيوبيا وعزلها ، ووصل المصريون إلى الحافة الشمالية ليوجنندة الاستوائية أو إلى مسافة بعيدة في اتجاه الجنوب ، كانت قوافل زنجبار القائمة بأسر العبيد تثير أعظم الذعر .

عند هذه النقطة بدأ اهتمام أوروبا يشتد ، وراحت التقارير الواضحة الواردة

(١) كان محمد على والياً على مصر أمماً لقب خديوى فم يبدأ استخدامه إلا في عهد إسماعيل . كذلك من الخطأ القول بأن محمد على جعل مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، فليلاً للفرمان الصادر في عام ١٨٤١ ظلت ولاية تنترف بسيادة الدولة العثمانية ، وإن حصلت بتمتصاه على بعض مظاهر الاستقلال الداخلى ؛ للترجم .



— ١٥٥ —

من الداخل تبين الطابع غير المستحب لعمليات الاسترقاق ، ووضح أن الدنوربات البحرية لم تأخذ من المساوىء بشكل فعال .

وعندما فتحت قناة السويس في عام ١٨٦٩ تدخل الأوربيون في شئون مصر إذ كان هناك طريق جديد وقصير إلى بلاد الزنج ، وسرعان ما أبدت بريطانيا وفرنسا وألمانيا اهتماماً نشيطاً بالمناطق الداخلية شرق أفريقيا .



## غزو جنوب أفريقيا

بعد أن اجتاح الغيرون من جماعات السوثو والنجوني أراضي المونوموتابا، وحطموا موزمبيق البرتغالية فيما بين عامي ١٥٩٠ ، ١٦٢٠ ، عبروا نهر ليمبوبو إلى جنوب أفريقية ، وسرعان ما تشقت الخوسيون المتفرقون وذوو التنظيم الضعيف ، والذين كانوا السكان الوحيدين في البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ ، وقتل البوشمن أو فروا إلى صحراء كلهاري غربي السهل المرتفع الغطى بالحشائش ، وتحرك الكثيرون من الهوتنتوت جنوب رأس الرجاء الصالح وامتزج غيرهم بالغزاة البانتو .

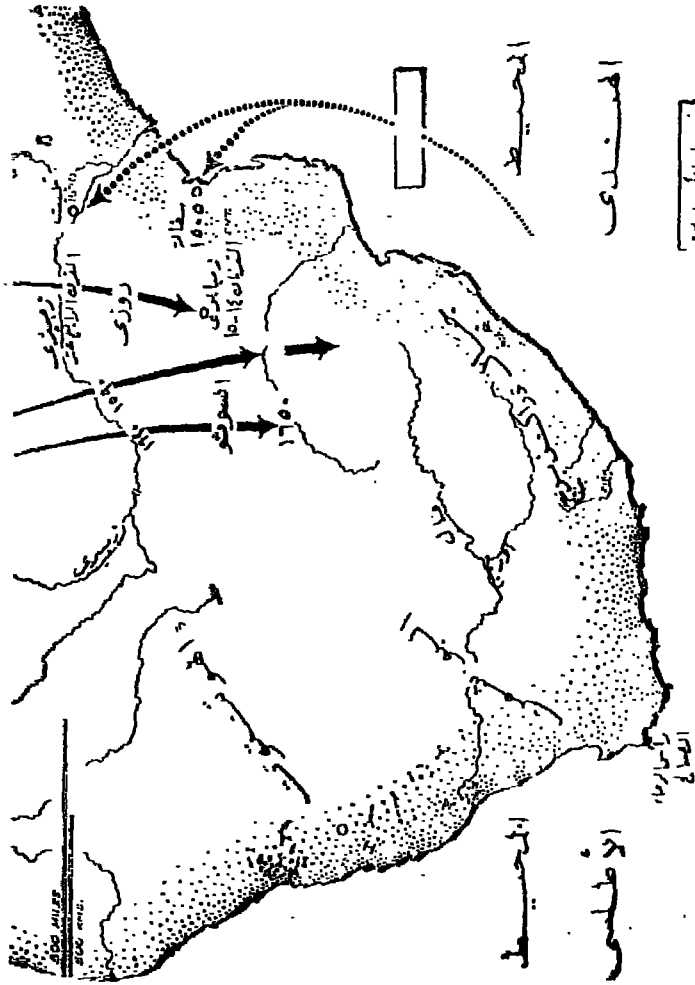
واستولى النجوني - وهم أول الغزاة وأشدهم وحشية - على الأراضي الساحلية شبه الاستوائية في ناتال الحديثة ، وبعد أن عبروا جبال دراكنزبرج من ترنسفال افتتحوا مجموعات أربماً لاحتلال البلاد الجديد ، فأقام السوازي في الشمال الشرقي ، واستوطن الزولو والبوندو والأكوسا على امتداد الساحل في اتجاه رأس الرجاء ، وعندما وصلوا إلى نهر كي كي Kei حوالي عام ١٧٠٠ كانوا قد تشبعوا مؤتناً بحافزهم على الغزو .

وبقى السوثو في الداخل بين جبال دراكنزبرج وصحراء كلهاري ، ووصل الفرع الجنوبي منهم خلال القرن السابع عشر إلى ولاية أورنج الحرة الحديثة ، وظل السوثو الشماليون في ترنسفال .

وبحلول القرن السابع عشر كان الخوسيون قد أخرجوا من معظم أفريقية باستثناء صحراء كلهارى وأفريقية الجنوبية الغربية الحديثة ومقاطعة الرأس . وعاش البوشمن على الصيد ، بينما كان الهونتوت متفوقين في تربية الماشية ، وكانت الأراضي التي ظلوا محتفظين بها ملائمة تماماً للحرف التي يزاولونها .

وكان البرتغاليون المتجهون إلى الهند يتوقعون عادة في مكانين وهم في طريقهم بين أوروبا والشرق في القرن السادس عشر ، وذلك في البرازيل ، أو أفريقيا الغربية وفي موزمبيق . ولم يكن رأس الرجاء الصالح مكاناً مناسباً للتوقف فيه ، وفضلت السفن الهولندية والإنجليزية التي حلت محل البرتغالية الطريق المفتوح والمتجه شرقاً من الرأس ، ولذا تعين عليها أن تجد موضعاً جديداً فتزود منه بالثؤونة بفصل الرحلتين الطويلتين عبر المحيط الأطلسي والهندي . واحتلت شركة الهند الشرقية الهولندية جزيرة سنت هيلانة فيما بين عامي ١٦١٧ و ١٦٤٥ ، بينما توقفت السفن الإنجليزية في المحطة الهولندية ، أو توقفت وحدها في جنوب أفريقية سعياً وراء الماء واللحم وربما لتدريب بحارتها .

غير أن سنت هيلانة لم تكن مكاناً يدعو إلى الرضا إذ كانت تقع في منطقة نفوذ شركة الهند الغربية الهولندية وكان مفروضاً في رجال الشركة الأخرى أن يتجنبوها . وكانت الجزيرة من الصغر بحيث لا توفر كل المطالب منها ، وغالباً ما كانت بعيدة عن الطريق بالنسبة إلى سفينة تحاول أن تجد أفضل الرياح التي تساعد . وحدث أن غرقت سفينة على مقربة من الرأس ، ونجح ملاحوها في قضاء شتاء عام ١٦٤٧ - ٤٨ في جنوب أفريقية ، فقرر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية أن ينقلوا محطتهم إلى البر .



احتلال جنوب فنصيه قبل عام ١٩٥٢

١٩٥٢

وفي ٦ أبريل ١٦٥٢ وصلت إلى تيبيل باي Table Bay ثلاث سفن تحمل المستعمرين والمؤن ، وفي اليوم التالي أنشأ الحاكم جان فان ريبسك Jan van Riebeeck مدينة الرأس ، وبدأ يعد الخطط لغرس الحدائق وتربية قطعان الماشية والقيام بقدر يسير من التبشير . لم تكن محطة رأس الرجاء الصالح تعتبر مركزاً للاستعمار أو قاعدة لغزو البرية وإنما اعتبرت مجرد محطة للخدمة ملصقة بمشروع التنمية الواسع النطاق الذي يتركز على جزر الهند الشرقية .

كان الوطن الهولندي مجرد اتحاد تماهدي من ولايات ذات سيادة ، سبق قبل ذلك بأربع سنوات أن نالت أخيراً استقلالها عن إسبانيا . وكان مجلس طبقات الأمة في الأراضي الواطئة المتحدة ضعيفاً وليس في وسعه اتخاذ أي عمل دون الموافقة الإجماعية من جانب المقاطعات الأعضاء ، إلا أنها جميعاً وافقت على منح الشركة امتيازاً في عام ١٦٠٢ يجعل منها بمنزلة لها ذات سيادة في تجارة الهند الشرقية وفي شئون الدبلوماسية والحرب ، وربما ظل الاتحاد الهولندي طيلة ٢٠٠ عام دون شركة الهند الشرقية الهولندية قوة والتي كان يدير شئونها من أستردام «السبعة عشر مديراً» أو السادة الكبار الذين يمثلون جميع الأقاليم التجارية الكبرى . وأصبحت باتافيا في جزيرة جاوة مركز العمليات في الشرق ، وأقيمت المحطات التجارية في اليابان والهند والسلايو وفورموزا وسيام ، كما أنشئت المزارع الكبيرة في إندونيسيا وسيلان ، ومن باتافيا أيضاً تدار شئون مدينة الرأس التي تستخدم السفن التي تربط هذه المراكز بأوروبا .

ومنذ بدء عصر الكشوف لم يكتشف الأوروبيون قوماً في غرابة البوشمن وأحققتهم بالثناء . كانوا يبديون عاجزين عن فهم أي تنظيم اجتماعي أكبر من

الأسرة، ولم يتشبعوا بأفكار الأوربيين الدينية أو التجارية، وسرعان ما شكل البوشمن والهوتنتوت مشكلة كبرى. بدأت الحرب في ظرف أربعة أيام ولج تهرز أى من المحاولات الضعيفة من أجل تنصير الخوسيين تقدماً، ونشأ التوتر منذ البداية بينهم وبين الأوربيين الذين بدا تاريخهم والأسباب التي جاءت بهم إلى جنوب أفريقية أموراً غير مفهومة. وبالرغم من أن فان ريبك كان تواقاً إلى الحصول على الماشية فان الهوتنتوت لم يتجروا معه إلا بصورة غير منتظمة، ولم يكن في الوسع الاعتماد عليهم إلا بعد انقضاء أجيال عدة من الاجتماع والاختلاط العنصرى تنشأ خلالها علاقة دائمة بينهم وبين المجتمع الهولندى .

وتعين على الشركة أن تقوم بتربية حاجتها من الماشية لتزويد السفن للارادة في طريقها إلى الهند . ولم تنجح المحاصيل كما كان مأمولاً ؛ وكان الجنود والفلاحون الذين جيء بهم على أساس التعاقد لفترات معينة من فقراء الفلاحين . وحاولت الشركة أن تستغل أراضيها في زراعة المنتجات الأوربية ولكنها لم تناسب مناخ منطقة الرأس . ولتصحيح الموقف جيء بالمستعمرين الأحرار في عام ١٦٥٧، كما جيء بالعبيد وهم الزوج من ساحل الذهب والملايون من باتافيا .

وبرغم أن الشركة أرادت الإبقاء على المستعمرة الصغيرة متماسكة بدأ الفلاحون الأحرار (ويقال لهم « البوير » في اللغة الهولندية) يتحركون في اتجاه الداخل سعيًا وراء أراض أفضل لأغراض الزراعة والرعى . وخشيت الشركة من أن تؤدي مثل هذه الهجرة إلى رفع تكاليف إدارة المستعمرة

وحرمانها من عنصر الكفاية ، وجمالها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ولم يأبه المهاجرون بالتنظيمات الرسمية placards لأنهم فضلوا إشباع حاجياتهم على أداء الرسوم والضرائب العالية التي تتقاضاها الشركة . ومهما يكن من أمر ظلت مدينة الرأس السوق الأساسية لمنتجاتهم .

كانت الهجرة أسهل وأرخص من التنمية الرأسمالية ، فكان نقل المحاصيل البستانية من الداخل كثير التكاليف ، ولكن كان في الإمكان سوق الماشية مسافات طويلة إلى أسواق الميناء حيث تباع في العادة بأثمان مجزية ، وبذلك كانت الهجرة عملاً مربحاً إذ يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية عند الحدود بدون الحاجة إلى رأس مال كثير ، وكان في الإمكان تجنب حكم الشركة العنيف ، وسرعان ما أصبح التوسع وراء الحدود هو التقليد السائد .

بل إن نسبة كبيرة من المستوطنين أخفقت في فهم الغرض من المستعمرة . كانوا راغبين بطبيعة الحال في الأتجار حيث يتوافر الطلب على منتجاتهم ، ولكن لم يشعروا بالتزام يقضى عليهم بالبقاء داخل اختصاص الشركة الفعال ، وكانت أغليتهم قد وفدت من الأقاليم الداخلية في الأراضي الواطئة ، وتعود الكثيرون منهم على أن يكونوا أقلية بروتستانتية في المناطق الريفية الجنوبية التي تغلب عليها الكاثوليكية ، وقليل منهم من كان يفهم أو يعنى بالعماليات التجارية المركبة التي تزاولها الشركة . وكانوا معتادين على الاعتماد على النفس وعلى سلطان أقليتهم بدلا من القيود التي يفرضها رجال الإدارة الرسميون ، وعلى الحياة بعيداً عن التجارة أو التجارة ، ووقع بعضهم الاتفاقات الخاصة بهجرته عن طريق الإغراء أو الخداع وظن الكثيرون أنهم وقعوا على اتفاقات بشأن



توجههم إلى جزر الهند بقصد الإثراء السريع ، ولذا استاءوا عند إنزالهم في رأس الرجاء الصالح حيث تعين عليهم الاعتماد على منظمة تجارية احتكارية من أجل أية عملية يقومون بها ، وبهذا بدت الهجرة أفضل علاج لخبية الآمل التي أحسوا بها .

وتحافت طبيعة حياتهم السابقة مع الضرورات التي تفرضها حياة الفلاح للمهاجر فخافت شعباً متميزاً . كانت الحياة عند الحدود تتطلب الاعتماد على النفس ، وليست شديدة التعقيد ، فابتدع البوير لأنفسهم نظاماً مستقلة تماماً عن جهاز الشركة . في هذا النظام كان الأب يرأس الأسرة التقليدية ، ويختار موظفي الجهة أو الحاكم المدني أو قائد « الفدائيين » من الجيران والذين يمكن أن تدعوهم أية أسرة ، كما كان يختار الأمناء ومنهم ستة يعاونون الحاكم المدني في إدارة شؤون الجهة ، وبالتدرج تقبلت الشركة هذا النظام إذ كان يمتاز بالكفاية والوفر في النفقات .

كانت جميع الأرض أينما توجه المهاجرون — تعتبر من الناحية الفنية ملكاً للشركة ، ويستطيع الفلاحون استئجارها لقاء حوالي عشرة دولارات في السنة وتصبح الإجارة منحة دائمة ومعفاة من الإيجار بعد انقضاء خمس سنوات ، وجرت العادة بأن تأخذ الأسرة مساحة قدرها حوالي ٦٠٠٠ فدان (٩٥٥ أميال مربعة ) لأنها تستطيع أن توفر الغذاء لما تملكه من الماشية .

لم تكن مدينة الرأس سوى مركز أممي في مشروع ضخم ، وكانت الجهات الرسمية لا تشجع الهجرة ، ولهذا نادراً ما توافر رجال الدين والعلماون واختلطت اللهجات الهولندية الريفية ، وتقبلت مؤثرات لها شأنها من البجارة المارين بالمنطقة

واستوعبوا كلمات كثيرة من الوطنيين الخوسيين والعبيد الملاويين ، وسرعان ما ظهرت لهجة خاصة بمدينة الرأس عرفت باسم تال Taal ولكن أخفقت القواعد النحوية وأساليب الهجاء التقليدية نتيجة عدم وجود المدرسين وانعدام الدافع المنبعث من ثقافة خارجية . وكان الدين يدور حول الأسرة ، فلكل أب إنجيل للأسرة مطبوع بالهولندية الأدبية ، ولكن بعد أن تغيرت اللهجة وتضاءلت المعرفة بالقراءة والكتابة أصبح من الصعب أن يطالعه . ونظراً لمدم وجود المفسرين المدرسين في الداخل أصبحت النظرة الشعبية إلى المذهب المسيحي بصورة متزايدة نظرة بسيطة وقائمة على اليقين . كان إيمان أهل الريف بأوروبا في القرن السابع عشر بسيطاً وخشناً ، ولكن عقيدة البوير كانت جامدة بصورة غير عادية حتى قبل مغادرتهم الأراضي الواطئة ، وبوصفهم أقلية في ولاياتهم الأصلية كانوا منعزلين بشكل ملحوظ عن التيارات الفكرية الجديدة . كانوا من أتباع كلفن ولكنهم مالوا إلى تفسير الأقلية الخاص لهذا المذهب الديني .

ويرجع جانب من هذا المذهب الفريد إلى الجدل الأرمني الذي نشب في الأراضي الواطئة في أوائل القرن السابع عشر. كان كلفن مؤسس للمذهب المصلح قد حذر من الإفراط في الثقة بخلاص اللراء .

« لكن إذا وقع علينا الاختيار في المسيح فسوف لا نجد تأكيداً باختيارنا في أنفسنا بل ولا في الرب الأب . . . على من يظن أنه واقف أن يحذر خشية أن يسقط<sup>(١)</sup> . » وزعم جاكوب أرمنيوس بعد ذلك أن جميع المؤمنين سوف

. (1) John Calvin : Institutes of the Christian Religion, 2 vols., Grand Rapids 1949, vol. 11, .pp 223,225

يشملهم انخلاق، وقرّر المجمع الكهنسي المنعقد في دوروت Dornit والذي استنكر رأى الرجل في عام ١٦١٩، أن انخلاق نين يشمل إلا عدداً محدوداً جداً من المسيحيين، وقال المجمع إن هذه الجماعة سوف تعرف أنها الشعب المختار. لم يعش المذهب الذي بشر به المجمع إلا أمداً قصيراً في أوروبا، ولكنه أصبح مذهباً دائماً بين الفلاحين الذين هاجروا إلى مدينة الرأس بعد ذلك بسنوات قلائل. لذلك ساد الاعتقاد في جنوب إفريقية بأن « المختارين » هم أولئك الذين استمسكوا بالديانة التقليدية والأسرة والإنجيل الهولندي، وبطيعة الحال كان هذا الاعتقاد يشمل جميع البوير بالقول، ولكنه استبعد البوشمن والهوتنتوت الذين صعب حملهم على اعتناق المسيحية.

ربما من سوء الحظ بوجه خاص في فترة التكوين الباكورة أن حدثت الاتصالات إلى حد كبير مع البوشمن والهوتنتوت، فالأوثون مختلفون بشكل واضح والأخرون تجار خاملون بحيث لم تكن هناك سوى فرصة يسيرة للتبادل الثقافي، ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى تعديل الأفكار الدينية. كانت ماشية الهوتنتوت مصدراً هاماً لتزويد الكاب باللاحم، ولكن غالباً ماتمين إجبار القبائل، على الاشتغال بالتجارة وسرعان ما اعتقد البوير أن القدر قد حكم بأن يبقى الأوربيون منفصلين عن « الوطنيين » وأرقى منهم، ومع ذلك لم تمنع هذه الاتجاهات الفلاحين من استخدام منتجات الوطنيين والأيدى العاملة الوطنية.

وسرعان ما أصبحت أصول عنصرية عدة ممثلة في مجتمع جنوب إفريقيا. كان العبيد اللاويون يقومون أصلاً بالخدمة المنزلية، ونادراً ما كانوا يؤخذون بعيداً

عن مدينة الرأس ، وواصلوا في العادة ممارسة شعائر الإسلام ، وظل البوير دائماً متميزين عن جميع الجماعات الأخرى في جنوب إفريقيا .

وبعد سنوات قليلة كاد عدد العبيد الزنوج أن يعادل عدد الأوربيين وكلهم ممن استوردوا من ساحل الذهب وموزمبيق . ونقل عدد كبير منهم إلى الحدود ، ولكن معظم ملاك العبيد كانوا يملكون من رأس المال ما يكفيهم للبقاء على مقربة من مدينة الرأس . وبالرغم من أن البوشمن والهوتنتوت كانوا أكثر العناصر أجنبية إلا أنهم كانوا لا يزالون قوماً أحراراً ، وكان الاتصال الجنسي SEXUAL مع الأوربيين كثير الحدوث بسبب عدد قلة النساء الأوربيات بالنسبة إلى الرجال ، ولم يكن ثمة ما يشين في انتهاك حرمة قوم زعم الأوربيون أنهم من جنس منحط ، وبذلك ظهرت جماعة كبيرة من المولدين كان يطلق على أفرادها في مبدأ الأمر اسم « أبناء الحرام » ثم عرفوا فيما بعد باسم الجريكابا أو اللونين ، وكانوا في العادة يشكلون طبقة من العمال الأحرار في الرأس ، ولكن الكثيرين منهم هاجروا فيما بعد إلى الحدود ليقبوا حكوماتهم شبه القبلية .

وفي عام ١٦٨٥ ألقى لويس الرابع عشر ملك فرنسا مرسوم نانت الذي ظل يحمي البروتستانت طيلة سبعة وثمانين عاماً . وإذا تعرض الهيجونوت الآن للاضطهاد في بلادهم ، هاجر ألوف منهم إلى الرأس عن طريق هولنده . لقد جاءوا بحثاً عن الحرية في ممارسة مذهبهم الكلفني وللإقامة بصفة دائمة . لم ترغب شركة الهند الشرقية الهولندية في استنجاهم ، ولكن البوير رحبوا بهذه الزيادة في عدد السكان الأحرار . وزادت الحماسة الدينية ، وساعدت حدة النظم

السياسية عند الهيجونوت على تفويض سلطان الشركة عند الحدود، ودعوا إحساس البوير بأنهم شعب فريد، ذلك الإحساس الذي كان قد بدأ يتكون فيهم. كان الهيجونوت قد قطعوا صلاتهم بوطنهم الأصلي، وخلال جيل أحدثت الجماعات بحكم الشعور بتماثل الأغراض ضد غير البيض والشركة والعالم. واتخذ الكثيرون من البوير أسماء هيجونوتية وسرعان ما ساد الجميع شعور بأنهم مواطنون من أهل جنوب إفريقيا بدلا من أن تكون جنسيتهم هولندية أو فرنسية.

وإذ هاجر البوير نحو الشرق متفرقين في ربوع الداخل شرقي مدينة الرأس تحولت الشركة نحو الموظفين الألمان للإبقاء على التكوين والتجارة في المدينة. مثل هؤلاء البروتستانت من إقليم الراين جاءوا إلى المستعمرة بالموسيقى والفن والرقية، ولكن نظراً لادم شعورهم بالولاء للأرض الواطئة أسهموا أيضاً في نمو جنسية جنوب إفريقيا. وظل رجال مناطق الحدود مضطربين إلى أن يسوقوا ماشيتهم إلى مدينة الرأس حيث يمكنهم الحصول على ما يلزمهم من الذخيرة والبن والملابس وغير ذلك من المواد، ولم يفعل التجار الألمان الذين تعامل معهم البوير شيئاً لمقاومة أفكار البوير الانفصالية وإحساسهم بالانفصال عن الأرض الواطئة. كانت مثل هذه التجارة سبيل الاتصال الوحيد بالعالم الخارجي، فيما عدا الاحتفال الديني الذي يقام في أقرب كنيسة عشية عيد الميلاد. وكان هذا هو الحقل الاجتماعي الوحيد، وغالباً ما كان الاتصال الوحيد بالدين المنظم أثناء السنة، وكان لا بد من إجراء عمليات التعميد والزواج والعشاء الرباني في ذلك الوقت، ولهذا لم يتح لتأثير الأفكار الوافدة من العالم الخارجي الفرصة كي يتغلغل في أعماق النفوس.



وبعد أن زاد الميجونوت من أعداد البوير ودعموا أفكارهم، انتشر سكان منطقة الحدود إلى ما وراء الجبال الساحلية. لم يكن في الإمكان نقل المنتجات الزراعية لمسافة تزيد على سبعمين أو ثمانين ميلاً، ولكن كان في الإمكان تسويق الماشية مع تحقيق ربح، ولهذا سعى المهاجرون في القرن الثامن عشر إلى اقتناء مساحات كبيرة لإنشاء المزارع لتربية الماشية. ففي عام ١٧٥٠ كان جميع الأوربيين لا يبعدون سوى خمسة وخمسين ميلاً عن مدينة الرأس، وبانتهاء القرن ابتعدوا إلى مسافة ٢٢٥ ميلاً، وبحلول عام ١٧٧٥ كان عدد ظليل منهم قد انتشر على طول نهر فش Fish، أي إلى مسافة ٥٠٠ ميل تقريباً نحو الشرق. وكان جزء كبير من أحدث الأراضي التي حازوها وهي هضبة كارو الداخلية، من الجفاف بحيث لا تصلح لغير الرعى. ولم يكن من الأمور المحزنة سوق الماشية إلى سوق المدينة من هذه المراكز البعيدة، ولذلك لم ينتقل الحد ثانية خلال نصف القرن التالي.

وكان أصحاب الأراضي في هضبة كارو الشاسعة يعانون مشكلات خاصة بالأيدى العاملة لم تكن معروفة في الأقاليم الأقرب إلى مدينة الرأس. كان العبيد أصلح لأعمال الزراعة. ولكن لم يكن في الإمكان الاعتماد عليهم بالدرجة الكافية لرعاية الماشية وهي ترعى في أمثال هذه المناطق الفسيحة عند الحدود، ومع هذا توافر العمال من ذوى الدراية بتربية الماشية من صفوف الهونتوت الذين أخذ نظامهم القبلي في التداعى عندما أخذت الأرض منهم، وزاد اعتماد سكان منطقة الحدود من البوير على هذا المصدر الذى يزودهم بالعمال المدربين للمستكينين، وأصبح الهونتوت يمتدنون من الناحية الاقتصادية على الأوربيين.

وعلى الحدود كانت أزمة في تاريخ أفريقية توشك أن تقع ، إذ أصبح القلاد الداخلي وساحل ناتال ومنطقة الرأس الشرقية موطن الزنوج البانتو ذوي النظام الطيب ، والذين سبق أن دخلوا جنوب أفريقية في أوائل القرن السابع عشر. ونظراً لتفوق تنظيمهم دفعوا الخوسيين من البوشمن والهوتنتوت أمامهم صوب الرأس حيث نزل البوير فيما بعد . وكانت قبائل البانتو تملك قدرات تكنولوجية جعلت منهم فلاحين ومحاربين أعظم كفاءة من الشعب الخوسي ، وزاد عددهم بسرعة ، ولذلك تقدم حد أرضهم بالتدريج حتى اقترب من حدود أرض البوير في أثناء القرن الثامن عشر .

كان الصيادون الهولنديون الذين توغلوا بعيداً في الداخل قد التمرو بالزنوج لأول مرة في عام ١٧٠٢ ولكن الاتصال بين موجتي الغزو — البانتو من روديسيا والبوير من مدينة الرأس — لم يتم حتى عام ١٧٧٥ حين تقابلت قبيلة الأكوسا مع المهاجرين البيض عند نهر فش . كان كل من الطرفين قد حل في جنوب أفريقيا منذ أكثر من قرن وكلاهما من «مواطني» البلد ويملك الماشية بوصفها قاعدة اقتصاده ، وإذ تقدم الاثنان راحا يطاردان الخوسيين. كان اللقاء بالغ الخطر والأهمية إذ أدى إلى الصراع بين طرفين قويين. كل منهما يدفع حده إلى الأمام . إن التاريخ الذي يعقب هذا اللقاء تسيطر عليه الطريقة التي واجه بها كل من الجانبين الموقف وتخطى حدود الآخر .



## البوير والبانتو والبريطانيون

كان حتماً أن يقع الصدام بعد أن التقى البوير التوقازيون ، والآكسوسا الزنوج عند نهر فش في عام ١٧٧٥ . كان كلاهما يشتغل بتربية الماشية ولكن اتجاهاتهما وعاداتهما كانت متباينة ومتأصلة في أعماق نفوسهما ، وكل منهما كان يريد التوسع على حساب الأراضي التي ترعى فيها ماشية الآخر . كان البوير يسعون إلى دعم مراعيهم وتوسيع نطاقها حتى يتسنى لهم إشباع المطالب الآخذة في الازدياد من جانب سوق مدينة الرأس ، وكان البانتو يضغطون من أجل الحصول على أرض جديدة تتسع لأعدادهم التي تسيّر في طريق الازدياد ، ولم يكن في وسع أي من الطرفين أن يدفع حده إلى الأمام دون أن يمتدى على حدود الآخر .

والزنوج الذين بدأوا يتاجرون في الماشية مع الفلاحين البوير سرعان ما عملوا على زيادة موارد مدينة الرأس من اللحم ، وبدأ فريق آخر من البوير يتحرك في الداخل إلى هضبة كارو، حتى وإن كانت الأرض أشد فقراً .

كان البانتو أوفر عدداً ولهم تقاليدهم التي تأخذ تيمداً الملكية الجماعية لكل شيء ، عدا الأدوات الشخصية ، أما البوير - وكانوا يملكون أسلحة أرقى تعوض النقص في عددهم - فواصلوا الإبقاء على التقليد الأوربي الخاص بحقوق

الملكية الفردية . هاتان النظريتان المتباينتان عن ملكية الماشية لم يكن يفصل بينهما سوى نهر فش، ولم يكن في الإمكان تجنب المصادمات . وكانت الماشية قيمة اجتماعية عظيمة عند الأكوسا إلى جانب قيمتها الاقتصادية ، إذ كانت الثروة نفوس بعداد رموس الماشية بحيث كان ينتظر من العريس الذي يعتمد الزواج أن يبين مركزه الاجتماعي وحسن نيته بأن يودع بعضها لدى أسرة العروس، وهذه العادة — ويقال لها لوبولا Lobola — كانت نوعاً من القرض أو التأمين وليست تمناً لشراء الزوجة ، كما ظن أحياناً البوير ورجال الإرساليات الدينية الذين جاؤوا فيما بعد .

وكان البوير في العادة يتمخون ماشيتهم بالنار لإثبات الملكية الفردية ثم يطاقونها للرعى في المرج الذي لا تحيط به الأشجعة ، غير أن الأكوسا ، كانوا يحتفظون بقطعاتهم في قرى Corrals أو تحت إشرافهم عندما تخرج للرعى ، وكانوا يعتبرون الماشية التي لا يرعاها أحد ملكية عامة إلى أن يأمرها أحد ويكبح جماحها . وعندما طبق الأكوسا هذا المبدأ على ماشية البوير التي كانت تسرح على طول نهر فش أنهموا بالسرقة . وإذا زادت حدة الاستيطان على جانبي النهر ، واشتدت دعاوى كل من البوير والأكوسا اتسع نطاق السرقة بسرعة إلى أن نظم البوير فرقاً تأديبية من « الفدائين » بقيادة أدريان فان جار سفلد . حاكم منطقة حدود الفلد ، وهذا العمل اعتبره الأكوسا حرباً بطبيعة الحال . وكانت المناوشات التي ترتبت على ذلك في سنة ١٧٧٩ أول « حروب الكفار » المتكررة التي كانت لعنة أصابت جنوب أفريقية مدى قرن من الزمان ( كان لفظ Kaffir باللغة العربية معناه في الأصل غير المؤمنين ، ولكن ما لبث أن أطلقه المسيحيون على الزنوج وكذلك على المسلمين ) . وأشاع زعيم

السكوماندوفان جازفلد الاضطراب في صفوف فرق الأكوستا باستخدام الخيلة  
واكتسب سمعة البطل حين عاد إلى حدود البوير وهو يسوق أمامه عدة آلاف  
من الماشية التي استولى عليها .

ونظم الهولنديون الذين كانوا قد توغلوا بالداخل في إقليم كارو ،  
مستعمرتهم drosdy في جرافرينت Graff-Reint في عام ١٨٧٦ . ولم تهيئ  
شركة الهند الشرقية الهولندية أية حماية ضد السرقة من جانب الكفار ، وبعد  
تسع سنوات قرر المستوطنون أن يتولوا الأمر بأنفسهم بإعلان استقلالهم ،  
وكان من المنطقي أن يصبح فان جازفلد بطل الحدود زعيمهم ، ولبس الفلاحون  
شارات مثلثة الألوان شبيهة بما لبسته جيوش الثورة الفرنسية .

وأصبح المجلس heemraden جمعية وطنية ، وتحول الفدائيون إلى جيش  
وطني راح يتعقب اللصوص من الكفار . إن نحو ١٤٠٠ من الأشخاص البالغين  
و ١٧٠٠ من الأطفال و ٦٠٠ عبد أنشأوا جمهورية تتحدث عن الديمقراطية والحرية  
والساواة والإخاء ؛ ولكن هدفها كان مجرد استقلال الحدود ، أما التأثير  
الفرنسي فلم يتجاوز الشعارات وعدداً قليلاً من المظاهر السطحية . كانت جمهورية  
المهاجرين الأولى التي ولدت بقصد الدفاع عن النفس ثورة ضد السلطة . كانت  
مدينة الرأس ما تزال هولندية ، ولكن البوير لم يشعروا بأى ولاء للوطن القديم .

وفي السنة ذاتها أي ١٧٩٥ تدخلت الثورة الفرنسية بالفعل وبصورة مباشرة  
في شئون جنوب أفريقيا عندما احتل البريطانيون مدينة الرأس . كانت فرنسا  
قد غزت الأراضي الواطئة وطلبت شركة الهند الشرقية الهولندية من بريطانيا  
العظمى أن تحمي مستعمراتها من جيوش الثورة ، وحاولت قلة من المستوطنين

بالهرب من الرأس مقاومة البريطانيين، ولكن قوات الشركة ورجال الحدود لم تحذ حذرهما .

جاءت بريطانيا لتسبق غزواً يقوم به الفرنسيون، وتوقعت أن تدير شئون المستعمرة الرأس بطريقة روتينية ومنظمة، بينما تطارد العدو في البحر، وأسّرت جراف ريفيت الفتية فأقترحت مبادلة ماشيئها بالأسلحة البريطانية بشرط أن تترك وشأنها عند الحدود، ولكن بريطانيا كانت تعزم أن تضطلع بالإدارة بصورة كاملة متقنة . وبعد سلسلة من المناوشات فيما بين عامي ١٧٩٧، ١٧٩٩ قضى على جراف ريفيت، وجيبت الضرائب منها وزج بزعمائها في السجن .

ولأول مرة بدأ النشاط التبشيري على نطاق واسع بين غير البيض عند الحدود . كان التنوير العلماني والإحياء الديني في أوروبا والذنان أديا إلى ظهور حركة النظامية *methodism* قد خلقت اهتماماً جديداً بحماية الأجناس الأجنبية فيما وراء البحار، وتحويلها إلى المسيحية، وتصادف أن وصلت هذه الحركة التبشيرية إلى مستعمرة الرأس خلال احتلال بريطانيا لها .

إن الصلة بين الاثنين من قبيل التوافق الزمني، ولكن البوير اعتقدوا أن الفكرة اخترعت، وشجعت عمداً بقصد إخضاع إقليم الحدود للتأثر . وقررت الجمعية التبشيرية بلندن أن تجعل محطاتها الرئيسية في جراف ريفيت، وأن تركز جهودها على تحرير الهوتنتوت الذين كان البوير يعتمدون عليهم لتوفير الأيدي العاملة . وتولى أمر الإرسالية القس جوهانز فان در كيب، وهو هولندي . استخدمه المبشرون الإنجليز . كان رجلاً متهاوناً من الناحية الأخلاقية — إذ سبق أن تحول إلى خدمة الكنيسة في أوطان المر ولكن لم تروض نفسه —

وكانت له أفكار عن نبل الهمج مستمدة من قراءة غير واقعية لمؤلفات روسو، وانتقد اتجاهات البوير إزاء الهونتوت والباتو، وغالباً ما كانت التقارير الفارية التي يبعث بها إلى الجمعية في إنجلترا تتضمن قصصاً مختلفة أو مبالغاً فيها عن أعمال القسوة التي ترتكب ضدهم. وسرعان ما كره البوير بسبب الأفكار الثورية التي يبنها في عقول من يمتنعون للمسيحية، وبسبب الأشياء التي كان يقولها ويكتبها، ولكن الجمعية استخدمت تقاريره لإثارة الرأي العام والتأثير في سياسة الحكومة. وحاولت وزارة الخارجية في العادة أن تتخذ موقفاً محايداً ولكن غالباً ما اضطرت إلى الاعتماد على المعلومات التي تصلها من إقليم الحدود متناقضة وغير منتظمة.

لم يفهم البريطانيون الأصل الخاص للعلاقات بين الأكوسا والبوير عند الحدود وطبيعتها الفريدة. كانوا يتوقعون أن يقوموا بالإدارة خلف حدود ثابتة، ومضمين على تجنب تكلفة ومسئولية الإشراف على الباتو. ومن أجل تقوية يد السلطة عند الحدود قرر الحاكم تجنيد الهونتوت في قوة البوليس. وكان الذين يقيمون منهم في إرسالية فان دركب صالحين بوجه خاص لهذا العمل، ولذلك سلحوا وألحقوا بالقوة.

اعتببت اللجنة بهذا القرار، ولكن البوير احتجوا عليه بشدة، فألى عهد قريب قبل ذلك كاز الهونتوت خدماً تابعين لهم، وذلك اعتبروا فكرة الخضوع لبوليس مسلح من غير البيض، أفراد من رجال الإرساليات التي تنير الاضطراب، فكرة مهينة.

أحدثت معاهدة أميان في عام ١٨٠٣ فترة سكون في الحروب النابوليونية

وأعيدت الرأس إلى الجمهورية البنافية، وهي حكومة هولندية مستقلة سياسياً عن فرنسا، لكن لم يتغير الكثير، فقد ذهبت شركة الهند الشرقية الهولندية، وتشبعت الجمهورية بالكثير من حماسة الثورة الفرنسية وفلسفتها الليبرالية. وصمم الموظفون الجدد — وهم الممثلون المباثرون لحكومة أمستردام — على أن يضطلموا بواجباتهم على الوجه الأكمل، فأبقى على البوليس المكون من الهوتنتوت وزيد عدد أفراداه، وقدم التأييد إلى الإرساليات وجمعت الضرائب بانتظام. لم تكن الإدارة الإصلاحية التي تولتها بتافيا أكثر تقبلاً لدى البوير من الإدارة البريطانية الغربية عنهم. كان من الواضح وجود اختلاف بالغ القدر في العادات والاتجاهات والأفكار بين جنوب أفريقية والأراضي الواطئة. إن إصلاحاً واحداً أدخلته بتافيا هو الذي ثبتت جنوره في إقليم الحدود، ذلك هو أنها أسندت إلى الحكام في مستعمرات القلد دوراً شبيهاً بدور قضاة الصلح في عهد النورمانديين مع منحهم سلطة فرض ضرائب وجبايتها وإقامة العدل على وجه السرعة، وبصورة بدائية، وقيادة الجماعة.

لم يقنع نابليون بالصلح فاستؤنفت الحرب في أوروبا وانهارت جمهورية بتافيا، وعادت بريطانيا إلى مستعمرة الرأس في عام ١٨٠٦، وفي هذه المرة لتبقى أكثر من قرن من الزمان.

وتأييد تملك بريطانيا الدائم للمستعمرة في عام ١٨١٥ في مؤتمر فيينا، ولكن الإدارة العسكرية استمرت حتى سنة ١٨٢٣. كان البوير قد أصبحوا بطريقة أوتوماتيكية من رعايا المستعمرات البريطانية. ومنذ البداية كانت مصالح الحكومة متباينة عن مصالح رجال الحدود الذين لا يخضعون لإدارة مركزية. وواصلت الإرساليات إرسال التقارير عن الفظائع التي يرتكبها البوير، ووجد

المحققون الإنجليز بعض حقائق تستند إليها الشكاوى، ولكنهم أحسوا أيضاً أن رجال الإرساليات كانوا يشجعون الهونتوت على مضايقة البوير. كما البوير يعتبرون في نظر أهل بريطانيا قوماً « خلووا من الروح الإنسانية » بينما يد غير البيض القوم الأبرياء المضطهدين، وأصبحت أعداد متزايدة من الهونتوت من رجال البوليس المسلحين، واعتبرهم البوير إهانة، وغضبوا لذلك لأنه يهدد المورد الذي يزودهم بالأيدى العاملة. وزادت حدة المشكلة بعد أن حرم البرلمان في عام ١٨٠٧ تجارة الرقيق، إذ جعل التحريم مناطق الحدود تعتمد اعتماداً كاملاً على العمال الهونتوت.

وفي عام ١٨٠٩ صدر مرسوم في مستعمرة الرأس يعرف باسم « الماجنا كارتا للهونتوت » زاد من التوتر بسبب ما نص عليه من تحريم العقود الخاصة بتشغيل المدنيين كما ضمن حرية العمال. إلا أنه حاول منع التشرذم بأن طالب الهونتوت بتسجيل أسمائهم وحمل جوازات للورور.

وكان الزحف من جانب الهونتوت في المستعمرة مشجعاً للأكسوسا الذين اشتد الضغط على مؤخرتهم بسبب توسع الزولو، فزادت الفارات التي شقوها عبر نهر فش عدداً وجرأة. وطلب البوير عند الحدود السماح لهم بتنظيم فرق من الغدائيين فرفض البريطانيون الطلب، وبدلاً من الاستجابة إليه أمر البوير بالتجمع وراء خط من الحصون غربى نهر فش بقصد الجيولة دون أى اتصال بالكفار.

وكان لقانون الأراضي الصادر في عام ١٨١٢ تأثير عميق على التوطن في منطقة الحدود، لأنه حاول إضفاء طابع الشرعية على هذا الخطر المفروض على

الاتصال بين القرينين ، فألقى معظم قانون الأراضي الهولندي القديم : كان المفروض أن النظام الجديد الذي يؤدي إلى زيادة سلطان بريطانيا المباشر نظام زراعي ، فيمنع وجود الماشية وبذلك لا يجد الأوسا ما يفريهم بشن الغارات على الحدود .

وطبقاً لهذا القانون لا يحصل المستوطنون الهولنديون إلا على ١٢٠٠ فدان بدلاً من التنظيم القديم الذي كان يجعل المساحة ٦٠٠٠ فدان . وطبقاً للنظام القديم كانت الضياع الكبيرة تصبح ملكية خاصة بعد أن يؤدي أصحابها إيجاراً سنوياً قدره عشرة دولارات لمدة خمس سنوات ، أما في التنظيم فإن الممتلكات الأصغر مساحة فرض عليها إيجار دائم قدره حوالي ١٠٠ دولار في السنة ، وكان المفروض أن تقسم بين الورثة .

كان رد الفعل من جانب البوير سريعاً وعنيفاً فأعلنوا أن الرسوم أعلى مما ينبغي ، وأنه ينبغي أن تبقى مزارع تربية الماشية دون تقسيمها ، على أن يحصل الورثة على أراض جديدة ، وأن الرعي أكثر جزءاً من الزراعة . من الناحية العملية كان النظام القديم القائم على الإجارة مدى الحياة يجعلها دائمة ، ولهذا فإن المنح البريطانية لم تتضمن أية مزايا . كان جوهر الخلاف بطبيعة الحال هو محاولة القضاء على تربية الماشية ، ولكن البوير كانوا يعرفون أن الحد الشرقي كان قليل الصلاحية للزراعة وأن الرعي أوفر ربحاً ، وأن إعادة التوطن سوف تزيد من المؤثرات الأجنبية في حياتهم .

وأغفلوا قانون الأراضي إلى حد كبير ، فتمسك المستوطنون بماكياتهم الأكبر مساحة والتي يستأجرونها مدى الحياة ، وواصلوا تربية الماشية لتسد حاجة



أسواق مستعمرة الرأس التي لا تشجع . كان البريطانيون قد عجزوا عن إدراك الحقيقة، وهي أن الماشية وليست المنتجات المزرعية هي الأساس الذي يقوم عليه اقتصاد الحد الشرقي، وأن المدن الغربية تعتمد في غذائها على قطعان البوير .

وبينما ثارت هذه المشكلة بدأ رجال الإرساليات يشجعون الهونتوت على مقاضاة رجال الحدود بسبب سوء المعاملة المزعم . وعينت الحكومة محكمة سوداء متجولة لسماع الاتهامات ، وإذا اتهم أحد من الفلاحين حتى . به أمامها لمحاكمته ، وغالباً ما كانت لجنة التبشير بلندن تقدم المحامين للدفاع عن المدعين ، وهنا اتهمها البوير بالتهاون و « عدم المسئولية » إذ ساءهم أن يعاملوا على قدم المساواة مع غير البيض .

إن بعض الأحداث التي شهدتها تلك المحاكم ارتفعت إلى منزلة الأساطير الخيالية القومية في جنوب أفريقيا الحديثة ، ومنها قضية بويز الخادم الهونتوتى الذى اتهم بخدومه فردريك بزويد تهوت بأنه أساء معاملته . وربما فعل بويز هذا تحت الإغراء من جانب الإرسالية ، ورفض بزويد تهوت المشول أمام المحكمة مدعياً المرض ، ولكنه راح في صبر يبعث بالردود على التهم الموجهة إليه ، وحاول أحد رجال بوليس الهونتوت إرغامه على الحضور إلى المحكمة فرفض السماح لغير البيض بالقبض عليه وقاوم البوليس وقتل .

وهناك أقسم أخوه جوهانز على الانتقام لمقتله وكتب جاز عطوف هو هنديريك برينسلو إلى جايبكا زعيم الأكوسا يقترح عليه عقد تحالف يمنع

بمقتضاه القبيلة أرضاً إذا ساعدت البوير على إقامة جمهورية مستقلة . اعترضت السلطات البريطانية الخطاب الطريق في وقبضت على برنسلو بتهمة التحريض على الفتنة وحاول الفلاحون الآخرون إيقاضه ولكنهم أخفقوا في إثارة ما يكفي من التأييد العملي من أجل قلب الحكومة العسكرية . وقتل جوهانز في المعركة ولكن معظم الفلاحين المتمردين قبض عليهم في سلاخترز نك Slachter's Nek وحكم عليهم بالإعدام في عام ١٨١٥ .

أجريت محاكمتهم طبقاً للقانون الهولندي الروماني وكان جميع القضاة من الهولنديين أو البوير وكانت الأدلة قاطعة . لم تكن الثورة بالتأكيدي فريدي في تاريخ منطقة الحدود ، ولم تنل الحركة تأييداً واسع النطاق في صفوف الفلاحين . ولكن الظروف الخاصة التي أحاطت بالإعدام أصبحت جوهر أسطورة كبرى .

قد طلب من عائلات الثوار شهود الشنق فأنهت المشانق ، وهو حادث مؤلم فسره الأسطورة بأنه « من فضل الله » لإنقاذ المحكوم عليهم ، ولهذا اضطرت السلطات إلى إعادة نصب المشانق وتكرار عملية الشنق . وتروى أسطورة لا يؤيدها الدليل أن الجلاد البريطاني كان يحمل في جيبه قراراً بالمغو ولكنه لم يبرزه ، وظل هذا الحادث يطارده حتى دفعه إلى الانتحار . وسرعان ما أصبحت سلاخترز نك رمزاً للمظالم التي عاناها البوير على أيدي الإرساليات ، والسياسة المتبعة إزاء الوطنيين والعدالة البريطانية ، وأصبح الثوار أبطالاً تحدىوا الحكم التعسفي والليبرالية التي أسىء توجيهها . ولقد بيعت في السنوات الحديثة بعض الشظايا من الخشب قيل إنها من بقايا مشانق الشهداء . وبالرغم من أن

الأحداث الحقيقية كانت ضئيلة الشأن، إلا أن الأسطورة التي بنيت حولها كان لها تأثير كبير على تاريخ جنوب أفريقية .

وتولى حكم المستعمرة بقية العقد الثاني من القرن التاسع عشر لورد شارل سمرست، وهو موظف واثق بنفسه ويعرف كيف يفرض سلطته . كان يترواح في سياسته القائمة على « نشر المذهب الأنجليكاني » أن تحقق الاندماج في صفوف البيض ولكنها ولدت الكثير من المرارة . أصبحت الكنيسة تضلح الهولندية السائدة هناك تخضع لسلطان الحكومة ، ولكن الأخيرة برغم أنها أنجليكانية درجت على أن تبعت إلى المستوطنين في مستعمرة الرأس رجال الدين من البريستاريين الأسكتلنديين، وكان على الهولنديين أن يتقبلوا التساوة الأسكتلنديين في إجراء مراسم التعميد والزواج والقداس ، ولكن البرستاريين كانوا موضع الاحتقار لأنهم كانوا يعارضون فكرة البوير عن القضاء والقدر ، ويستخدمون اللغة الإنجليزية بدلاً من الهولندية، ويبدون العطف على رجال الإرساليات . من ناحية الشكل كان الأسكتلنديون يتحكمون في ديانة البوير ، أما من حيث الواقع فقد نشأت هوة تفصل بين أفكار البوير والكنيسة الرسمية .

وظهر عمق هذا الانقسام حينما تقرر بعد عام ١٨٢٨ استخدام اللغة الإنجليزية في الكنائس، ولكن نادراً ما كانت تسمع في البيوت .

وثمة نوع آخر من المشكلات كان قد بدأ في الظهور وراء الحدود في المناطق الداخلية وشمالي الأوكوسا ، ففيما بين عامي ١٨٠٣ و ١٨١٣ شجع رجال الإرساليات أعداداً كبيرة من المولدين، أي الملونين، على مغادرة المستعمرة، فأقاموا

حول محطات الإرساليات على طول نهر أورنج هو أقاموا سلسلة من دول الجريكا شبه القبلية أخذت تسطو على البوشمن والحيوانات البرية والماشية الضالة ، وأعدت جمعية لندن القوانين والمحاكم والمستشارين لمساعدة « جمهوريات » الجريكا هذه ، واستطاع ووتر بوير — وهو من زعماء اللوينين — أن يفرض حكماً مركزياً بسيطاً على عصابات الجريكا المتفرقة .

ومد سمرست حدود الإشراف البريطانى بحيث يشمل حدود الجريكا حيث قامت تجارة فى الجلود بين الوسطاء البوير ووتر بوير ، ووقع الجريكا بطريقة غامضة تحت تأثير القيمين البريطانيين ، ولكن الحد الشمالى الشرقى كان بعيداً عن الاستقرار . كان فى الإمكان فى الأجل الطويل أن يصل الجريكا والبوير إلى اتفاق بشأن الحدود بحول مقدماً وبشكل فعال دون وقوع الصراع بينهم ، والواقع أن تلك المناطق كانت بعيدة عن أسواق الماشية فى مستعمرة الرأس ، وقاحلة بحيث لا تجتذب أعداداً كبيرة من البوير للإقامة فيها . كان الطرفان يستفيدان من التجارة ، وكانت المنازعات على الأرض قليلة جداً . وظل رجال الإرساليات يبعث الخلاف ، ولكن المشكلات اللبنة ما زالت المشكلات القائمة فى المناطق البعيدة نحو الجنوب .

كانت الأحوال على امتداد الحد الذى يشكله نهر فش قد تدهورت ، وكانت الخطة التى وضعها البريطانيون فى عام ١٨١٢ لإعادة التوطين وللتحصين خطة غير ذات أثر فعال فاستمر البوير يتمسكون بدعاويهم الأصلية وراحوا يدافعون بأسلوب الكومانندو ، ولهذا اشتبك المستوطنون والكفار فى صراع حر خارج عن ولاية السلطات .

وزاد الضغط من جانب الأكموسا بشكل ظاهر على امتداد الحد في الربع الأول من القرن التاسع عشر، واشتد الطلب على الأرض بسبب ازدياد عدد السكان. ولكن الأسباب المباشرة وراء الصراع كانت كامنة في المجتمع البانتوي، فعلى غرار الكثير من قبائل البانتو الجنوبية مال الأكموسا إلى الانقسام إلى قبائل فرعية عند موت زعيم من زعمائهم. مثل هذا الانقسام إلى قبائل شرقية وغربية حمل قبائل الأكموسا الغربية على الهجرة صوب نهر بنش في عام ١٧٧٥، وبعد ذلك لم تعد هناك أرض خالية وبذا لم تتمكن القبيلة من الانقسام، وبدلاً من ذلك نشأ التوتر في داخل مجتمع الأكموسا وأسهم في زيادة الفترات على الحدود.

ووجدت اتجاهات مماثلة في داخل القبائل الأخرى، وبخاصة الزولو. تمدين احتلوا الجزء الشمالي من ناتال. ففي أثناء المائتي عام منذ وصولهم في أوائل القرن السابع عشر كان النجوني الزولو قد انقسموا إلى مجموعة من الدول المستقلة، وكان يحيط بهم السوازي من الشمال والسونو من الغرب، أما من ناحية الجنوب فتأخاطت بهم تلك السلسلة من التيمبو واليونندو والأكموسا، والتي كانت تمتد حتى حدود مستعمرة الرأس. وفي عام ١٨١٦ انتقلت زعامة إحدى جماعات الزولو إلى تشاكا، وهو أمير ذكي بصورة غير عادية يمتاز بقدرته العسكرية خاصة. وبعد أن وصل عن طريق التفاهم والقتال إلى مركز الزعيم الأكبر في عام ١٨١٨ شن سلسلة من الحروب ضد جيرانه من السوازي، وأنشأ تشاكا جيشاً ميدانياً كفتاً يتكون من فرق ذات اكتفاء ذاتي، ومتماسكة تماماً ومسلحة بالرمح الخشبية assegais، وتحارب على هيئة هلال متماسك (كتيف في الوسط وله جانبان خفيفان مطبقان على الملوك).

كانت بلاد الزولو كلها تدين بالولاء « لنابليون الأسود » ، وكانت بلاد السوازي قد تعرضت للكثير من الأذى . وكانت الآثار المترتبة على ذلك والتي عمت أرجاء بلاد النيجر واليونان ، سبباً في دفع الأوسوس نحو للمستعمرة البيضاء الواقعة غربى الحد الذى يتله نهر فش .

وأبى بمصر قواد تشاكا أن يكون المجد كله من نصيب الزعيم الكبير ، فتحذى زويدى ومزيليكا زى سلطته للطلقة عند نهاية حروب السوازي ، ولكن تشاكا لم يرحمهم ، ففرت عصابات زويدى المعروفة باسم النجوى اللاجئين صوب الشمال إلى الإقليم المعروف اليوم باسم ترنسفال ، وذلك حوالى ١٨٢٠ - ١٨٢١ . هنا خلف زويدى ابنه زوانجندابا ، ولكن الحاربيين اللاجئين ظلوا أقوياء . وكان السوثو الشماليون الذين يقطنون الجهة مشقتين - ونظمت بقاياهم باسم قبائل باييدى ولوفدى وفندو - وسرعان ما استأنف النجوى مسيرهم نحو الشمال . وفى حوالى عام ١٨٣٤ عبروا نهر ليمبوبو ودخلوا روديسيا الجنوبية حيث قضوا على الروزوى ، آخر من كان يعرف سربناء زمبابوى وغيرها من المدن الحجرية . وحاول عدد قليل بمن بقي من الروزوى أن يتجمعوا وأن يبنوا لهم مدينة على مقربة من شلالات فكتوريا ، ولكن معظم المنطقة بما فيها زمبابوى ، ظل مهجوراً . وانتشر النجوى من أتباع زوانجندابا فى اتجاه الشمال حتى كادوا يصلون إلى بحيرة فكتوريا قبل أن يعودوا للاستيطان على طول بحيرة نياسا . من المؤكد أن زوانجندابا خلف وراءه بعض الدمار ، وقبل أن يستقر قومه كانوا قد أسهموا أيضاً بقدر كبير من القوضى والاضطراب اللذين كانا يميزان شرق أفريقيا فى منتصف القرن ..

وبذلك كانت الأرض مهددة أمام تجار الزنق للعراب الذين بدأوا عملياتهم في  
الداخل بعد ذلك بسنوات قليلة .

أما الثوار الزولو الآخرون الذين يتولى قيادتهم مزيليكاى ، فقد عبروا  
جبال دراكنزبرج في عام ١٨٢٣ . وإذا توغلوا كثيراً في دولة أورنج الحرة ،  
بمساعدة عن بلاد الزولو ، فإنهم فروا من وجه دكتاتورية تشاكا ومنطقة نفوذه .  
وجعل مزيليكاى من نفسه زعيماً لقبيلة جديدة هي نديبيل (والتي أطلق  
عليها السوثو والبور والجرىكا اسم « ماتابيل » ) . وكان تشاكا من حين  
لآخر ، يشن الهجمات ويجبر اللاجئين على الفرار أمامه عبر القلد ، ولكن  
مزيليكاى كان يستطيع دائماً إيقاع الهزيمة بالسوثو الجنوبيين الذين كانوا  
يشغلون المنطقة طيلة مائتي عام . وهرب بعض بقايا السوثو إلى حافة صحراء  
كلهارى حيث رحبوا بالحماية أو النصيحة من رجال الإرساليات التابعين للجمعية ،  
وكونوا سلسلة من القبائل الصغيرة ( بشوانا ، بمانجواتو ، بازولونج ،  
بانجواكتسى ، وغيرها ) . واحتس غنيرهم من بقايا السوثو في جبال  
دراكنزبرج ، ولكن نظراً لافتقارهم إلى زعيم تقليدى قبلوا بدلاً من ذلك  
أن يتسلط عليهم رجل عسكري من العامة يقال له موشيش . فنظم وسائل  
الدفاع ، وخلق دولة الباسوتو الجديدة التي كونها من ذلك الخليط الذي يفتقر  
إلى التنظيم ، ونجح في إعادة احتلال جزء صغير من الأرض الصالحة للزراعة  
البرافمة عند سفوح التلال حول حصونه الجبلية . وظل معظم القلد بين كلهارى  
ودراكنزبرج خالياً من السكان إذ لم يكن في وسع أحد أن ينظم مقاومة  
فعالة لاتباع مزيليكاى من المانابيل ، أولئك البدو الرحل الذين يعيشون  
على السلب والنهب .

وعندما انتقلت أزمة البانتو في الداخل إلى الأكوسا في عام ١٨٦٩ ، كان رد الفعل المبدئي من جانب بريطانيا بسيطاً . فمن أجل الحيولة دون وقوع الاتصال والحوادث الوخيمة العواقب بين البوير والأكوسا ، جعلت من الشاطئ الغربي لنهر فشر أرضاً محايدة . فطرد البوير ، وأنشئت منطقة حرام ، ووضعت داوريات يفترض فيها حفظ النظام في المنطقة . ولم تكن الضغوط من جانب بلاد الزولو ، مفهومة بطبيعة الحال . ومنيت السياسة بالإخفاق ، فقد استبد الغضب بالبوير ، وتدفق الأكوسا في حرية داخل الأرض الخلاء . وتصادف عند تنفيذ هذه السياسة أن كان الحاكم سمرست يقضي إجازته في إنجلترا ، ولكنه قلبها رأساً على عقب أثر عودته في العام التالي ، ومنح الحد المكون من نهر فشر ، والذي أصبح الآن خالياً إلا من القوات البريطانية ، إلى مجموعة من المهاجرين الإنجليز الجدد في عام ١٨٢٠ .

كان المفروض فيمن استوطنوا عند خليج ألباري « أن يعملوا على تثبيت الحد بأن يكثر فيه السكان من الزراع المخلصين » . غير أن قلة منهم هي التي سبق لها مزاوله الزراعة ، وكانت التربة فقيرة لاتصلح لتسير الرعي . وتعرضت المحصولات التي زرعت فعلاً للدمار بفعل الآفات أو الفيضان أو غارات الأكوسا ، مدة سنوات ثلاث على التعاقب . وساعدت أموال الإحسان الواردة من الهند وبريطانيا على الإبقاء على حياة القوم الذين امتلأت نفوسهم بالمرارة ، غير أن معظم الممونة التي تلقوها كان مصدرها البوير الأذكياء . المقيمين على مسافة بعيدة في الداخل ، والذين غالباً ما جمعوا ثروات طائلة عن طريق بيع الفداء والمؤن إلى خليج ألباري بالرغم من بعض مشاعر العطف التي



كانت تحركهم أحياناً . ومن بين الذين جنوا الأرباح الفاحشة بيت ريفين الذي أصبح فيما بعد من زعماء البوير السياسيين .

وعلى غرار ما فعل الهولنديون من قبل ، اشتبك الفلاحون الإنجليز أيضاً في القتال ضد المغيرين من الأكوستا . كانوا يشكون ، كما سبق أن شكوا البوير ، من افتقارهم إلى الحماية من جانب الحكومة . إن احتجاجات الإنجليز والالتماسات التي رفعوها في ١٨٢١ — ٢٣ أكثر بلاغة ، ولكنها في أساسها شبيهة بالالتماسات التي كان يتقدم بها الهولنديون في العقود السابقة . ورد سمرست على المظالم بأن حرم الاجتماعات السياسية ، وهي حركة أغضبت أهل إقليم الحدود من كلا الشعبين . وبعد أن أخفقت محاصيل المهاجرين ثلاث مرات ، هجروا الزراعة ليشغلوا بالتجارة والتجارة . وانتقل بعض المستوطنين الإنجليز إلى مدينة الرأس . وعلى مقربة من الحد أنشئت بورت إليزابث — وإيست لندن بمد ذلك ، وحل الميناء محل مدينة الرأس بوصفها أسواقاً لنطاق الحدود والوادي التي ترسو بها السفن . وأصبح المستوطنون في منطقة ألباني الوسطاء مع العالم الخارجي من جهة ، ومع اقتصاديات الناشئة عند الأكوستا أو البوير من جهة أخرى .

كان للتجارة تأثير عميق على اقتصاد الحدود . كان القيد الرئيسي على توسع البوير بدمهم عن أسواق مدينة الرأس ، ولم يكن من الجزى التوسع وراء نهر فوش أو إلى الأوريج في الداخل ، إذ لا تستطيع الماشية أن تعيش بعد أن تساق تلك المسافة الطويلة إلى مدينة الرأس . وبعد عام ١٨٢٣ ، حين ظهرت المستودعات الجديدة حول خليج ألباني ، دخلت منطقة شاسعة جديدة في نطاق

الأسواق الجزية . وبدأ البوير يتوغلون في الداخل حتى بلغوا نهر أورنج . هنا كان الضرر موسمياً وشحيحاً ، وظلت المستعمرات الرئيسية قائمة جنوبي النهر ، ولكنهم كانوا يضطرون أحياناً إلى أن يسوقوا قطعانهم إلى الشاطئ الشمالي حيث تجد الكلاً اللازم لها . لم تكن المنطقة في مثل خصوبة إقليم نهر فوش ولكنها كانت واسعة الأرجاء وخالية من السكان . وظل الجريكا مقيمين في الشمال الغربي ، بينما كان الأكوسا بطبيعة الحال على مسافة بعيدة نحو الجنوب ، على مقربة من الساحل . وخلا الفلد من جميع البانتو باستثناء الماتابيلي النهائيين الذين أملت عليهم الحكمة أن يرتدوا إلى القال . وبذلك لم تكن ثمة عقبة تحول دون توسع البوير وانتشارهم طالما كان في إمكانهم الوصول إلى أسواق الماشية ، ولذلك السبب توقفت محلاتهم فجأة عند نهر أورنج وحدود بلاد الجريكا الغربية .

وفيما بين عامي ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ أمر البرلمان بإجراء تحقيق واستعراض واسع النطاق بخصوص شؤون مستعمرة الرأس . وتعرض سمرست للنقد الشديد بسبب أساليبه العنيفة ، كما كان استقرار المستعمرة المالي موضع الفحص والتمعن . وانتهى الأمر بإعفاء الحاكم من منصبه ، وأقيم مجلس استشاري من موظفين معينين ليتولى معظم مهام الحاكم التنفيذية والتشريعية ، وجرى إصلاح النظام النقدي .

كانت الحكومات الهولندية قد أصدرت نقداً ورقياً لايدعمه سوى شريف السلطات ، وظل موضع التداول أثناء الاحتلال البريطاني ، وكان في استطاعة المضاربين تحقيق ربح عن طريق خصم هذا النقد ، كما كان الفلاحون

يستخدمونه في أداء الضرائب ، ولكن لم يكن في الإمكان استعماله في سد النفقات العسكرية والإدارية للمستعمرة ، ولكي يتسنى تمويل عمليات الحكومة ، كان سميرت قد عقد قروضاً باهظة تعرضت للنقد من جانب لجنة التحقيق . وكجزء من الإصلاح سحب النقد الورق الهولندي من التداول بعد تخفيض قيمته كثيراً . كان رجال الحدود في العادة يلجأون إلى القايضة بدلاً من استخدام النقود ، ولكنهم اعتقلوا أن إلغاء النقد كان محاولة متمردة القضاء على الرخاء الذي يعمون به ، وفضلاً عن هذا فإن أوراق النقد الهولندية كانت قد أصبحت رمزاً لتميز البورجوازية ومشاعرهم الانفصالية .

وأخطر من هذا بكثير الإصلاحات التي أدخلت على القانون . والحكم المحلي ومركز الهوتنتوت واللغة ، وفي معظم هذه الشئون كانت سنة ١٨٢٨ هي الحرجة بالرغم من عدم تطبيق السياسات فجأة أو بصورة منتظمة .

كان موضوع اللغة قد أثير قبل ذلك فيما يتعلق بالكنيسة المصلحة الهولندية التي سيطر عليها رجال الدين الأسكتلنديون منذ عام ١٨٠٦ . فقرضت العناصر الإنجليزية على جميع الوظائف الحكومية بالتدرج فيما بين عامي ١٨٢٣ ، ١٨٢٨ ، ولم يعد في الإمكان استعمال اللغة الهولندية في أعمال الحكومة أو المحاكم أو المدارس ، وكذلك تمين على الكنائس بوصفها أحد أجهزة الحكم أن تتخذ اللغة الإنجليزية في الصلوات والجامع المقدسة . وكانت النتائج بالتأكيد أقسى مما كان متوقفاً ، فابتعدت الجماهير عن مؤثرات التجديد وعن لاهوت كنائسها ، وسحب ثلثا الآباء أطفالهم من المدارس كي يتجنبوا التعليم باللغة الإنجليزية .

. وقرن أعضاء لجنة التحقيق أن النظام القضائي الهولندي الروماني القديم . كان قاسياً ومجافياً لروح العصر، وأنه يجب أن يحل محله قضاء بريطانيون ونظام المحلفين والقانون الإنجليزي واللغة الإنجليزية . لكن رجال الحدود البورر وجدوا جميع هذه المستجدات مقبولة إلى نفوسهم . وفي الأجل الضويل ظل القانون الهولندي الروماني متبعاً في المنازعات المدنية ، ولكن القانون الجنائي والتجاري أصبح إنجليزياً . ومن المشكلات المتعلقة بالقانون الهولندي كان افتقاره إلى التقاليد المتصلة التي يستند إليها ، وكانت هولندا نفسها قد اتبعت قانون نابليون في أثناء الثورة الفرنسية ، وكانت منطقة الحدود في مستعمرة الرأس تنقصها هيئة تشريعية متماسكة ، أو سلطة قضائية تستطيع تجديد القانون القديم .

وألقى الحكم المحلي إلقاء تاماً . فجرد ضباط القلد من سلطاتهم العسكرية ومن سلطاتهم المؤقتة بوصفهم من قضاة الصلح ، ونقلت جميع السلطة الفعالة إلى أيدي شبكة من مفوضي النواحي الذين أصبحوا مسئولين فقط أمام المجلس الاستشاري في مدينة الرأس .

ربما كانت الإصلاحات في اللغة والقانون والحكم المحلي ذات كفاية وتقدمية ، ولكنها كانت تحدياً لتقليد المسئولية المحلية والمشاركة المحلية ، الذي كان سائداً منذ القرن السابع عشر . وبذلك أدت التغييرات إلى تفكيك المستعمرة ، إلى جانب إدخال الزوج الحديثة فيها . إلا أنه بالرغم مما أثلرته تلك الإصلاحات من الأثرعاج في نفوس المستوطنين البورر ، طفت عليها وحجبتها الإصلاحات التي أدخلت على مركز الهوتنتوت .

كانت لجنة الإرساليات في لندن قد مدت شبكتها في جميع أرجاء إقليم الحدود وما وراءها في السنوات التالية لسنة ١٧٩٩ حين أنشأ فان در كيب المحطة الأولى . وأنشئت الإرساليات بين الهوتنتوت في جراف رنيت ، وفي أماكن إقامة الملونين في بلاد الجريكا ووادي نهر أورنج ، وأخيراً بين البانتو من جماعة السوثو والذين كانوا ينتشرون صوب الشمال من بلاد الجريكا على طول حافة صحراء كلفارى . وفي عام ١٨١٨ استبدل فان در كيب بالدكتور جون فيليب الذى كان من أنصار المساواة والفصل بين الأجناس . وكان للتقارير التى بعث بها في العشرينات تأثير عظيم على تفكير اللجنة في لندن ، وعلى الرأى العام الإنجليزى ، وتأثر بها البرلمان ووزارة المستعمرات . وزعم فيليب أن الهوتنتوت والجريكا يستطيعون أن يخلقوا حضارة إذا توافر لهم الإشراف من جانب الإرساليات الدينية ، ومنحوا مساحات واسعة من الأراضى ، وحرم الأتجار فى المشروبات الروحية .

لم يكن فيليب يدعو إلى قلب المستوطنين البيض أو طردهم ، ولكنه أراد منهم من استفلال العمال غير البيض . ومن أجل تحقيق هذا الغرض اقترح فصل الجنسين كلية . لكل من المجتمعين المتباينين أن يتجرع الآخر ، ولكن لكل جماعة أن تملك وتستغل الأرض الخاصة بها . كان قدر كبير من نواياه الأصلية مقولاً وتقدمياً بالنسبة إلى ذلك العصر ، ولكن يبدو أن موقف المستوطنين البيض — من الإنجليز والبوير — وسلوكهم ، قد أرهقا حكمه على الأمور . وكان يقول إن القوانين التى تحارب السرقة والتشرد هى قوانين تتعارض مع حرية العقيدة وحقوق الإنسان . وهاجم بقوة القوانين التى تقضى بحمل جوازات المرور لأنها تمنع الهوتنتوت الذين لا يملكون أرضاً من الفرار

من مظلوميهم . وأحس الكثيرون من أهل جنوب أفريقيا أن فيليب تجاوز حدود النزعة الإنسانية والاهتمامات الدينية ، وبدأ لهم التأكيد الذي كان يضعه على هذه الأمور وسيلة يريد أن يستفيد منها في تحقيق أغراض سياسية في إنجلترا . وأخيراً ، انتصرت وجهة نظره حين أصدرت لندن في عام ١٨٢٨ أوامرها إلى حاكم الكاب بإصدار الرسوم رقم ٥٠ الذي أثار الجدل .

كان في إمكان الهوتنتوت والبوشمن والجرىكا ، لأول مرة ، أن يملكوا الأرض . وألغيت قوانين حمل جوازات المرور ، ولم يعد في الإمكان بعد ذلك القبض بتهمة التشرذ على العاطلين من غير البيض . وضمنت حقوق مدينة مساوية التي يتمتع بها المواطنون البيض ، وبخاصة الملونين في بلاد الجرىكا ، وبدأ المستوطنون البيض يحتجون في مرارة على الخطر الذي يتعرضون له من قبل قطاع الطرق الذين لم يكن في الإمكان التحكم فيهم ، وراحوا يشكون من أن الهوتنتوت أو الملونين لا يريدون العمل عندهم ، ومن أن الدمار أحاق بنظام العمل عندهم وبمعاشهم ، ولم يدع لهم إلا عدداً صغيراً نسبياً من العبيد لزراعة الأرض أو رعى الماشية . ظل الرسوم رقم ٥٠ نافذ المفعول في مستعمرة الرأس حتى سنة ١٩١٠ ، وكانت الضمانات التي نص عليها بالنسبة إلى الملونين مدرجة في دستور جنوب أفريقيا طوال جيلين .

ووزع الدكتور فيليب قطعاً من الأرض ، وخطط القرى الحسوة إلى ربيع للهوتنتوت الذين جرى تحريرهم ، ولكن معظمهم هجرها بعد شهور قليلة . ولقد اتهم بأنه زور عقود ملكية الأرض ، وهي تهمة أيدتها لجنة تحقيق فيما بعد ، ولكن القضية لم يفصل فيها أبداً . وعاد معظم الهوتنتوت إلى مظلوميهم ،

ولكن حوالي ٢٥ في المائة منهم تحولوا إلى قطاع طرق يسرقون المحاصيل ، أو أصبحوا يمحون بغير دعوة على أقاربهم الذين يشتغلون بصورة منتظمة . وشك . الكثيرون من رجال منطقة الحدود في أن فيليب والهوتنتوت والكفار تواطأوا على رفع الأجور ومضايقتهم ، ولكن الجمعية التبشيرية بلندن أقنعت . وزارة المستعمرات بأن هذه الشائعات ليس لها أساس من الصحة .

وألقى الرق بمتضى القانون الذى أصدره البرلمان فى عام ١٨٣٤ ، وكانت جزر الهند الغربية تضم معظم العبيد فى الإمبراطورية البريطانية . وكان أصحاب المزارع الكبيرة فى العادة يعيشون فى لندن حيث يدفع التعويض الذى قرره البرلمان . وكان عدد كبير من البوير يملك عبيداً ، ولكنه كان صاحب ثراء ونفوذ . وبعد تحرير الهوتنتوت كان عبيدهم هم مصدر العمل الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . وحتى يقضى للبوير الحصول على التعويض المقرر لهم اضطروا إلى الاعتماد على وكلاء فى لندن كانوا يتقاضون عمولة تعادل ثلثى مدفوعات العتق . إن فقدان الأيدي العاملة ، والعمولات الزائدة عن الحد ، والاضطراب النقدى الذى ساد مستعمرة الرأس — كل ذلك زاد من الضيق الذى استشعره البوير .

كان جزء من المشكلة المترتبة على التحرير هو بطبيعة الحال طريقة التصرف . فى العبيد . وكان الترتيب الموضوع أن يشتغل ٣٩,٠٠٠ من العبيد السابقين لمدة أربع سنوات تحت التمرين ، ولكن لم يمض شهر حتى شن الأكووسا حرباً على منطقة الحد حطمت كلاً من نظام التمرين وجباية مدفوعات العتق . وفى هذه المرة أعدت الحكومة قدراً من الدفاع القدير . كذلك نظم بيت .

رقيقف فرقة من الغدائيين تتكون من المستوطنين البور والإنجليز . وأسهم الكثيرون من الفلاحين في نفقات الحرب الدفاعية التي دامت سنتين ، كما قتلوا أيضاً محاصيل سنتين ومواردهم من الأيدي العاملة ، ومعظم المال الذي حصلوا عليه ثمناً لتحرير عبيدهم ، وهوت أعداد كبيرة منهم إلى الإفلاس ، ووقع الحجز على مقتنياتهم المرهونة . ولم يتمكن الذين قتلوا ممتلكاتهم من التوجه إلى أى مكان آخر بالمستعمرة ، وكانت الحكومة تعرض كل الأراضي غير الملوكة لأحد في الزاد لمن يدفع فيها أعلى ثمن ، وذلك بدلاً من توفيرها للإقامة الساكن الرخيصة .

وحاول الحاكم دربان D'urban الذي وصل حديثاً من إنجلترا ، أن يضع حداً لمنازعات الكفار بضم أجزاء من بلاد الأ كوسا . وكان يأمل أن يجمل زعماء الأ كوسا مسئولين أمامه عن الأعمال التخريبية التي ترتكبها القبيلة . غير أن البور فسروا مشروعه على أنه تحالف بين الإنجليز والبانو ، يهدد أمنهم . واحتج ذوو النزعة الإنسانية ومعظم رجال الإرساليات على مشروع دربان بشأن الاستيلاء على بلاد الأ كوسا وسط سيطرته عليهم . ولم يمض عام حتى اضطر دربان إلى الانسحاب نحو الحد الذي كان قائماً من قبل على امتداد نهر فش . ومرة أخرى ترك الأ كوسا لوسائلهم الخاصة ، وعاد جميع المستوطنين عند الحد فأصبحوا بغير دفاع . وثار غضب رجال منطقة الحد من الإنجليز والبور على حد سواء ، واستأنف الكفار هجماتهم التي لا تلتين .

وفي عام ١٨٣٤ أرسل بيت رقيقف ثلاثة من رجال منطقة الحد للبحث عن أرض جديدة ، فذكروا أن السهل المتدوراء نهر أورنج يبدو خصيباً ،



خالياً من السكان وجذاباً . وفي خريف عام ١٨٣٥ فررت حوالي ١٥٠ من أسرات البوير مفادرة المنطقة الخاضعة لسيطرة بريطانيا . وأصدر البرلمان قانون العقوبات لاستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وينص على خضوع جميع الرعايا البريطانيين للقانون الإنجليزي حتى ولو غادروا المستعمرة . كان المقروض في القانون أنه تحذير لكل من تحمله السذاجة على الظن بأن في وسعه نبذ الجنسية البريطانية بمجرد الانتقال إلى مناطق غير منظمة . وطالب بيت ريتيف في جناء بأن توفر لهم الحكومة الأمن أو تمنحهم الاستقلال ، ولكن أهدافه كانت موضع الشك التزايد . وفي عام ١٨٣٧ راح مع ٢٠٠٠ غيره يعبرون نهر أورنج .

لقد بدأت الهجرة الكبرى . كان لويس تريجاردت في عام ١٨٣٥ أول من خرج ، وأعقبه آخرون في عام ١٨٣٦ وهم يتعثرون في سيرهم ، ولكن المجموعة الرئيسية هاجرت فيما بين فبراير وسبتمبر من عام ١٨٣٧ . وعاد معظمهم إلى التجمع خارج المستعمرة في أعماق القلد الخالي وراء نهر أورنج عند موقع المعسكر الذي أقيم عند ثابانيهو . وهناك أمضوا شتاء عام ١٨٣٧ ( الذي يمتد من أبريل إلى أكتوبر في نصف الكرة الجنوبي ) .

كان الحد الذي خلفوه وراءهم إما مضطرباً أو مهجوراً . وانعقد لسان حديان ووزارة المستعمرات وأصابهما العجز . لقد نقلت الهجرة الكبرى الحد وراء منطقة النفوذ البريطاني ، ولكنها في النهاية لم تحمل الشكولات الملحة في مستعمرة الرأس : أرض الأكوسا ، حقوق الهوتنتوت ، إرساليات الجريكا ، تنفيذ القانون ، أو محاولة تحقيق الموازنة بين المصروفات والإيرادات المتحصلة من الضرائب .



## الهجرة الكسبية وجمهورية

بقى معظم البوير في مستعمرة الرأس ، ولكن الذين هاجروا في عام ١٨٣٥ - ٣٧ حملوا معهم روح الاعتماد على النفس التي يتميز بها أهل الحد ، وشعروا بأنهم جنس له ذاتية مستقلة عن بريطانيا أو العالم ، حملوا أقوى طائفة من المظالم ضد الكنائس التي يسيطر عليها الأسكتلنديون و ضد الباتو ورجال الإرساليات الدينية . كان البوير يعتقدون أن الفلد خال من السكان ولم يدركوا أن هجرتهم سوف تحطم الحدود الواضحة التي تفصل بين مناطق البيض وغير البيض .

ليس من السهل التفرقة بين الأسباب الحقيقية التي تعزى إليها الهجرة وبين الأعدار التي اكتشفها المؤرخون ورواة الأساطير في السنوات المتأخرة . يقول الوطنيون المحدثون إن بريطانيا كانت تعترض محاولة فرض نظام الزواج المختلط بين السود والبيض ، وأن الأرض كلها ستمنح للهنوت ، وأن الجمعية التبشيرية بلندن أعدت مشروعاً للقضاء على لغة البوير وديانهم ، أو أن الحكومة كانت قد بدأت في تأييد الكفار . وفي التقرير الذي رفعه سير جورج نايبير إلى وزارة المستعمرات في عام ١٨٣٨<sup>(١)</sup> نراه يقدم الكثير من التفسيرات ومنها :

(١) اقتبسه جون بيرد في كتابه « حوليات ناتال » ، جزءان ( Pietermaritzburg 1888 )

البحث عن قرية أفضل وضرائب أقل وطأة وأرض لشعب آخذ في التزايد ، الجفاف الذي لم يسبق له مثيل ودام عامين عند الحد القديم ، اعتماد سكان منطقة الحد بعضهم على بعض بحيث إذا بدأت قلة منهم في الهجرة فلا بد أن يتسرم الباقون خطأها ، المرارة التي ملأت النفوس بسبب المدفوعات عن تحرير الرقيق ، وعدم اطمئنان الهولنديين إلى حقوق ملكيتهم للأرض في ظل القانون الإنجليزي ، السخط بسبب الغارات التي يشنها الكفار ، والقلق من ناحية السياسة البريطانية إزاء الاكسوسا والاعتقاد بأن المعاهدات المعقودة مع الوطنيين ليس لها تأثير فعال . وتضع اليوميات التي خلفها المهاجرون<sup>(١)</sup> التأكيد على الرغبة في حماية ديانة القوم من تأثير اللاهوت الحديث ، والخوف من أن الحكومة قد تفرض عليهم الكاثوليكية ، والاستياء من تدخل البريطانيين في « العلاقات الصحيحة بين السيد والخدام » . هذا البنفس « للسواة الدنسة » ربما كان دافعاً على حركة الهجرة ، أقوى من أى عامل آخر .

وواضح أيضاً أن مزارع تربية الماشية عند الحد وراء نهر أورنج سوف تكون أبعد مما يجب عن أسواق الموانئ البحرية . فإذا أريد احتلال أرض جديدة أو تجنب سيطرة البريطانيين على الأسواق ، فإن الحل الوحيد يتمثل في الهجرة الجماعية إلى أرض قريبة من تلك الأجزاء الواقعة على ساحل إفريقية الشرقية والتي لا يدعيها أحد . وما من شك<sup>(٢)</sup> أن المهاجرين كانوا يهدفون

(١) انظر القائمة الدعمة بالأسانيد عن روايات البوير في :

Eric A. Walker : A History of Southern Africa ( 3 rded . ) London, 1957, P. 197, n. 3, part ( a ).

S. Daniel Neumark : The South African Frontier, 1652—1856: ( ٢ )  
Economic Influences, Stanford, 1956, pp. 168—170

إلى تخطى الاكسوسا حتى يقسنى لهم إنشاء الموانى الخاصة بهم فى ناتال وخليج  
ديلاجوا، وحيثذ يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية على حد يتفرع صوب  
الخارج من المنافذ الجديدة .

ولازم سوء الحظ الجماعتين الصغيرتين اللتين هاجرتا فى عام ١٨٣٥ قبل  
حركة الهجرة الرئيسية . فاختر مرافقو تريجات الترنسفال الشمالية ، ولكنهم  
اضطروا إلى هجرها سعيًا وراء الإحسان من جانب البرتغاليين فى لورنزو مركززو،  
فأرسلهم الأخيرون إلى ناتال فى عام ١٨٣٩ . واخترى جان فان رتبرج تمامًا  
فى عام ١٨٣٦ ، وبعد ذلك باثنى عشر عامًا عشر على نظام وعربات جماعته فى  
موزمبيق حيث قتل أفرادها ، وواصلت المجموعة الرئيسية بعد ذلك بقليل السير  
إلى مستعمرة الرأس بقدر أوفر من الحذر والتنظيم .

وخلال عام ١٨٣٦ تجول أندريز هندريك بوتجيتير فى أنحاء القلد حيث  
اصطدم مع الماتابيلى وهزمهم ثم عاد إلى ثابانيهو لمقابلة المهاجرين الذين وفدوا  
فيما بعد . وكان الماتابيلى النهابون بقيادة الزعيم مزيليكازى الوحيدين الذين  
شغلوا حوض القال بصورة فعالة ، ثم فروا صوب الشمال إلى المنطقة التى خلت  
حديثًا من أهلها فى روديسيا الجنوبية ، والمروفة منذ ذلك الحين باسم بلاد  
الماتابيلى (ماتابيلاند) .

لقد انتصر بوتجيتير ولكن قوته صمفت بشكل خطير ، فانضم إلى جماعة  
جيريت مارتيز عند ثابانيهو . وانتخب مارتيز ومجلس من ستة أعضاء لتشكيل  
هيئة تنفيذية للمجموع المهاجرين . ووصل بيت ريتيف فى أوائل عام ١٨٣٧  
وونجح فى أن ينتخب حاكمًا عن طريق استغلال التنافس بين بوتجيتير ومارتيز .

وخلال يونيه وصل جا كوبس وبيت يوز وها آخر الشخصيات الرئيسية .  
 وبينما أقامت الجماعات معسكراتها سوياً لقضاء فصل الشتاء ، زادت المنافسة بين  
 الزعماء . كان كل منهم ينفرد بصفة لاغنى عنها للآخرين ، ولكن أحداً منهم  
 لم يكن على استعداد للخضوع لغيره . كان بوتجيتز نهماً بشكل خاص للحصول  
 على الأرض ، وهذا مكنه من السيطرة على المراعى التى كان الآخرون  
 يريدون الحصول عليها . وكان ماريتز أوفرهم خيرة فى النواحى القانونية  
 والإدارية ، فيما كان ريتيف أقدرهم على التنظيم السياسى العملى والانتخابى .  
 وكان ظاهراً أن الآخرين يوز أشده غيرة على استقلالهما الذاتى وإن احتفظت  
 كل الجماعات باستقلالها فى المسائل العسكرية .

ولم يجل اكتوبر حتى طغت عناصر الحزبية والضجر على السطح فى تابانيهو  
 فأقترح إخوان يوز الانتقال إلى ناتال ولكنهم أبطأوا فى التحرك . وادعى  
 بوتجيتز الحق فى جميع الأراضى الواقعة وراء نهر فال ، ولم يأت شهر اكتوبر  
 حتى أقام لأتباعه جمهورية مركزها بوتشيفستروم Potchefstroom . أما جماعة  
 بيت المقدس Jersalemgangers التى تميزت بالعناد والإصرار فتحررت صوب  
 أرض الميعاد ، وكما فعل موسى فى عهد الخروج عبرت النيل Nyl ( وهو جدول  
 فى ترنسفال ) ولكنها هلكت فى مكان بعيد ناحية الشمال . وفى هذه الأثناء  
 سبق ريتيف المجموعة الرئيسية كى يدبر لها الأرض فى ناتال .

وبينما كان المهاجرون يجاهدون فى نقل عرباتهم وماشيتهم عبر جبال  
 درا كنفزبرج دخل بيت ريتيف فى مفاوضات مع دنجان Dingaan زعيم الزولو  
 الذى خلف تشاكا وأصبح القوة التى تتحكم فى ساحل ناتال . ساوم دنجان ولكنه

قبل في النهاية عقد معاهدة غير أنه في الواقع كان لا يهدف إلا إلى تعطيل ريفيف إلى أن يتم إعداد محاربيه . وقبض على الرسل غدراً وذبحهم في ديسمبر عام ١٨٣٨ ( وهو حادث يعرف باسم « يوم دنجان » وهو إجازة في جميع أنحاء جنوب إفريقيا تخليداً للذكرى ) . وحل أندريز بريتوريوس مكان ريفيف قائداً عسكرياً ، ولكن محاربي الزولو نجحوا في توجيه ضربة شديدة إلى جبهة المهاجرين الرئيسية وهي تهبط من جبال درا كينزبرج على مقربة من وينين Weneen وأعاد بريتوريوس تنظيم قواته واندفع نحو الساحل وأنزل بالزولو هزيمة حاسمة حيث قتل ثلاثة آلاف محارب ومعهم الزعيم دنجان عند نهر الدم . قبل عيد الميلاد بتسعة أيام . كان للجمهورية التي أنشئت في تابانيبو وطن دائم . سيطر فيه السادة البوير لأول مرة على قبائل البانتو .

وعندما أعلن قيام جمهورية ناتال رسمياً في عام ١٨٣٩ وضعت « سياسة » حديدية « لمعاملة الوطنيين » أخضعت جميع الزولو لسلطان سيتيوايو وهو زعيم كان ألوية في أيدي البوير ، وخلف دنجان في منصبه . كانت هذه السياسة بطبيعة الحال تركز على معالجة أشد المشكلات إلحاحاً في البلاد ، ولكن ظهر أيضاً شكل بدائي من التنظيم البرلماني . كان كل زعيم عسكري في القلد يطلب إلى قومه انتخاب من يمثلهم في الجمعية الوطنية Volksraad ، وأصبح الأربعة والعشرون رجلاً الذين غالباً ما تضمنت القوائم أسماءهم ، هم الممثلون لأهل الجمهورية ، كانت الجمعية التمثيلية تملك من الوجهة النظرية جميع السلطات ، ولكنها نادراً ما اجتمعت إذ كانت القرارات التي يتخذها بريتوريوس موضع رضاء الشعب كما كانت الحكومة المركزية المنظمة موضع الشك .

وبالرغم من وجود الأراضي الزراعية الجيدة وميناء دربان القريب منها مما جعل من ناتال وحدة اقتصادية قادرة على البقاء ، فإن المستوطنين كانوا يتوقون إلى إيجاد أسواق خلاف أسواق الإمبراطورية ، وحلفاء قد يعارضون في احتلال بريطانيا لهذا البلد الجديد . وادعى رحالة هولندي يقال له سميلسكا مب أنه مندوب عن حكومة الأراضي الواطئة وأعلن أن الملك يتعهد باستخدام « قوته العظيمة » لتأييد ناتال . كان الرجل مجرد مغامر انتهازي ، ولكن يبدو أن البوير لم يدركوا هذه الحقيقة ، كما لم يفهموا أيضاً أن الأراضي الواطئة لم تعد دولة عالمية كبرى .

لكن من المؤكد أنه كان لدى البوير سبب طيب يجعلهم يخشون وقوع عدوان بريطاني . كانت قوات جلالة الملكة تبتدى الاهتمام بساحل ناتال الذي لم يطلب به أحد ، بالرغم من أن بريطانيا لم تتقدم بأية دعاوى رسمية بهذا الصدد . والواقع أنه كانت هناك كتبية بريطانية صغيرة في ثغر دربان عندما وصل المهاجرون ؛ وعندما أعلنت الجمهورية انسحبت الكتبية ، ولكن بريطانيا لم تنازل تنازلاً تاماً أبداً عما لها من « مصلحة » هناك . ولكن كانت هناك مشكلة أكثر أهمية . أثارها الهجرة وأثارها احتلال ناتال ، وهى : هل يفقد الذين ينتقلون من بلد منظم إلى إقليم لا يدعى أحد الحق فيه ، مواطنيهم في البلد الذي غادروه ؟ وهل يستطيع البوير الذين يغادرون الأقاليم البريطانية أن يقيموا دولة مستقلة ، أم هل يظنون رعايا بريطانيين إلى أن يصبحوا مواطنين في بلد منظم آخر ؟ هذه المشكلة التي لم تفض تماماً ، تكمن وراء الكثير من المنازعات التي يشهدها جنوب إفريقية فيما بعد . يمكن القول في القرن العشرين أنه لا يمكن تغيير الجنسية بغير إذن خاص أو نتيجة ثورة ناجحة أو بطريق الهجرة إلى أرض



أجنبية منظمة . وكان هناك حقاً قانون بهذا الصدد في أثناء فترة الهجرة كلها ( وهو قانون العقوبات في رأس الرجاء الصالح لعام ١٨٣٦ ، وكان ينص على خضوع الرعايا البريطانيين للقانون البريطاني حتى في خارج الأراضي البريطانية ) ، ولكن هذا لم يكن قد أصبح بعد من مبادئ القانون الدولي المعترف بها . غير أنه كان قانوناً قائماً في الإمبراطورية ومن هنا استطاع وزير الخارجية أن يعلن في عام ١٨٤١ أن « ... الملكة لا تستطيع الاعتراف بجزء من رعاياها على أنهم جمهورية مستقلة » .

بعد ذلك بعام بدأ الاحتلال البريطاني بشكل جدى . تمكن البوير في أول الأمر من محاصرة الغزاة ولكن الميزان انقلب لصالح بريطانيا بسبب ثورة قام بها الزولو ، وضمت ناتال رسمياً في عام ١٨٤٣ وعرض التاج ٦٠٠٠ فدان على كل أسرة تريد البقاء ، ولكن معظم البوير أبوا أن يقبلوا الهزيمة . ومرة أخرى نظمت الهجرة . ومرة أخرى عبرت العربات التي تجرها الثيران ممرات جبال أورا كنفزبرج . توجه البعض شمالاً نهر فال على مقربة من جمهورية بوتشيفستروم التي سبق إنشاؤها قبل ذلك بخمس سنوات ، وأقاموا دولاً ثلاثاً أخرى وهي ليدنبرج وزاوتبانسبرج واوترخت . وأقام الباقون جنوبي نهر فال لينشوا جمهورية وينبرج Winburg برئاسة أندريز ويسل بريتوريوس الذي سبق له تنظيم ناتال البويرية .

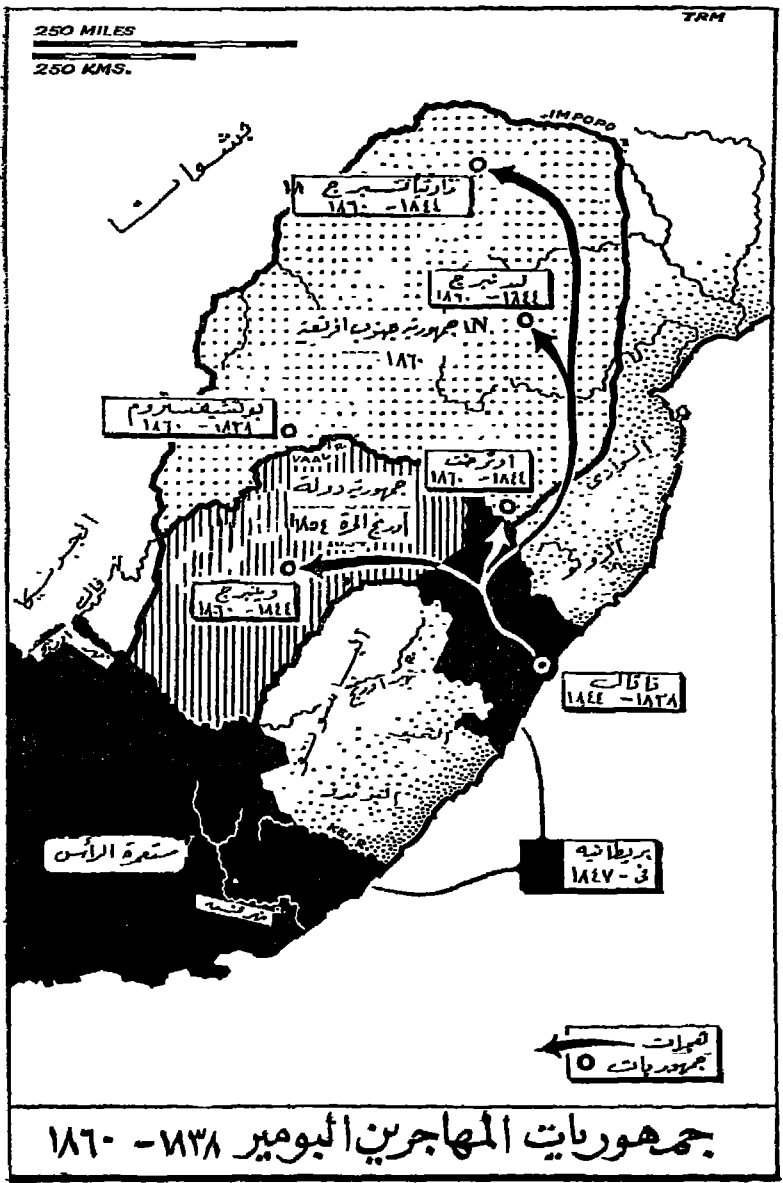
كان معنى ضم ناتال أن بريطانيا تحكمت في الساحل بأسره والذي كان يعتمد عليه جميع البوير المقيمون في الداخل . ولم يتخذ أى قرار بشأن مركز الجمهوريات الداخلية الخمس . كانت تدعى أنها مستقلة ولكن بريطانيا لم تعترف بها ولم تعمل على القضاء عليها .

وفي ظرف ثلاث سنوات بعثت بريطانيا بقواتها بسبب الاضطراب الذي ساد في صفوف البانتو ونتيجة الخلاف بينهم وبين البوير حول ملكية الأرض . أصبحت وينبرج وأراضى البانتو بين نهري فال وأورنج « دولة نهر أورنج ذات السيادة » ولكن الجمهوريات المتعثرة في ترنسفال ظلت معزولة . وفي وينبرج ثار ١٠ و١١ . بريتوريوس ضد بريطانيا ولكنه هزم عند بومبلاتس وفر إلى ترنسفال ، فحيتته بوتشيفستروم كبطل ونصبته على الفور رئيساً للجمهورية .

إن السيطرة البريطانية لم تمهل جمهورية أورنج إلا فترة وجيزة ، فلم يأت عام ١٨٥٠ حتى حدث الانفجار في صفوف البانتو المقيمين في درا كنزبرج - بين نهر أورنج ومستعمرة الرأس الشرقية كانت مجموعات صغيرة من قبائل السوثو التي أخرجها الزولو من الفلد في أوائل القرن ، قد التمسيت الحماية في الجبال . وانضم إليها بعض الزولو المارقين على شعهم ، ولكنهم جميعاً فقدوا في وسط هذا الاختلاط للضطرب الخواص القبلية التي يتميزون بها وزعامتهم التقليدية . في مبدأ الأمر كانت هذه البقايا التي يعوزها التنظيم تعيش عيشة بدائية يسودها الخوف في مكانها الجرداء ، دون أن تثير أية متاعب لجيرانها . إلا أنه في حوالى الوقت الذي استولت فيه بريطانيا على جمهورية أورنج ، بدأ منظم ما كرم من البانتو يقال له موشيش ، يعيد توحيد الجماعات الصغيرة المقيمة في الجبال . وكون قبيلة جديدة باسم « باسوتو » ظلت متمسكة بفضل خطبه ووعوده وبدأت تهدد كلاً من الجمهورية التي ضمت حديثاً وكل المنطقة الشرقية من مستعمرة الرأس .

وفي لندن كان القادة البرلمانيون شديدي الرغبة في التقليل من البيروقراطية والإتفاق والتورط فيما وراء البحار ، فأخذوا يطالبون بالجلء عن المنطقتين كلبية ، هذا الاتجاه حال إلى حد كبير دون انتهاج سياسة ديناميكية ، ولكن لم يكن من السهل العدول عما تم الآن من عمليات الضم والارتباطات . وظلت بريطانيا طيلة عامين تشقك في حرب غير منتظمة مع الباسوتو من القاعدة التي لم تكن تريدها في دولة نهر أورنج ، وتمكن موشيش بالتدريج من أن تصبح له اليد العليا فزعزع سمعة قوة بريطانيا تماماً في المنطقة . فلما حل عام ١٨٥٢ كانت وزارة المستعمرات قد قررت أن التدخل الإنساني النزعة والاحتلال الفعلي أمران غير عمليين وينطويان على تكاليف كبيرة وليس موضع رضاء الشعب بوجه عام . كان أفضل رد على التقدم الذي يحرزه موشيش هو التعاون مع البوير ، فإذا تم جلاء بريطانيا فإن المداء بين لندن والبوير قد يزول لتحل محله سياسة مشتركة لإزاء البانتو .

وتمشيا مع هذا تقابلت بريطانيا مع ممثلي جمهوريات ترنسفال الأربع - بما فيها عدوتها بوتشيفستروم - لوضع اتفاق نهر ساند في عام ١٨٥٢ ، فاعترف باستقلال الجمهوريات الأربع رسمياً ، وبعد ذلك بعامين وفي مدينة بلوم فونتاین تحولت جمهورية نهر أورنج ذات السيادة إلى دولة أورنج الحرة ، ووافقت الملكة على عدم اعتبار البوير رعايا بريطانيين بعد ذلك . غير أن الحدود لم تحنط إلا بصورة ضعيفة ، ومرت سنوات كثيرة لم يكن من غير المعتاد فيها أن يخدم بعض البوير كلاً من الجمهورية والتاج - أي يغيروا المواطنة بطريقة غير رسمية ، بمباراة أخرى .



وفي الوقت نفسه منحت بريطانيا مستعمرة الرأس الموالية قديراً من الحكم الذاتي الجزئي . كان رجال السلطة التنفيذية ما تزال تعيينهم لندن ، ولكن منذ ذلك الوقت ندر أن تحطت لندن قرارات برلمان الرأس أو ناقضتها . لكن حدث بطرق كثيرة أن منح الحكم الذاتي حطم النية الطيبة التي كانت بريطانيا تأمل نشوءها عندما اعترفت بالجمهوريات . كان في إسكان مستعمرة الرأس أن تضع التعريفات الجبركية الخاصة بها ، ولهذا بادرت إلى فرض رسوم عالية على البضائع الواردة إلى البوير أو الصادرة من عندهم خلال مرورها بالمستعمرة . وكذلك مما أثار القدر الكثير من سخط الجمهوريات توسيع نطاق حق الانتخاب في عام ١٨٥٣ بحيث يشمل الملونين ( المولدين ) من أهل مستعمرة الرأس . لذلك كان من المستحيل عملياً نشوء الثقة المتبادلة بين البريطانيين والبوير في معالجة موضوع السكان الوطنيين ، ذلك الموضوع الذي زاد حدة وأصبح مختلطاً بصورة متزايدة مع السياسة البيضاء .

وخلال عام من توقيع اتفاق نهر ساند ، مات أ . و . بريتوريوس وخلفه في رئاسة بوتشيفستروم ابنه الطموح مارتينوس ويسيل بريتوريوس . حاول الرئيس الجديد توحيد الترنسفال كلها ، فرفضت الجمهوريات الثلاث الأخرى مقترحاته . ثم حاول في عام ١٨٥٧ أن يضم دولة أورنج الحرة ولكنه اضطر إلى التراجع إزاء التحالف المؤقت الذي أقامته هذه الدولة مع زاوتبا نسبرج وليندنبرج وأوترخت وأصدقاء لها في مستعمرة الرأس . وبعد ذلك طلبت الدولة الحرة أن تضمها بريطانيا وتوفر لها الحماية ، فأبى التاج احتمال المسؤولية .

على ضوء هذه الخلفية أصبح الضغط عنيماً من جانب شعب من البانتو

آخذ في الازدياد عدداً . كانت القبائل من أمثال الإكسوسا قادرة في الماضي على حل هذه المشكلة عن طريق التوسع ، أو « السرقة » أو الحرب ، ولكن استيطان البيض وقوة بريطانيا العسكرية والزيادات التي حدثت في عدد كل من السكان البيض والبانو — هذه كلها وضعت حداً لهذه الحلول التقليدية .

وفي عام ١٨٥٧ اجتاحت الإكسوسا المقيمين شرقي مستعمرة الرأس ثورة دينية . يأسه ، فنأدى أنبياؤهم ببذ الديانة التقليدية ، وتدمير جميع المحصولات والممتلكات ، وذبح جميع الماشية ( حتى ما كان منها أساسياً للبنيان الاقتصادي والاجتماعي القبلي ) ، ثم وعدوا القوم بأن معجزة سوف تحدث حيث تهب « دوامة » تكتسح البريطانيين والبورير وتلقى بهم إلى البحر ، ويبعث أبطال الإكسوسا السابقين أحياء من جديد ، ويتحول جنوب إفريقية كله إلى أرض خصبة مليئة بالحلب النضير والماشية .

واجتاح الجنون المعازل المزدهمة ، فدمرت الممتلكات والمحاصيل والحيوانات . وراح الإكسوسا ينفثون وقوع المعجزة :

و عندما حل « اليوم » الموعود لم يحدث شيء .

كان الجيش البريطاني قد تلقى تحذيراً من قبل فيادر إلى إرسال المؤن عبر الحد . لم يكن هناك وقت لاستشارة لندن ذات التفكير الاقتصادي ، وقدمت مواد الإغاثة على نفقة سير جورج جراي الشخصية ، حاكم الرأس ، . وأمكن إنقاذ ثلاثين في المائة من السكان ، ولكن الخسارة التي نجمت عن « المجاعة التي أصابت الإكسوسا » كانت رهيبية بشكل مذهل .

لم يعد الإكسوسا بعد ذلك قبيلة موحدة ، ولم يسترد اقتصادها أهميتها السابقة أبداً . أصبحت منطقة البانتو الممتدة بين مستعمرة الرأس وناتال معزلاً شاسعاً يعتمد في معاشه على الاقتصاد الأوروبي . وكانت السلعة الوحيدة القابلة للبيع هي العمل . وسعى الإكسوسا — فضلاء عن جيرانهم الخاضعين لهم — إلى التماس العمل عند فلاحي مستعمرة الرأس وتجارها ورجال الصناعة فيها ، وبذلك بدأ امتصاص البانتو في اقتصاد البلاد وبدأت المعالم الأولية للترابط المنصرى الحديث .

وفي الحال أمر سير جورج جراى بإجراء تحقيق أظهر أسباب ثورة الإكسوسا . كان الملك موشيش يعد الخطة لشن حرب يقضى فيها على البوير . ولكن بصرف أنظار البريطانيين عما يدبر بعث بعملاء من قبله إلى بلاد الإكسوسا لإثارة أزمة وحرب على الحدود . من المحتمل أن موشيش لم يتوقع أن يؤدي المشروع إلى مثل هذا الدمار الذى لحق باقتصاد الإكسوسا ، ومن المحقق أنه لم يستبق قدرة جراى على إدراك الموقف وتداركه .

وبالرغم من عدم وقوع البريطانيين في الفخ قرر موشيش في ١٨٥٨ أن يسير قدماً بالهجوم على دولة أورنج الحرة . انهارت مقاومة البوير ولكن جراى تدخل بين الجانبين واستطاع بوساطته إنقاذ الدولة الحرة وإعادة السلام . وفي الوقت نفسه حاول تقديم المساعدة من أجل تنمية الجمهورية بأن أنشأ كلية في بلومفونتين ، زودها بمكتبتها الخاصة .

وبعد ذلك بتسع سنوات — ومن أجل الانتقام من موشيش والتعويض عن الغارات التى يشنها الباسوتو — استولت الدولة الحرة على أخصب أراضي

الأخيرين . ومرة أخرى تدخلت بريطانيا . كان الحاكم الجديد الذي يفتقر إلى صبر جرای وفهمه للأمر ، مصمماً على أن يضع نهائياً حداً لسلسلة الحروب التي يشنها الوطنيون ، والقلق والاضطرابات التي يثيرونها ، فضم إلى التاج جميع أراضي البانتو التي لا يسيطر عليها الأوربيون وجعلها تحت حكم وزارة المستعمرات المباشر . وفي هذه المرة أحست دولة أورنج الحرة أنها حرمت من النصر الكامل ، واتهمت بريطانيا بمحاباة الوطنيين وحمايتهم ، وتعهد إضعاف البوير ، والتآمر مع الباسوتو ضد الجمهوريات .

كان الاتصال قليلاً جداً بين جمهوريات الترنسفال الأربع والأحداث المقعدة الناشئة عن ثورات الباسوتو والاكوسا . وحتى بوتشيفستروم وهي أهم الجمهوريات الأربع ، ظلت بمنأى عن الاقتصاد الآخذ في النمو وعن اتساع نطاق النفوذ البريطاني .

كان الذين هاجروا إلى ترنسفال مشغولين إلى حد كبير بتطهير الأرض — لا من الأشجار وإنما من البدو البنتويين .

وكانت بوتشيفستروم قد أنشأها فلاحون يكادون أن يفتقروا إلى الأفكار المتعلقة بالنظريات السياسية أو علم الحكم . كانوا يريدون فقط أن يحيوا حياة رعوية وأبوية وخالية من أداء الضرائب . ونادراً ما زار أحد منهم العاصمة الصغيرة في قرية بوتشيفستروم إلا في أسبوع عيد الميلاد . وكان التبادل يجري بالسوق السنوية في أثناء العشاء الرباني حيث تجرى الطقوس المسيحية للأهلين



(كالزواج والتعميد والقداس) . أما في بقية السنة ، فكان الآباء الروحيون يشرفون على اتباع تعاليم الدين في بيوتهم المتناثرة .

لم يصحب المهاجرين فريق منظم من المبشرين ورجال الدين ، وإنما كان هناك وعاظ متجولون تحولوا بالتدريج إلى هيئة صغيرة من القساوسة المحليين أصبح لها نفوذها . وكان كثيرون من رجال الإرساليات الدينية الأجانب يزاولون نشاطهم بين القبائل المجاورة من الماتابيلي والباسوتو والجريكبا (الملونين) يوم هؤلاء الأمريكى دانييل ليندلى الذى خدم عدة سنوات بوصفه رجل الدين المكرس ، جميع الجمهوريات الخمس في ترنسفال ودولة أورانج الحرة ، غير أن رجال الإرساليات الآخرين ظلوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات البوير وينتقدونها نقداً مريراً .

كانت الهجرة والجمهوريات التى نشأت عنها ، تمثل إلى حد كبير فترة من القرن السابع عشر تتراجع بسرعة أمام القوى المركبة ، الصناعية والمستنيرة في القرن التاسع عشر . وكانت تغييرات كثيرة قد طرأت على الحياة الثقافية ، والاقتصادية والسياسية في أوروبا خلال الفترة الممتدة من ذينك القرنين ، ولكن لم يتسرب إلى هذه الأقاليم سوى القدر اليسير من هذا التغيير ، وما تسرب منه لم يكن ليتفق مع أفكار البوير . وكان فلاحو جنوب أفريقية يمثلون منذ البداية صورة مبكرة وريفية من البروتستانتية الهولندية ، وكانوا يعيشون في عزلة عن الجرى الثقافى الرئيسى حتى قبل أن يهاجروا من الأراضى الواطئة . لقد أخذت أفكار جديدة تظهر في أوروبا — وبخاصة حقاً في بريطانيا والناطق الحضرية بالأراضى الواطئة ، وهى أفكار عاش البوير بمعزل عنها ،

ولم يتأثروا بها . ففكرة التسامح العنصرى والدينى ، فضلاً عن نمو النزعة العقلية فى القرن الثامن عشر كقوة توازن العقيدة الدينية — كل هذا لم يخلف إلا أثراً يسيراً . ولم يكن للقوانين الحديثة فى التجارة والملكية ، وازدياد انتشار الاقتصاد النقدى ، من أثر ملموس .

لم يكن البوير بطبيعتهم من ذوى النزعة المحافظة ، كما لم تكن المحرمات أو المشاعر السلبية قوية بحيث تشكل شخصية إيجابية للقوم . كانت دعامة المجتمع هى الأسرة بوالدها ومزرعتها وإيمانها — القائمة على صلة النسب والأرض وديانة مخيفة نوعاً . وكانت الثقافة الشعبية — ممثلة فى الغناء والرقص ، والأسطورة والسلوك وتعاطى المشروبات الروحية — ثقافة حية وغير مقيدة . وفى هذه النواحي الدنيوية غالباً ما كان البوير على تناقض ظاهر مع المبشرين الذين كانوا يوجهون النقد إليهم أى البوير ، بسبب سلوكهم الاجتماعى الفاجر وعقيدتهم الدينية الجامدة بصورة متطرفة .

وعن طريق وقعه على رأى العام البريطانى كان للنقد الموجه من جانب رجال الإرساليات الدينية تأثير متزايد على موقف وزارة المستعمرات من الجمهوريات . كان رجال الإرساليات يهتمون الفلاحين بممارسة الأفكار والبعثات المسيحية ، وبالعدوان الجماعى على البانتو ، والعودة إلى شكل من أشكال الاتجار فى الرقيق . لكن البوير اعتقدوا أن البعثات حطمت ما قدره الله من انقسام البشر إلى فئات عليا ودنيا ، وبذلك كان تنصير الخدام اتجاهها خاطئاً لأن البانتو — بوصفهم من الفئة الدنيا — كانوا بدأً يتعين تنظيمهم ، وتدريبهم على العمل ، ومعاملتهم كالأطفال وذلك من أجل جماعة المجتمع الأرقى

مهم . وعلى خلاف رجال الحدود في البلاد الأخرى واصل البوير ازديادهم للتعليم ، والتغافل عن التطورات الثقافية في العالم الخارجى ، والمطالبة بقوات كبيرة من الخدم للعمل عندهم .

وفي ميدان الدين كان تعارض الآراء بين مختلف الجماعات البيضاء أوضح منه في أى مجال آخر . ففي عام ١٨٤٣ ، أى بعد الهجرة الكبرى بوقت قصير ، تخلى البريطانيون عن الإشراف على الكنيسة المصلحة الهولندية ، مما جعل كنيسة الرأس مجعماً مستقلاً يتمتع بالحكم الذاتى . وبدأ العداء للأفكار الجديدة ومؤثرات رجال الدين الأسكتلنديين يتضاءل إلى درجة ملحوظة في مستعمرة الرأس . وزادت أهمية اللغة الإنجليزية ونوع من اللاهوت أكثر اعتدالاً ثم برنامج للرساليات من حين لآخر ، بل لقد ظن البعض أن التجانس بين المستوطنين البوير والبريطانيين أخذ في الظهور . غير أن اتجاه التنظيم الكنيسى في الجمهوريات كان ضد هذا .

وفي عام ١٨٦٠ تم توحيد دول الترنسفال الأربع لتكوين جمهورية جنوب أفريقية . ظلت البلاد فقيرة للغاية ومعزولة إلى حد كبير ، وسيطرت المنازعات الدينية على حياة الترنسفاليين السياسية والاجتماعية ، واشتد الجدل حول مسائل من قبيل ألوهية المسيح وشخصية الشيطان .

وفي عام ١٨٤٣ انقسمت الكنيسة المصلحة الهولندية إلى ثلاثة مجامع لكل منها استقلاله — وهى مجامع الترنسفال وبلاد نهر أورانج والرأس . وكان الأخير مستقلاً عن الحكومة الاستعمارية ، ولكنه ظل موضع الشك في الجمهوريات لأنه قبل استخدام رجال الدين الإنجليز والأسكتلنديين .

انتقل بعض تأثير رجال الشيعة المنهجية إلى المجمعين الهولنديين في الجمهوريات حتى وإن كانا مستقلين عن مجمع الرأس وينظران إليه بعين الارتياب . هذه المجامع الثلاثة جميعاً أطلقت على نفسها اسم

**Nederlands Gereformeerde Kerk ( NGK )**

وانشق الكثيرون ممن يشتركون في المشاء الرباني عن المجمع الثلاثة في علم ١٨٥٣ وكونوا ما يعرف باسم

**Nederlands Hevoormde Kerk ( NHK )**

وكانت وجهة نظرهم محافظة وتعارض مع التأثير الأسكتلندي ، وقاومت اللغة الإنجليزية والميول الإنجيلية أو المنهجية . كانت الهولندية اللغة الرسمية للكنيسة ، وأصبح هذا المجمع المقدس دين الدولة في الترنسفال .

ظل موقف المجمع الأخير « النهيك » NHK من التفرقة العنصرية وموقفه الغامض من فكرة القدر ، لا يلقىان الرضاء من جانب فريق له شأنه ، كون أفراده جماعة كلفنية ثالثة في عام ١٨٥٩ بقصد تأكيد التفرقة العنصرية وتفسير القدر تفسيراً جامداً ، وتفسير الإنجيل تفسيراً حرفياً . وعارضوا في استخدام للموسيقى في الكنيسة ، ورجال الدين الأسكتلنديين ، وبعثات التبشير ، واللغة الإنجليزية والفكرة التي تذهب إلى أن للباتو أرواحاً . كان مجمع النهيك NHK يعتبر زندقة ، سواء في هولندا أو في مستعمرة الرأس أو الجمهوريات . كان يستنكر نظريات جاليليو ، ويرى أن الأرض مسطحة وأن البوير هم شعب المسيح المختار ، وأن الباتو من نسل حام ولا يصلحون إلا للحل الماء ، وصقل الخشب . كان المنشقون يشكلون جماعة صغيرة جداً ومنطوية على ذاتها ،

بولكنها أخرجت عدداً غير عادي من القادة الذين كان لهم شأن في السنوات المائة الأخيرة .

وجمعل « النهيك » والمنشئون من كنائسهم مراكز للوطنية الثقافية المسيحية الوبيلة ، ووضعوا التأكيد بوضع خاص على اللغة والقومية والطابع الذي يميز ثقافة البوير . وإذ صارت الغلبة لنفوذ المنشقين وزعامتهم أصبحت الحركتان ، وعن عمد ، أكثر عداء للأفكار التحررية . وإذ اعتقد أتباعهم أن القدر جعل منهم الشعب المختار والذي أنقذ من الخطيئة الأصلية ، أصبحوا ينظرون إلى تاريخهم وزمانهم في ضوء خاص بهما . لذلك كان حتماً أن يهاجوا شركة الهند الشرقية الهولندية السابقة ، والبريطانيين ، والباتو ، والأفكار الحديثة عن التسامح الاجتماعي أو المساواة — وبعبارة أخرى كل ما كان « ليبراليا » في النواحي الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية . وعلى نقض هذا كانت الليبرالية نفسها هي أية حركة أو قوة تهدد تميز البوير — أي أية تهديدات لإلههم وكنيستهم وذاتية شعبهم .

ولما كان المنشقون يسيطرون على « النهيك » ، والأخير هو الدين الرسمي ، لهذا كان لهاتين الشيعتين تأثير مباشر على حكومة جنوب إفريقية . وليس هناك مثال على هذا الأمر أكبر من بول كروجر وهو مبشر من المنشقين . دامت رئاسته أكثر من نصف مدة حياة الجمهورية .

وبالرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها البريطانيون والبوير والباتو ، بقصد الوصول إلى شكل من أشكال الحل للمشكلات المنحة في الثقافة والأرض . والسياسة في جنوب إفريقية ، إلا أنه بحلول الستينات من القرن الماضي كانت الآثار المؤدية إلى الفرقة والهدم ، والمتولدة من التردد والعزلة ، قد أصبحت مزمنة .



الكتاب الثاني  
أفريقيّة تصنع من جديد





## رسالة المحررة

ظلت المؤثرات الأوروبية على أفريقية سطحية نسبية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . فإذا استثنينا جنوب أفريقية وعدداً قليلاً من المزارع البرتغالية المتناثرة ، فلم تبذل محاولة من أجل التوطن الدائم . لقد حل التجار الذين يزاولون التجارة المشروعة لحسابهم محل تجار الرقيق ، وأقامت الإرساليات المسيحية بضع محطات منعزلة . لكن التجارة والإرساليات لم تكن رسمية وغالباً ما كانت غير دائمة . وكان رأس المال الذي استثمر فيها قليلاً ، كما كادت دائماً أن تعتمد على التعاون أو التأييد من جانب الإفريقيين الذين أبدوا نحوها الرد .

ونادراً ما توغل الأوروبيون وراء الساحل ، بل إن مصلحتهم في الأراضي الساحلية اقتصرت على قلة من المناطق التي تدر أكبر الربح . ولم تبذل محاولات حقيقية للتأثير في نظم الأفريقيين وثقافتهم أو السيطرة عليها أو حتى فهمها . وحينما كانت المستعمرات أو المصالح الأوروبية دائمة فقد كانت تعيش في عزلة عن الأفريقيين — حتى عندما توغل الأوروبيون لأول مرة في الداخل كما حدث في جنوب أفريقية . وكان الاستثناء البارز الوحيد محلات المستوطنين البرتغاليين ، غير أن هذه كانت تمتصها الحياة الأفريقية دائماً إلا إذا أصبحت منفصلة عنها من النواحي المنصرية والثقافية . وكانت البرتغال قد فرضت حكمها على مناطق معينة يقطنها البانتو ، ولكن البعض لم يبدأوا في حكم الأفريقيين على نطاق

واسع أو بشكل فعال قبل القرن التاسع عشر، إذ في هذا الوقت فقط خصص الزولو للبوير، والاكوسا والباسوتو لبريطانيا، والمسلمون السنغاليون للإمبراطورية الفرنسية الثقافية. ولم تفكر بريطانيا في التخلي عن كل مسئولية اقتصادية وسياسية في كل من إفريقيا الغربية والجنوبية إلا في أواخر الستينات من القرن، بالرغم مما ساور الذين يرسمون سياستها، من أمل في الاحتفاظ بمزايا معينة. وكانت فرنسا والولايات المتحدة والأراضي الواطئة وإسكنديناوة قد فقدت ما كان لها قليلاً من مصلحة يسيرة، وإذا استثنينا العرب فما من دولة أجنبية كانت تعرف شيئاً عن أفريقية الشرقية أو تهتم بها.

كانت المذاهب الليبرالية عن التجارة الحرة والاقتصاد المرسل *Laissezfaire* وتقييد سلطة الحكومة، وعن المذاهب التي انتشرت على نطاق واسع في جميع أرجاء أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر، قد ثبتت العزم على تطبيق أى من الأفكار التي قد تؤدي إلى تورط حكومة ما في التوسع السياسي والتوسع في الإنفاق واتخاذ التدابير لأغراض السيطرة والتنمية الاقتصادية أو تحمل المسئولية العسكرية. إن استمرار مثل هذا الاتجاه منع، مثلاً، من اتخاذ قرار دائم بشأن السيطرة على ساحل الذهب أو الاضطلاع بمسئوليته، وحال دون القيام بأى عمل حاسم إزاء البوير أو الباتو في جنوب إفريقيا. وساعد الاتجاه نفسه على منع أية دولة من الاهتمام الحقيقي بالداخل أو الساحل الشرقي، ونهى عن قيام التعاون الدائم أو الواسع مع أى من الشعوب الإفريقية. غير أن الظروف أرغمت الأوروبيين أحياناً على الخروج عن مبادئهم في الحرية الاقتصادية وأبرز مظهر لذلك الموقف الجديد كان الجهود المبذولة من أجل مقاومة البوير عن اختلاف نظريتهم عن أنظمة أوروبا المتحررة في القرن التاسع عشر.

ومن الأمور الأساسية بالنسبة إلى الليبرالية ، الاعتقاد بأن العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين البشر تحكمها قوانين طبيعية لا حول عنها . وطالما تطبق هذه « القوانين » في داخل أوروبا ذاتها وبمواقفة الناخبين الأوروبيين ذوى الفكر المتحرر ، فإن أية تناقضات لهذه القوانين الطبيعية أو أية قيود تفرض عليها ، يمكن نسيانها أو تفسيرها . وبالمثل طبقت مستويات الليبرالية على السياسة الأفريقية ، فيجب أن تقلل الحكومات الأوروبية من نفوذها بل وأن تسحبه . وكان من الواضح إلى حد كبير أنه ينبغي لها ألا تتدخل بالمثل في المجال الاقتصادي .

غير أن القانون الطبيعي كان قابلاً للتطبيق على جميع البشر بغض النظر عن جنسهم أو ثقافتهم أو موضع إقامتهم ، وكان أعظم الجدل بشأن هذه النقطة يدور حول مسألة الرق . فقال الأحرار إنه إذا كان من الخطأ استعباد الأوروبيين فإن من الخطأ بالمثل استعباد الأفريقيين ، وفي سبيل تطبيق هذا الحكم الأخلاقي المطلق كان لابد من إلغاء الرق . ومعنى هذا بطبيعة الحال أن الرق كان شراً بغض النظر عن نمط الثقافة ، ولم يعد في الإمكان احتمال الاتجار في العبيد الآدميين أو استخدامهم حتى ولو كانت ثقافتهم تسمح بذلك . إن العلاقة بين الأخلاق وثقافة الفرد لا تقوم على مبدأ النسبية .

كان الهجوم على الرق أول موجات الهجوم الذى شنته الليبرالية . وبعد جدل استطال أمده أصبحت النسبية الثقافية موضع الاستنكار ، وألقى الرق في جميع المناطق الخاضعة لاختصاص البلاد المتحررة الفكر مثل إنجلترا وفرنسا وإسكنديناوة والأراضى الواطئة . وبقدر ما كان الرق خطأ مطلقاً ، فلم يكن

يكفى أن يحظره البلد الذى كان أهله يمارسون هذه التجارة ، إذ سرعان ما حققت البلاد الأقل تحرراً فى الفكر ، السيطرة على أسواق وموارد العبيد. الإفريقية التى تركتها إنجلترا المتحررة ، وزاد عدد المنظمين الذين لا يرعون الضمير ، وتدهور شأن الوسطاء الأفريقيين الذين كانت قوتهم وثروتهم تعتمدان على الأتجار بالرقيق أو سعوا وراء منافذ جديدة . كان الحل الوحيد يتمثل فى الضغط على القبائل والشعوب التى واصلت انتهاج هذا الأسلوب وحراسة الطرق البحرية التى يرتادها تجار الرقيق . غير أن مثل هذه الأعمال تتطلب استخدام الدبلوماسية الدولية فضلاً عن قوات عسكرية قوية وكثيرة التكاليف ، وهاتان الطريقتان تعارضان مع المذاهب الليبرالية عن الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الحكومة وخفض نفقاتها . وقنعت معظم الحكومات المتحررة إما بالانسحاب فى هدوء وإما بالانقصار على التنفيذ الرمزي ، ولكن بريطانيا أصرت فى حزم على عقد سلسلة من الاتفاقات الدولية لمنع الرق . وخلال القرن التاسع عشر وزعت وحدات بحرية بريطانية على الطرق التى يستخدمها تجار الرقيق وذلك من أجل تنفيذ القوانين التى سنتها بريطانيا والمعاهدات التى عقدها مع الدول الأجنبية .

كانت الاعتبارات الإنسانية تبرر استخدام الدبلوماسية والقوة البحرية منع جميع الأوروبيين . وتمشياً مع المنطق كان نفس الالتزام الإنسانى الفزعة يشمل القبائل الأفريقية والدول التى تتاجر فى الرقيق ، والتي كان يؤتى بالعبيد منها منذ أمد طويل ، ولذلك فمن الضرورى القضاء على الرق فى صفوف الإفريقيين . أنفسهم وصياغة حياتهم واقتصادياتهم من جديد وفقاً للنموذج الليبرالى .

المهمة أصبحت الرسالة الليبرالية ولكن مضى نصف قرن قبل تحديد مسئولية الحكومة عن هذا الأمر . كذلك كانت هناك بعض الالتزامات الواضحة في معاهدات التجارة والحماية المعقودة مع التبادل الصديقة . في أول الأمر عهد بالمهمة في إفريقية الغربية ، إلى حد كبير ، إلى المنظمين ولكفهم سرعان ما أحدثوا الانزعاج بسبب ما كانوا يبدونه من ميول إلى الاضطلاع بمسئوليات جديدة أو إلى التهاون في تنفيذ التزاماتهم . وفي جنوب إفريقية بدأ التدخل العسكري من وقت لآخر ضرورياً لمنع تدهور وتفرق مجتمعات البيض والباتو التي لا يمكن أن يتوافق بعضها مع بعض . لم يكن من اليسير سحب الحكم ، ولكن لم تنبذ النية تماماً على اتخاذ مثل هذه الخطوة إلا في نهاية الستينات من القرن .

وكان حتماً أن يبدى الليبراليون اهتمامهم بنجاح الجهود الإنسانية في إفريقية . بالنسبة إلى الجماهير الأوروبية لم تكن الرسالة الليبرالية والجهود الإنسانية النزعة فلسفية أصلاً . فلما امتزج هذا بالمشاعر الدينية لدى الجماهير وبالرغبة الجماعية في العمل أكثر منها في وضع النظريات ، فرمما أصبح من المحتوم أن تعمل الليبرالية على إحياء الحماس للرسائل المسيحية ، وبهذه الوسيلة يسعى الأفراد وجماعات المتطوعين بدلاً من الحكومة — إلى إعادة تشكيل الإفريقيين وتوجيههم نحو الأهداف المسيحية التحررية الشاملة . أما أن هناك تناقضاً بين الليبرالية العلمانية والديانة المسيحية ، أو بين مثل السياسة الحرة والحماس الشديد لإعادة تشكيل ثقافة إفريقية ، فأمر لم يلحظه سوى عدد غير مترابط من المراقبين والمثقفين .

وحتى قبل أن يكون لليبرالية المثالية الشعبية تأثير على إفريقية ، كانت

الفلسفة العقلية التي سادت في القرن الثامن عشر قد أشعلت شرارة اهتمام علمي واسع النطاق . فلا أول مرة توغل المغامرون البيض على نطاق كبير في الداخل . غالباً ما كانوا من العلماء الذين يعوزهم التدريب ، ولكنهم جميعاً يشتركون في القدرة على الرواية السليمة ، وفي الإيمان بقيمة وأهمية مجرد الحصول على المعرفة عن الأماكن البعيدة ، وفي العزم على تسليط ضوء على الأساطير . والشائعات التي ظلت قروناً تشبع ما في الناس من غريزة حب الاستطلاع . فتوغل منجوب بارك ورينيه كاييه في أعالي النيجر في سنوات ١٧٩٥-١٨٠٦ ، ١٨٢٧-٢٩ على التوالي ، وسعى كلا برتون والأخوان لاندر وهنريخ بارت إلى اكتشاف النيجر الأدنى وبلاد الهوسا فيما بين عامي ١٨٢٥ ، ١٨٥٦ . وثمة اهتمام مماثل بمنجوب أفريقية خلال الفترة ذاتها دفع بغيرهم إلى ارتياد المناطق الواقعة في غرب الترنسفال وشمالها . لا بد أن جزاءهم النقدي كان ضئيلاً ، بل إن الكثير من المصالح التجارية والسياسية كانت تقف موقف العداء من هؤلاء الساعين وراء العلم والدرس دون أن تحركهم أية مصلحة ذاتية . ولم تكن للجنسيات التي ينتمون إليها سوى أهمية يسيرة في ذلك الوقت — فالكثيرون منهم لم يعرفهم سوى علماء الجغرافيا — وفي نطاق تلك الدائرة المحدودة كان الاستحسان الذي قوبلوا به عالمياً في مداه . وبالرغم من أن هذه الكشوف كانت ثمرة الإيمان العلمي الجديد بالنظام العالمي الشامل والمعرفة ، كما كانت تؤمن الليبرالية ، إلا أن الحركتين نادراً ما تعاونتا في الميدان الإفريقي .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مالت الحركات التبشيرية إلى تركيز نشاطها على طول حدود مستعمرة الرأس ، أو على امتداد ساحلي الذهب

والعبيد حيث كان يبذل الجهد عن عمد لمقاومة ما كان لتاجر الرقيق من تأثير في الأيام السابقة . وفي جنوب أفريقية وبسبب كون السكان من البانتو أشد تفرقا ، والأرض مكشوفة تسيحة ، والرغبة في مقاومة تأثير البوير ، كل هذا أدى إلى أن يتسع ميدان نشاط الإرساليات بصورة أسرع نحو الداخل عندما اقترب القرن من الانتصاف . هنا جاء العلم والدين والليبرالية المعادية للرق ، لأول مرة ، في شخص دافيد ليفنجستون ( ١٨١٣ - ١٨٧٣ ) .

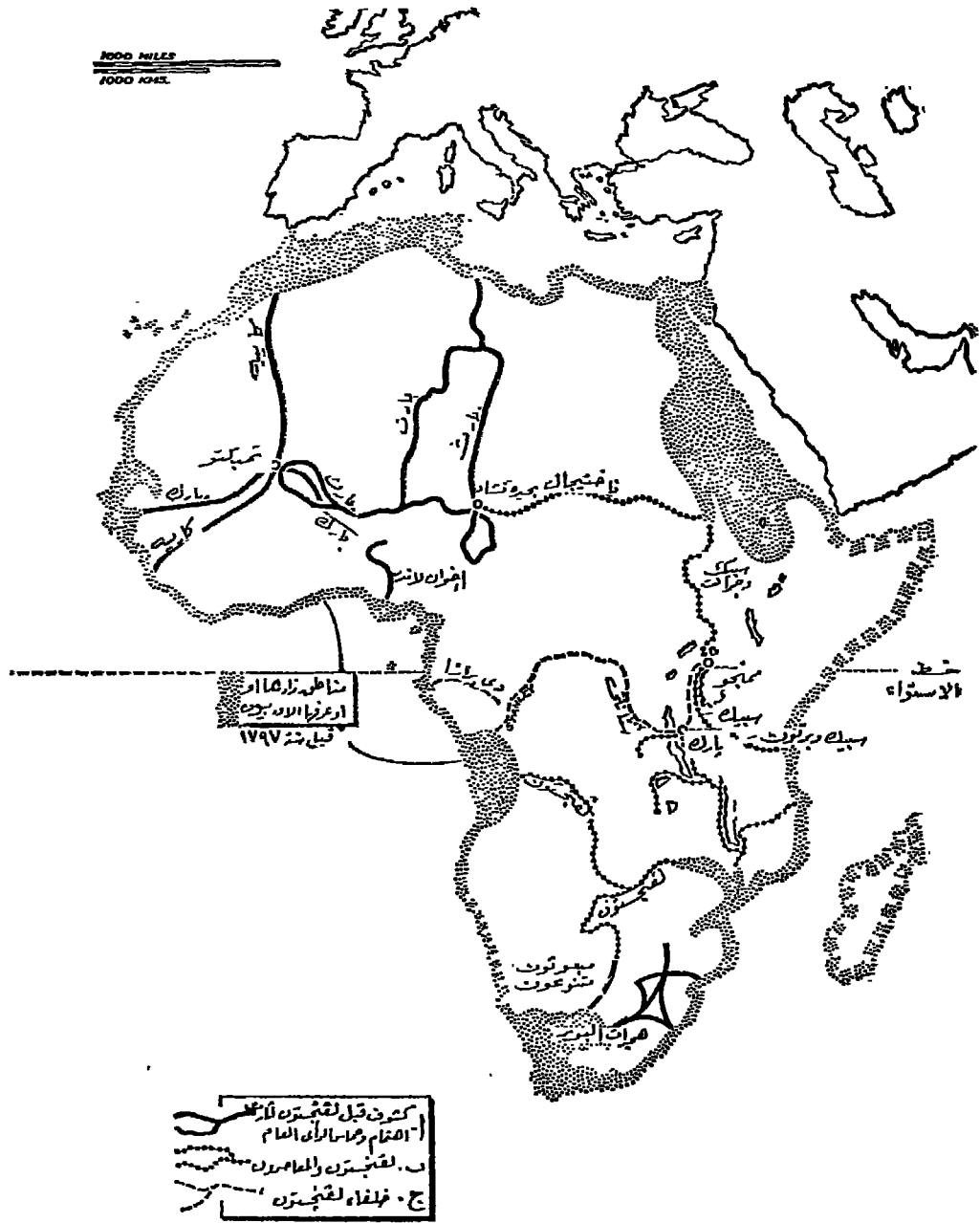
بدأ الدكتور ليفنجستون حياته العملية في عام ١٨٤٠ طبيياً مبشراً عند الحد في جنوب إفريقية ، في إرساليات تعمل منذ وقت طويل في صفوف قبائل السوثو غربي دولة أورنج الحرة مباشرة . وبعد اختلافات متكررة مع البوير الذين كان يختلف عنهم - بوصفه عالماً ورجل كنيسة أسكتلندياً - راح ليفنجستون يكشف جغرافية الداخل وأهله .

وإذا كان يملك استعداداً خاصاً للملاحظات العلمية أسهم بدرجة لها شأنها في توفير المعرفة بتاريخ أفريقية الطبيعي وجغرافيتها ولغاتها . كانت التقارير التي وضعها عن الثقافة أو الشخصيات الإفريقية أقل جلاء إلى حد ما ، ولكن كان يحركه شعور قوى من العدالة والحماس ذي النزعة الإنسانية . وخلال الرحلات المتعاقبة التي قام بها بين عامي ١٨٤١ ، ١٨٥٣ توغل داخل حوض نهر زمبيزي . وحل الناس على اعتناق المسيحية ، وعقلما حل عام ١٨٥٦ كان قد عبر ذهاباً وإياباً ، الإقليم الواقع بين أنجولا وموزمبيق ، واكتشف شلالات فكتوريا . وبعد ذلك بثلاث سنوات أقام مركزاً كبيراً للتبشير على شواطئ بحيرة نياسا والتي لم يكن أحد يدعى امتلاكها . وأصبحت تقاريره العلمية والتبشيرية التي

كتبها بأسلوب واضح، أوسع المطبوعات انتشاراً بين جمهور القرن التاسع عشر سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة. وثار موجة من الحماس — وهو ما كان في ذلك القرن يميز ثقة الناس التي لاحد لها تقريباً في العلم والدين — وبلغت ذروتها في موجة من الغضب الشديد حين بعث ليفنجستون بالتقارير الأولى، الواضحة والمفصلة، عن تجارة الرق العربية، إذ أظهر أن تجار الزنج توغلوا بعيداً حتى وصلوا إلى حوض الكنفو، كما وصف نواحى من تجارة إفريقية الشرقية لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ونجحت تقارير ليفنجستون في أن تتضمن نداءات علمية ودينية ورومانسية. سرعان ما عملت الصحافة التي تهتم بكل ما هو مثير، على ترويجها ونشرها في مقالات مسلسلة وفي تضييها، وظهر اهتمام جديد بكل من إفريقية الشرقية والوسطى، يختلف تماماً من نواح كثيرة عن الاهتمام السياسى أو الاقتصادى. وفي عام ١٨٦٥ أدى الضغط من جانب تجار الرقيق العرب إلى هجر إرسالية نياسا الأسكتلندية. وقام الدكتور ليفنجستون برحلته الثالثة — وكان غرضه في هذه المرة أن يجد منبع نهر الكنفو. كان اهتمام العالم بالرحلة أشبه بالحمى. وبالرغم من أن العدائين الباتو كانوا من وقت لآخر يأتون بالرسائل من القاعدة الأمامية التي اتخذها لنفسه على الشاطئ الشرقى ابجيرة تنجانيقا، كان الجمهور في أوروبا والولايات المتحدة يشعر بالقلق وفقد الصبر عندما دخلت الحملة في سنتها الخامسة خلال عام ١٨٧٠. وقرر جيمس جوردون بنيت Bennett ناشر صحيفة نيويورك هيرالد الإثارية، أن يبعث بمخبر ليجمع الأنباء في جميع أرجاء شرقى البحر المتوسط والهند ومنطقة الاهتمام الجديدة في شرق أفريقية — بما في ذلك مقابلة رجل الأرسالية الشهير.





## افريقيتم: الكشوف في القرن التاسع عشر

وقع اختيار بينت للمهمة على جون رولاندز ، وهو رجل من أهل ويلز سبق أن هاجر إلى نيو أورليانز وأخذ لنفسه اسم الرجل الذي تبناه وهو هنري مورتون ستانلي . وإذ كان ستانلي لا يخشى أبداً أن يهاجم الشخصيات ، أو يؤذي المشاعر ، أو يضيئ خياله على القصة البسيطة ، لهذا سرعان ما برز في عالم الصحافة الزاهر بنيويورك في الفترة التي أعقبت الحرب الأهلية . وكانت ضروب نشاطه موضع التمريل الجيد ، واشتهرت بما تنطوى عليه أحياناً من روح الضجر وكان يقوم بها في العادة بأسلوب درامي مثير . كان يعتمد أن يجعل التقارير التي يبعث بها من إفريقية ، بحيث نتفق مع الصورة الشعبية عن القارة «المظلمة» المتوحشة والتي تكن فيها إمكانيات الثراء . وبعد أن أقام عدة أشهر في الشرقين الأدنى والأوسط ، قام في عام ١٨٧١ بتنفيذ الجزء الأفريقي من المهمة التي أسندت إليه . كان بالكاد قد تجاوز الثلاثين من عمره حين وصل إلى زنجبار . هذا الميناء سبق أن استخدمته حملات كثيرة ، وفيه قامت مكاتب القنصلية البريطانية ، وذلك بوصفه قاعدة قاعدة خلال الجيل السابق سار منها برتون وسبيك إلى بحيرة تنجانيقا في ١٨٥٤—٥٥ ، وسبيك وحده إلى بحيرة فكتوريا ومجارى النيل العليا في ١٨٥٨ ، وسبيك وجرانت متتبعين النيل إلى مصر في ١٨٦٠—٦٣ . هذه المناطق الداخلية جميعاً كان قد تم الآن ارتيادها ووصفها كلها — باستثناء منطقة النيل . وكانت تصل إليها أيضاً طرق تجارة الرقيق العربية والمتفرعة من زنجبار كلها . وأنفق ستانلي على الحالين وإعدادهم أكثر مما أنفق جميع الذين تقدموه مجتمعين . وإذ سار في الطريق الذي اتخذه سبيك إلى أوجيجي ، حيث كان المعروف أن الدكتور ليفنجستون يقيم فيها ، اعتمد ستانلي على المرشدين ورجال القوافل العرب . لاعجب أن نجد رجل الإرسالية

العالم قد انعقد لسانه عندما استقبل هذا الخليط الذي لم يسبق له مثيل ؛ ولم ينطق بكلمة إلى أن قال ستانلي « أظن أنك الدكتور ليفنجستون ؟ » .

وبعد ذلك بعامين ، في ١٨٧٧ ، جاء حاملو الدكتور ليفنجستون بأول نبأ عن موته ، ثم ببحثه وأوراقه بعد ذلك . لقد ترك إفريقية وأقاليمها الواقعة في وسط القارة لم تعد مجهولة أو منسية، وخلق جواً جديداً بين أهل أوروبا سوف يثير منافسة سياسية واقتصادية جادة ومحاولات قوية للتبشير ، وكانت النتيجة سباقاً قومياً عنيفاً بين الدول الكبرى لاقتطاع مساحات شاسعة من الأقاليم الداخلية . لقد أخذت الرسالة الليبرالية تتحول إلى منافسة استعمارية .





دار الجيل للطباعة ٤١ قصر الوثائق - النجالة  
تليفون ٩٠٥٢٩٦



الموزعون الوحيدون  
خارج الجمهورية العربية المتحدة  
دار المعارف لبنان

التمن  
١٢٥ ق.ل.

ريال سعودي	٢	=		١٢٥ ق.ل.
٢١٢ر٥ فرنك في الجز		=	١٦٢ر٥ ق.س.	=
٢١٢ر٥ فرنك في الفر		=	١٥٦ر٥ فلس في العراق والاردن	=
٢٢٥مليم في السودان		=	١٥٦ر٥ فلس في الكويت	=